

فوائد حسنا

— * رواية تاريخية غرامية * —

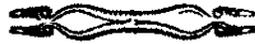
- * نشرح حال الاسلام من أول ظهوره *
- * الى فتوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب *
- * في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف *
- * أخلاقهم وأزبائهم وسائر أحوالهم *



تأليف

عرجي زيدان

« منشىء الهلال بمصر »



الجزء الثاني

« طبعت بمطبعة (الهلال) ببول شارع النجالة بمصر سنة ١٨٩٨ م »

الهلال

✽ مجلة علمية شرقية ادبية تاريخية ✽

لمنشئها

جرجي زيدان

أُنشئت بمصر في اول سبتمبر سنة ١٨٩٢

تبحث في كل المواضيع المصرية وفي التواريخ الشرقية وخصوصاً
الإسلامية مع رسوم مشاهير الناس وتواريخهم ومستحدثات الاختراع ورسوم
مشاهير العصر وتاريخ الحوادث الجارية في كل اقطار العالم وروايات تاريخية
اسلامية تبدأ بظهور الاسلام وتدرج فيه دولة دولة وعصرًا وعصرًا على
اسلوب حديث كثير التشويق للمطالعة. تصدر مرتين في الشهر في كراس
كبير صفحاته اربعون صفحة جيدة الورق جميلة الحروف متقنة الطبع.
يبدل اشتراكها في السنة خمسون غرشاً داخل القطر المصري واما خارجهُ
فهو ١٢ شليناً او ١٥ فرنكاً او ٢ روية او ٣ ريالات اميركانية او ٣
ريالات مجيدية ونصف تدفع سلفاً فمن اراد الاشتراك فيها فليخبر « ادارة
الهلال بمصر » واذا اراد احداً الحصول على مثالٍ منها فليطلبه فيرسل
اليه مجاناً .

✽ هدايا الاصدقاء ✽

افضل هدية تهديها الى صديقك اذا كان ممن يحبون المطالعة
« اشتراك سنة في مجلة الهلال » فان قيمته زهيدة ومطالعتُه سهلة ومواضيعه
لفيدة مفيدة

فَيْلَا حَسْبُنَا

- * رواية تاريخية غرامية * -

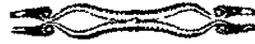
- * تشرح حال الاسلام من أول ظهوره *
- * الى فتوح الشام والعراق مع بسط عوائد العرب *
- * في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف *
- * أخلاقهم وآدابهم وسائر أحوالهم *



تأليف

عرجي زيدان

« منشىء الهلال بصر »



الجزء الثاني

« طبعت بمطبعة (الهلال) ببول شارع النجالة بصر سنة ١٨٩٨ م »

مقدمة

✽ الجزء الثاني من فتاة غسان ✽

هذه هي الرواية السادسة من رواياتنا التاريخية ولكنها تمتاز عنها كلها بأنها الحلقة الاولى من سلسلة روايات متتابعة تضمن تاريخ الاسلام من اول ظهوره الى الآن سنشرها تباعاً في مجلتنا « الملال » فهذه الرواية الاولى منها وتضمن الحوادث التي وقعت من ظهور الاسلام الى فتح الشام والعراق وتليها رواية في فتح مصر وهذه سبق اننا نشرناها في السنة الرابعة من الملال وهي « ارمانوسة المصرية » ولم يكن في عزمنا تأليف هذه السلسلة اما وقد عزمنا على ذلك فصارت « ارمانوسة المصرية » الحلقة الثانية من تلك السلسلة

واما الحلقة الاولى التي نحن في صددها (فتاة غسان) فقد نشرنا الجزء الاول منها في السنة الخامسة من الملال وهذا الجزء الثاني نشر في السنة السادسة وبناءً على الحاح حضرات القراء طبعناها على حدة رغبة في نشرها وسننقلها برواية اخرى نشرها في السنة السابعة تتضمن مقتل عثمان وخروج الخلافة من اهل البيت الى بني امية ثم روايات اخرى في اهم حوادث الدولة الاموية في الشام وفي الاندلس وحوادث الدولة العباسية والفاطمية والايوية وهكذا الى آخر تاريخ الاسلام

فحسب ان يلاقى هذا المشروع اقبالاً من حضرات القراء الادباء فنشأ

على العمل والاتكال على الله

الفضل التاسع والأربعون

* المناجاة *

تركنا حماداً وسلمان في مكة وقد غاب عليهما اليأس بعد ان تكبدا مشاق الاسفار ولم يظفرا بشيء ما أملاه وخصوصاً حماد فانه اصبح يئساً تنفاذفة عوامل الحب من جهة وعوامل الشهامة من جهة اخرى وهو بين ذلك لا يرجو لقاء والد ولا يأمل الظفر بجيبته فكان كلما تصور ذلك ثارت الحمية في رأسه وعظم عليه العود الى اللقاء فحدثته نفسه ان يبتعد عن الناس ويأوي الى مكان لا يعرفه فيه احد او ان يقيم في دير او نحوه لان الحياة اصحبت لديه شراً من الموت

أما سلمان فانه ادرك حال سيد وعلم ما هو فيه من الياس فنارت في نفسه عاطفة الشهامة وعول على ان يبذل نفسه في سبيل تعزيتة فخرج من الغرفة ذات صباح متظاهراً بحاجة يفتش عنها وترك حماداً وحده فله خلا حماد بنفسه خرج من الغرفة وصعد الى سطح الخان وقد ضاق صدره وصغرت نفسه والسطح نطللة خيمة من ورق الشبر فجلس على وسادة واخذ ينظر الى مكة وما يحيط بها فاذا هي عبارة عن ارض منبسطة في واد تحف به الجبال فلم تشغله تلك المناظر الا هنيهة ثم عاد الى هواجسه فتذكر حبيته ووالده وتصور مقدار ما تراكم عليه من الهموم ما ألم به من الفشل وقد قطع البراري والقنار حتى جاء الكعبة للبحث عن قريبي مارية مهراً لخطيبته هند ومرضاة لوالديها فعلم من حرب الخزاعي ان القرطين لا يمكن العثور عليها هناك وبعد ان كان على أمل من لقاء والد مع أبي سفيان في مكة تحقق ضياعه وبس من حياته فتصور نفسه مغلول اليدين مقصوص الجناحين فعظم الامر عليه كثيراً واشتد به الياس حتى تناثرت الدموع من عينيه ثم تذكر انه في غربة لا يجدد به الاستسلام للعواطف فامسك نفسه ولكن اليأس غلب عليه فانقبضت نفسه واشتد به الهيام فاخذ يناجي هندا قائلاً

آه منك يا هند بل آه من هذا القلب الذي عصاني وإطاعك ونعم ما فعل

فانك والله جدير بحبه ولكن والدك آه من والدك فانه انما اراد مستجيلاً فطلب مني
 مهراً العتقاء اقرب مثلاً منه وكأني يو لا يرضاني لئلا صهرراً وعذره مقبول طالما كان
 نسي مجهولاً فالقرطبان لم يوجد فهند بعيدة المنال مني آه يا هند أعود اليك
 بصفتة المغبون وإذا عدت كذلك ما يكون رأيك لا ريب عندي ان
 ذنبك القرطين لا يهك امرها ولا رضيت ان اشفي في سبيل التفتيش عنها إلا مجارة
 لوالدك ولكن ما هذا يا حماد كيف تعود الى هند صفر اليدين وكيف تقابل
 جلة وماذا تقول له لا لا لا لن اعود الى البلقاء على هذه الحال وقد فقدت والذي
 في بلاد لا اعرف فيها اليقا ومن يدري ابن هو ابن النذر ووفاء النذر يا ليتني قص
 شعري قبل ضياعه فقد كنت على موعد منه انه متى وفي النذر وقص الشعر بطلعي
 على امور تهمني وقد يكون لها علاقة بأمر زواجي فاين والذي الآن آه يا ابتاه ابن
 انت أهلك لا تزال في قيد الحياة من يعلمني ابن مقرنك فاطير اليك مسرعاً أما اذا
 يشت منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة ما رب فاما ان الجا الى دير او صومعة
 أفضي بقية الحياة منفرداً لا اري انيساً او ان ألقى نفسي في تهلكة ولكن لا لا
 ان قتل النفس ضعف ومذلة وكيف افعل ذلك ونفسي رهينة امر هند وهند لا
 تريد قتلها اذن لأصبرن صدر الرجال واعيد الكرة في البحث عن القرطين فاذا
 نيقنت فقدانها عمدت الى هند وبسطت لها امري وأطلعتها على كنه ضميري فاذا
 رأيتها توثر مرضاة والديها وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيا ومن
 فيها السلام والآفاني ارضى من الدنيا برضاها فتعاقد وتراضى على امر يكون لنا فيه
 منجاة من والديها واما والذي آه ابن انت يا ابتاه ان ضياعك عرقل مساعي
 وغل يدي ولا ريب انك لو شاركتني في هذا الامر لسهلت كل صعب وهديتني
 صراطاً مستقيماً ولكن الاقدار أبت إلا معاندتي فصبراً جميلاً «

مرّت كل هذه الخيالات في ذهن حماد وهو متكئ على الوسادة تارة يبكي
 وطوراً يجوّق اسنانه وآونة يصبر نفسه وكان لم يبق في الليل الماضي إلا قليلاً فغلب
 عليه التعب والملل والضجر فجاءه العاس فغمضت جفناه



الفصل الخمسون

❖ حسان بن ثابت الانصاري ❖

مضى بعض ذلك النهار وحماد بين نائم وهاجس فوق السطح لم يذق طعاماً حتى اذا كان العصر أفاق من صوت سلمان خادمه ففتح عينيه فرآه واقفاً فوق رأسه يناديه وعلى وجهه امارات الشركاء نه أتى امرأً جديداً فانسطت نفس حماد فهب من رقادته وجلس وصاح ما وراءك يا سلمان

قال ما ورأى إلا الخير باذن الله

قال ارى على وجهك امارات البشر فهل اهتديت الى طريق جديد يوصلنا الى ساحة الفرج

قال نعم يا سيدي اظني توفقت الى شيء من هذا القبيل

قال قل ما هو

قال خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد عولت في باطن سري ان لا اعود اليك الا ببشرى خير فسرت في اسواق مكة وانا اتوسل الى الله ان يلهمني رشداً وسداداً او يهديني سبيلاً اخفف به اليأس عن مولاي فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابها بغلة عليها بردعة ثينة والى جانبها غلام فحدثني نفسي ان اسأله عن صاحب البغلة فقال هو حسان بن ثابت شاعر الانصار فتذكرت اني اعرف هذا الاسم فأخذت في التفكير لعلني اذكر الرجل فعلت اني كنت اسمع اسمه منذ كنت في العراق وانه كثيراً ما كان يأثم الحيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان رحمه الله وكثيراً ما كان يمد على ملوك بني غسان فيمتدح جيلة والحارث بن ابي شمر وغيرهم فقلت في نفسي اظني اصبت ضالتي ان الرجل يجالس اعظم ملوك العرب فربما كان له الملم بامر القرطيين فسألت الغلام عن حسان فقال انه في البيت فاستأذنت في الدخول عليه فاذن ودخلت عليه حتى اقبلت على الرجل فاذا هو جالس على وسادة في بعض زوايا الغرفة فنبأ ملته فاذا به قد تبدلت حاله عما كنت اعرفه فاحناه الكبر وضعف بصر وشباب

شعره واسترسلت لحيته^(١) فبادرت الى يده فقبلتها وحيثه فرد التحية ورحب بي واجلسني الى جانبه وسألني عن امري فازلت ادخل معه في حديث واخرج من آخر حتى توصلت الى القرطين فسألته عما يعرفه من امرها ففكر قليلاً ثم قال اظنني سمعت ذكرها في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة فقلت وكيف كان ذلك

فقال يغلب على ظني ان بعض تجار الفرس الذين يحملون الاقمشة الفارسية الى مكة عاد منها ذات عام ومعه قرطا مارية فعرضها على النعمان واظنه اشتراها منه فاذا صدق ظني كان القرطبان الآن في خزينة الملك النعمان في الحيرة

فلما سمعت ذلك هرولت اليك مسرعاً لئسير اليه فهل تسير معي

قال نعم ولا بد من المسير اني ارى في كلام الشاعر باباً للفرج هلم بنا فنهض حماد وقد انبسطت نفسه وعادت اليه بعض الآمال وان لم يكن في الخبر ما يدعو الى الامل ولكن المرء اذا كان في ضيق كان سريع التعلق بالامل ولو كان اوهى من خيط العنكبوت . واحسَّ حماد بفراغ معدته فتناول شيئاً من التمريسد بها جوعه وخرج مع سلمان ماشيين حتى اتيا بيت حسان فاستأذنا ودخلا فتقدم اولاً سلمان فسلم وذكر اسم حماد امام حسان وقال انه سيدك وانه من امراء العراق ولما سمع بوجود حسان هناك اراد المثلول بين يديه فتقدم حماد وهمّ بتقبيل يدي الشيخ فمنعه ولكنه رفع نظره اليه وتفرس فيه وكأنه يراجع في ذاكرته صور امراء الحيرة لعله يعرف حماداً فتشابه عليه امره فسأله عن اسمه واسم عائلته فقال حماد اني حماد بن الامير عبد الله

فقال حسان لا اذكر رجلاً بهذا الاسم في بلاط النعمان او لعلني نسيتُه فقد قتل النعمان رحمه الله قتلوه غدراً منذ نيف وعشرين عاماً وتفرقت اصداقاه على انني انتظمت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم اعد اقدمها ولا رأيت احداً من امرائها ولكن سئى الله تلك الربوع واعاد سلطة المناذرة فقد كانوا زينة الدولة الفارسية وبيت قصيد وخصوصاً النعمان بن المنذر رحمه الله وجازى الباغين عليه شراً

فقال حماد وهل كنت تند عليه كثيراً

قال لم يمض العام قبل ان ازوره مراراً فاركب ناقتي من المدينة حتى آتي البلقاء فادخل على جبلة بن الايهم او الحارث بن ابي شمر الفسائيين ثم اقصد العراق فادخل

فتاة غسان



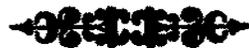
جلس النعمان بن المنذر فيخلع علي الخلع ويأمرني بالعطايا وهكذا كان يفعل الغسانيون
ايضاً ثم كان ما كان من امر قتله فانقطعت عن العراق الى البلقاء حتى ظهر الاسلام
واسلم اهل المدينة فكنت في جملة من تشرف بالاسلام ولازمت رسول الله صلى الله
عليه وسلم اسير معه او الحق بي حيثما اقام . وقد عاد الآن بجيشه الى المدينة ولا البث
ان اتبعه عاجلاً

قال سلمان ذكرت بامولاي ان القرطين يبعوا للملك النعمان فاذا تم لها بعد موته
قال لا ادري وربما كانا في جملة ما استولى عليه قاتلوه من الخف فاذا صح هذا
الظن كان القرطان في خزينة ملوك الحيرة الآن

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لم تقهولا عن وجه حماد وهو يتفرسه ويلاحظ
حركاته كأنه يعرف له شيئاً وحماد غافل عن ذلك بما كان غارقاً فيه من الهواجس
بعد ان سمع ما سمعه من امر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولها الى خزينة
ملوك الحيرة ولكنه عول على البحث عنها ما استطاع الى البحث سبيلاً
وبعد قليل هم حماد بالخروج فسأله حسان اين تقصدون
قال سلمان اتنا نقصد منزلنا لنتهيأ للخروج في القدر

قال هل تريدون الذهاب الى المدينة
قال ربما مررنا بها في طريقنا الى البلقاء
قال ارى انكما غريبان فرما عسر عليكما المسير منفردين وقد آنتت فيكما عنصراً
جيداً فهل تقبلان مرافقتي الى المدينة نقيان فيها ريثما تعزمان على البلقاء وربما ارفقتكما
بن بوصلكما اليها

فنهض سلمان نهوض الاحترام واثني على حسان ثناء طيباً وقال اتنا نشكر لنفضل
الشاعر شكراً جزيلاً ولا نعد ذلك منه الاً كرمًا ومنه عرف بها عرب الحجاز منذ القدم
قال عفواً يا اخا تخم اني لا اجود الاً بال المناذرة ولا ارتع الاً في مجبوحه خيرم
فاني لا انكر فضل العراق علي . وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء وذلك امر
مشهور لا يجهله احد فكيف باهله فاذا شئنا المسير الى منزلكم الليلة فاعدوا حوائجكم
وها اني مرسل معكم من يحملها الينا فنبيت الليلة هنا ونصبح سائرين ان شاء الله



الفصل الحادي والخمسون

* اللقاء *

فبانوا تلك الليلة في منزل حسان واصبحوا جميعاً قاصدين المدينة وحسان يطرفهم في اثناء الطريق بلطائف منظوماته في مدح ملوك الحريرة وملوك غسان وحماد يستزيد ما نظمه في جيلة بن الابهيم ويطرب كل بيت يسمعه ولم يكن ذلك الا ليزيد اشجانه ويذكره بخطيبته هند ثم تذكر ثعلبة واباه الحارث بن ابي شمر فقال

وكيف رأيت الحارث بن ابي شمر
قال رأيتك كرهياً محبباً للشعراء ولكنه كان حاسداً لجيلة فكنت اذا مدحت جيلة في حضرته كان الحسد يظهر على وجهه مع ما كان يحاول اخنائه من عواطفه (١)
فتحقق حماد ان ثعلبة انما ورث ذلك الخلف عن والدك وزاد عليه اللؤم والخساسة ولما تذكر ذلك غلب عليه الانقباض واوجس خيفة على هند من غدروا اثناء غيابه وخصوصاً اذا عاد خالي الخطاب فاستولى عليه السكوت فادرك سلمان منه ذلك فاراد اخنائه الامر عن حسان فقال وكيف رأيت جيلة

قال رأيتك شهياً عزيز النفس كريم الخلق كثيراً ما عرضت بحسد الحارث امامه وهو لا يبالي بل كان يلمس له عذراً ويفالطي متجاهلاً فكنت لا ازداد الا اعجاباً به فقال سلمان واي الملكين اشد بطشاً الآن

قال ان جيلة ارفع مقاماً واعز جانباً ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء انبأنا بوفاة الحارث

فبغت سلمان واتبه حماد من هواجسه فقال سلمان وهل تحققتم وفاته
قال نعم وقد نقله الينا بعض الذين ارسلناهم لتجسس احوال الروم بعد واقعة موته (٢)
فالتفت سلمان الى حماد فراه بيتهم ولكن البغته ما زالت ظاهرة على وجهه يظلمها

(١) الاظاني

(٢) لم يرد في تواريخ العرب ذكر السنة التي توفي فيها الحارث ولكنهم ذكروا انه كان في واقعة موته ثم اغفل خبره

بعض الانقباض فاشار اليه بلا مخ وجهه اشارة فهم حماد منها انه بهشة بانكسار شوكة
ثعلبة لكنه تحوّل حالاً الى حسان وقيل له وما ظنك بمن يرث الامارة بعد
قال لا اظن احداً من اهله اهلاً لهذه الامارة والغالب ان تجتمع كلمة قبائل
غسان تحت لواء جيلة بن الایهم

فانشرح صدر حماد ولكن امر القرطيين بما زال حاجزاً بينه وبين كل سرور
وساروا حتى اتوا المدينة فوصلوها صباحاً فوجدوا اهلها في فرح وعز لما اتوا
من النصر بفتح مكة المشرفة ورأوا الناس عكوفاً على الصلاة وما زالوا سائرين حتى
اناخوا جمالمهم امام منزل حسان فهم الخدم بحمل الامتعة الى المنزل واخذوا الجمال
الى العلف ونزل سلمان وحماد وقد اعجبوا بما آتاه من عكوف المسلمين على الصلاة
وما رأوا من خشوعهم وتدينهم فضلاً عما شاهدوه من بسالتهم في فتحهم مكة
اما حسان فلم يكذب يصل منزله حتى طلب الراحة من وعناء السفر لشيوخه وعجنه
ودعا ضيفيه اليه فجلسا متأديين فقال لهما تذكرت امرًا اظنه يهكم كثيراً وقد فاتني
ذكره لكما قبل الآن

قال سلمان وماذا عسى ان يكون ذلك

قال ذكرت لكم واقعة مؤتة واظنكم لم تفهموا ماهي

قال سلمان كلاً يا سيدي لم تفهم المراد جيداً

قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسل جنداً من المسلمين لحرب الغسانين
في العام الماضي فسار الجند وحاربه في مكان يقال له مؤتة بالقرب من بصرى
وستسمعون خبر هذه الواقعة الآن ولكنني اردت ان اوجه التفاتكم الى رجل اسره جندنا
في أثناء تلك الحملة وقد حملوه اليها فلما رأته معهم عرفت انه أسر ظملاً ولما سألته
عن خبيرة علمت انه ليس من اهل البلقاء بل هو عراقي ومن اهل الحيرة ذكر انه كان
يراني اثناء وفودي على الملك النعمان منذ نيف وعشرين عاماً وبما انكم من اهل
العراق فربما استأستم بالرجل والوطن احسن جامعة بين الناس قال ذلك ونادى
رجلاً واقفاً بالبواب فحضر فقال له ادع ضيفنا العراقي

قال لييك وخرج ثم عاد يتبعه رجل كهل ملتف بعباءة مقطّبة الوجه وكان
حماد وسلمان لا يزالان مخمّرين خمار السفن فحالما وقع نظر سلمان على ذلك الرجل

أحس بمخففان قلبه كأنه آانس فيه مشابهة لسيد عبد الله ولكنه رأى في سمته ملامح
تخالف ما لعبد الله أهمها ان عبد الله كان طويل الشاربين مستدقها ومسترسل شعر
اللحية مع خفية أما هذا فهو قصير الشاربين واللحية على ان سلمان ما زال ينظر اليه ويتأمله
حتى دنا منه فوقف له وهم بمصافحته فلم يكذبوه بأول كلمة حتى تحققت سلمان انه هو
سيد بعينه فهم به وقبله وناداه باسمه

وكان حماد في شاكل من هواجسه في هند والقرطيين ووالد فلم ينتبه الا وسلمان
ينادي بأعلى صوته سيدي الامير اهلاً سيدي الامير فالتفت حماد فاذا هو والد
عبد الله فنهض ونهض سلمان فهم عبد الله بحمد وضمة وجعل يقبله ودموع الفرح
تساقط على وجهه وسلمان يقبل يد عبد الله ربهنيها بعضها ببعض فانبسخت وجوه
الجميع وزالت منه العبوسة وجلسوا وعبد الله بجانب حماد قابضاً على يده بين يديه
وحسان جالس الى جانب وقد عجب لما رآه وسمعه فسألهم عن امرهم فاحكى له
عبد الله عما تم من الاتناق الغريب وان حماداً ووالد وسلمان جاؤوا معه ففرح
حسان لما تم على يده من الخير . ثم جلسوا يتحدثون

فقال سلمان لقد رأيت في وجه سيدي تغييراً كاد يحول بيني وبين معرفته فاني
أعهد شعر وجهه طويلاً مسترسلاً فما لي أراه قصيراً
فضحك عبد الله وقال ان لهذا التغيير حديثاً غريباً سأقصه عليك بعد ان اسمع
حديثكم وما كان من امر الاسد وضياح النرس

الفصل الثاني والخمسون

* واقعة مؤتة *

فحكى سلمان حكايته مع حماد والاسد وكيف نجوا منه بتسليق تلك الشجرة وما
ثم لم بعد ذلك من حديث هند ووالدتها ووالدها وحب حماد لها ثم ما كان من
خطبة حماد وما اقترحه عليه جيلة بن الابهيم مراً لابنته وما لاقاه حماد في سبيل
ذلك من الاسفار والاطوار حتى جاؤوا مكة وشهدوا فتحها وكيف يسول من وجود
القرطيين هناك حتى تجدد املهم بوجودها في خزينة النعمان بن المنذر في الحيرة

وكان عبد الله في اثناء الحديث مصغياً صامتاً وإمارات الاستغراب ظاهرة على وجهه كأنه سمع اموراً لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ولكنه سكن عن ذلك واخذ يقص عليهم حادثة فبدأ بوقوعه بالاسر في غمام ثم مسيره الى بيت المقدس . ومقابلته هرقل امبراطور الروم وما سمعه من حديث ابي سفيان ثم سفره معه وما كان من مشاهدته الفرس واستدلاله منها على ضياع حماد وكيف رافقه ابوسفيان في مسبعة الزرقاء للفتيش عن حماد وما شاهدوه من عظام الفرس الآخر وبعض الآثار حتى انتهى الى مسيره منفرداً الى عمان ووقوعه اسيراً بين يدي الحجازيين الذين ساروا لمحاربة اهل الشام وما دار بينه وبين بعضهم عن السبب الذي جاءت تلك الحملة من اجله الى ان قال

فلبثت اسيراً عندهم وانا على مثل الجمر لان املي لم ينقطع من لقاء ولدي حماد على اني كنت في بعض الاحايين لا ارتاب من فقدك واحياناً اراجع ما شاهدته من الادلة على ذلك فلا ارى ما يقطع بوقوع القضاء فكان سجنني في معسكر جيش الحجاز قيلاً ثقيلاً عليّ وخصوصاً انهم متبعوا القرى عني فقد كنت استأنس به فبعد ان قضيت مدة بجوار عمان علمت ذات يوم ان الروم قد جندوا جنداً كبيراً يبلغ عدده نحو مئتي الف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ونجم وجذام وبيهرام^(١) فلما بلغ المسلمين ذلك خافوا النشل لان عددهم لا يزيد على ثلاثة آلاف فضلاً عما في جند الروم من المعدة والسلاح وبلغني ان امراء جند المسلمين اجتمعوا في خيمة ابن رواحة احد امراءهم وتشاوروا في الامر فقال اكثرهم نكتب الى رسول الله في المدينة نخبره الخبر فاما ان يدنا بالرجال واما ان يأمرنا بأمر فنمضي له فقام فيهم ابن رواحة وخطب خطاباً انهم همهم فقال « يا قوم والله ان التي تكرمون لي التي خرجتم اياها تطلبون الشهادة وما تقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما تقاتلهم الا بهذا الدين الذي آكرمنا الله به فانطلقوا انما هي احدي الحسينيين اما ظهور واما شهادة » فقال الناس « والله صدق ابن رواحة »^(٢) واشتدت عزائمهم وصموا على الحرب وكنت اعجب لبياساتهم واقدامهم واتحاد كلمتهم واستهلاكهم في سبيل نصرة دينهم فبعد ايام نودي بالجند فقاموا وسرت انا فيهم مخفوراً ارى كل حركاتهم وسكناتهم

(١) السيرة الثامنة (٢) السيرة الحلبية

فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على رحلتين من بيت المقدس يقال لها مؤتة وكان جند الروم قد عسكر هناك فالتفت الى ذلك الجند فاذا هو مائل السهول هناك وفيهم الفرسان والمشاة ورأيت في وسط المشاة مشاة عليهم ملابس كثيرة الالوان تبهر النظر نثلاً في ضوء الشمس فلم أكن اظن الحجازيين ينظرون الى ذلك الجند حتى يعودوا الفهري وجلاً ومهابة ولكن رأيت فيهم ثباتاً لم أر مثله في اسفاري كلها وما ذلك الا لوثوقهم بربهم وعدم ميلانهم بانفسهم في سبيل نصرة دينهم

وخلاصة القول ان المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثة من الامراء ساروا امامهم مشاة على اقدامهم وما ذلك الا لاستهلاكهم في الجهاد والطاعة حتى التقى الجيشان وانتشبت الحرب وكان اللواء اولاً بيد اخدم زيد بن حارثة فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ولكنه ظل مكافحاً حتى قتل طعناً بالرماح فتقدم الامير الثاني وهو جعفر بن ابي طالب فقاتل به وهو على فرس شفاء فأجبه القتال واحاط به فنزل عن فرسه وبقرها وقاتل حتى قتل فأخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسه ثم نزل عن فرسه وحارب حتى قتل فوق الرعب في قلوب المسلمين وكادوا يفسلون لو لم يقم فيهم رجل لم أر مثله باسلاً اسمه خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميه سيف الله فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة فظن الروم ان نجدة قد جاءتهم فاستولى الخوف على جند الروم وفسلوا وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً^(١) ولكنهم لم يبقوا على الحرب فعاد المسلمون يريدون المدينة وكنت انا في اثناء هذه الواقعة في حيرة شديدة ولو كانت الحياة عزيزة علي لفررت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحرب ولكنني وددت ان اصاب نبيلة اقتل بها فلم يقض الله بذلك فلما عاد المسلمون الى هنا عدت انا معهم أسيراً فاصابني في اثناء الطريق انحراف صحي فاصبحت وشعر لحيتي ينساقط وكذلك شعر شاربي حتى لم يبق منه الا القليل فلما وصلت المدينة التقيت بشاعرنا (وشار الى حسان) فتعارفنا ودعاني للاقامة في داره فأقيمت عنده كما نرون وفي اثناء ذهاب الجند الى مكة للفتح الذي شهدتموه زارني الحرث بن كلثة طيب العرب^(٢) فوصف لي دهناً من عشب فأخذ الشعر ينمو وارجوان يعود الى ما كان عليه

الفصل الثالث والخمسون

* يوم الشعانين *

فلما اتمَّ عبد الله حديثه هنا و بعضهم بعضاً بالسلامة ثم قال حماد وابن فرسي الآن
قال هو معي هنا فهل تريد ان تراه

قال نعم وخرجوا الى بستان بالقرب من المنزل وكان النجود مشدوداً الى نخلة
فلما وقع نظره على صاحبه اخذ في الصهيل كأنه يرحب بقدومه وتقدم حماد اليه فلمس
جبهته وقبله بين عينيه ثم عادوا جميعاً والفرح ملء قلوبهم الا حماد فانه عاد الى هواجسه
في هند وايها والقرطين فلما وصلوا المنزل وجلسوا نظر عبد الله الى حماد وقال له
الملك لا تزال مصمماً على الاقتران بهند

قال نعم يا ابناه ولا اظنني قادراً على العدول عنه بعد ان كان ما كان
قال وهل نسيت نذرنا لدير بجيرا
قال واي نذر

قال نذر يوم الشعانين الذي سنقص فيه شعرك
قال وما دخله بسأله الاقتران

قال ان له دخلاً كبيراً لاني سالتو عليك في ذلك اليوم حكاية واطلعت على
امور ذات بال لها علاقة كبرى بامر الزواج
فخاف حماد ان يكون هناك ما يحول بينه وبين هند
فقال وهل في ذلك السر ما يعني من هند
قال لا اقدر على التصريح بشيء من ذلك الآن ولكن احد الشعانين يكشف لك
كل شيء

فقال ان يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا استبداله بسواه
قال كلاً يا ولدي بل يجب علينا اتمام النذر حرفاً حرفاً فوقع حماد في حيلة واوجس
خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينه وبين هند فود ان يطلع على
حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف وقد كان عازماً على المجيرة للبحث عن القرطين وكان

يظن ان والده سيكون اكبر مساعد له على ذلك لكثرة اصدقائه هناك فاصبح بعد ما سمعه منه لا يستطيع مكاشفته بالامر لانه قال له بصريحاً ان لا يخطو خطوة في مسألة الاقتران قبل يوم الشعانين فصمت برهة يفكر في الامر فخطر له ان يستطلع سلمان على حدة لعله يكون عالماً بشيء من ذلك السر

فانفرد به في مسألة ذلك اليوم وسأله عما يعلمه من امر يوم الشعانين فقال له ان سر ذلك اليوم مكتوم عن كل بشر اعرفه وقد قضيت مع سيدي والدك اعواماً منذ كنت طفلاً حتى صرت شاباً وانا اسمع انه نذر قص شعرك في دير بجبراء عند ما تبلغ هذا السن وانه سيطلعك في ذلك اليوم على امور تهلك كثيراً ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك واعترف لك اني بذلت قصارى جهدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم اتوفى وتراني اكثر رغبة منك في معرفته فما لنا الا الانتظار الى يوم الشعانين

فقال وكيف اقضي هذه الايام وماذا افعل بهند . فقد افصحت لك عن امور انت تعلم اني اكتمها عن سائر العالمين فهل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة والرابطة وقد تركتها على موعد من اللقاء فمضت سنة منذ تركتها ولم افعل شيئاً ما تعهدت لها به بعد فان القرطين لم نقف لها على اثر ولا ارى ان اعود اليها الا والقرطان في يدي وعلمت ان الامل معقود بالتفتيش عنهما في العراق ولا يستطيع ذلك الا بمساعدة والدي وقد سمعت قوله الدال على رغبته في ايقاف كل حركة قبل يوم الشعانين فكيف اقضي هذه المدة وانا بعيد عن هند انظنها لا تزال على عهدي

قال سلمان اما ما عرفت من حبها لك وثباتها في حبك فلا يترك محلاً للشك في بقاءها على عهدك وانها لا يمكن ان تتحول عنك يمينه ولا يسر ولا كذبي ارى ان تكتب اليها كتاباً او تنفذ اليها رسولاً تبثها ما عندك وتستعملها في انفاذ المهمة التي انت سائر بشأنها وتطلب منها جواباً ومن جوابها تفهم ما يمكنه ضميرها

فقال سلمان وهل نظن والدي عازماً على البقاء هنا الى يوم الشعانين قال لا اظنه يطيل البقاء هنا لان اهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب اما لغزو او لدفع مهاجم ولا يوطر لنا في ذلك فالغالب انه يفضل الذهاب الى بصرى يقيم فيها بقية هذا العام

قال فاذا كنا ذاهبين الى بصرى فليس ثم حاجة الى الخارخ لاني الاقيها هناك واجتمع بوالديها او بأحدهما وتلوعليهما ما وقع فاعليك الأ اقناع والدي بالذهاب بنا الى اللقاء .

قال حسناً ولكنك اذا اردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من والدك قال ننظر في ذلك ثم افترقا واخذ سلمان في تحريض مولاة عبدالله على الخروج من المدينة والاقامة بقية ذلك العام في اللقاء وخصوصاً لأن الحارث قد مات وخرج النوذ من يدي ابنة ثعلبة .

فوافقه عبدالله على ذلك ففضوا بضعة ايام في المدينة يشاهدون ما أحدثه المسلمون فيها من الابنية واحسنها المسجد الجامع . على انهم كانوا يمشون في كل يوم شيئاً جديداً من الاعدادات الحربية للغزوا وغيره مما زادهم تهيئاً لجند المسلمين وحسبوا لمستقبل دولتهم حساباً كبيراً

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير فودعوا حسناً فارقتهم بدليل يعرفه وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أتوا بصرى فتشاوروا في مكان يقيمون فيه فاتفق رأيهم على الاقامة في دير بجبراء فاتخذوا فيه غرفة اقاموا فيها

أما حماد فان عودته الى ذلك الدير اذكرته أموراً هاجت اشجانته فتذكر اجتماعه بهند هناك لأول مرة وما كان من محبي ثعلبة بغنة الى آخر ما حدث في حينه ثم عزم على المسير الى جيلة للسلام عليه ثم الى صرح الغدير للملاقاة هند وبثها ما في ضمير وما بلغت اليه مهمة وما يرجوه من العثور على القرطين في العراق ولكنه كان كلما تصور وقوفه امامها موقف المعنذر او المستهمل اشأزت نفسه وعسر عليه ذلك الموقف



الفصل الرابع والخمسون

* هند في صرح الغدير *

فلترك حمادًا ووالده وسلمان ولتعد الى صرح الغدير لتري ماذا تمّ لهند بعد سفر حماد لثلاً يظن الفارثي اننا نسينا عواظنها واشجائها ولم نبال بما قامت اثناء غيابه من الوحشة والخوف عليه ولا سيما بعد ان سمعت بنفخ مكة ودخول المسلمين اليها عنوة وهي تعلم ان حمادًا انما سار الى هناك الناساً للقرطين

ودعت هند حمادًا يوم سفره وقلبي واجف عليه لدمها انه سار في تلك المهمة والمخطر ظاهر فيها ولكن ثقتها بشجاعته وتعقله هونت عليها الامر لأول وهلة ثم اشتغلت عنه بالاضطرابات والخاوف اثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابه خوفًا عليه ان يصاب بسوء اذا تعرض لسهام الحجازيين -

فلما انقضت الحرب وعادت البلقاء الى السكينة عادت هي الى الاضطراب واستبطأت حمادًا لأنها كانت تتوقع رسالة منه او خبراً عنه فلما طال الامد ولم تسمع عنه شيئاً انقبضت نفسها واستولت عليها المخاوف

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها وقد ادركت ما بها فاخذت تشاغلها بالآمال وتوسيتها بالوعود وهي لا يهدأ لها بال ولا ترتاح الى حديث على انها كانت تعلق نفسها بالذهاب الى دير مجبراء ايام مرور قوافل الحجاز به لعلها تسمع من احد حديثاً يطمئنها . وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح الى كل قادم من الحجاز وخصوصاً الذين يقدمون من مكة ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اخنخ قلبها واضطربت جوارحها وهي مع ذلك لا يهدأ لها بال الا بالسؤال عنها والبهت عن اخبارها حتى التفت يوماً بغافلة قادمة من مكة فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين اليها عنوة وقتل بعض اهلها فارتعدت فرائصها وتصورت حمادًا في تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين فازداد بلبالها وودت لو انها تطير الى الحجاز فتري ما تمّ لحبيبتها

ثم رأته ترددها الى الدير واستماع تلك الاحاديث لا يزيد لها الا قلقًا فانقطعت

عنه وانزوت في صرح الغدير لا ترى احداً ولا تسمع خبراً مخافة ان يكون في ما تسمعه نبأ يسوءها . ثم سمعت بهوت الحارث بن ابي شمر والد ثعلبة فاحست بارتياح لعلمها ان موته يقلل من نفوذ ابنو لذي والدها . على ان ذلك لم يزد شيئاً من اسباب معادتها فالهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكوهما اليه غير والدتها لكنها كانت تخاف مخاطبتها بهذا الشأن لئلا تسمع منها ما يزيدها يأساً ففضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزداد الا تحولاً وانقباضاً وميلاً الى الخلوقة .

وكانت كلما خلت بنفسها نظرت الى الاساور في يدها وجعلت تقبلها وتنسم منها رائحة حماد فاذا اشتد بها الهيام بكيت ونحرتت ونقمت على والدتها لانها ابعدا حماداً عنها وخيل لها انها انما ارسلته الى تلك الاصقاع للتخلص منه وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى اصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تنفر من مجالسة والدتها ونسيء الظن بها فلم يزدها ذلك الا رغبة في الخلوقة والانقطاع عن الناس

وأما والدتها فقد كانت لنباقتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمر في ذهن ابنتها وكانت تعذرها على ذلك لانها شعرت هي ايضاً بارتكابها امرأ قبيحاً بارسال حماد في مهمة خطيرة الى هذا الحد . وقد زاد ندمها خبر وفاة الحارث بن ابي شمر وضعف نفوذ ثعلبة مع كره هند له فتحققت عند ذلك ان هنداً يستحيل عليها الاقتران به وقد أصبح بعدموت والدك وضعف المنزلة ولم يعد جيلة يخشى بطاشه لو رددت طلبه

فاصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فظيع ارتكبه امام ابنتها فأحرمتها شهماً يحجبها ونجبة وصارت هي اكثر رغبة من هند في عود حماد وصممت في باطن سرها على انه اذا عاد ولو خائباً لتساعدته في الحصول عليها ولو أوى والدها . على انها لم تكن تستحسن مخاطبة هند بهذا الشأن لئلا توطد آمالها ثم ربما لا يعود حماد من الحجاز فيكون ذلك سبباً في زيادة احزانها فصبرت تنسها لتري ما يأتي به القدر ولكنها ما برحت تنتسم الاخبار لعلمها تسمع شيئاً جديداً

أما جيلة فقد كان في البلقاء مشغولاً عن مثل هذه الامور بما كان من الحرب في موته فاعتم ان رجع المسلمون حتى توفي الحارث فزاد اشغاله وعظم اهتمامه بضم قبائل العرب في الشام والبلقاء اليه لان العرب المنتصرة هناك قبائل وبطون لكل منها راية وامير وكانت في زمن الحارث منقسمة الى فئتين احدها تابعة للحارث

والاخرى لجيلة فلما توفي الحارث اشغل جيلة بضم بعض قبائل الحارث اليه ان لم يكن كلها ولم يطمع بذلك الا لعلو بضعف ثعلبة عن القيام بما قام به والده قبله ولاعتقاده ان امراء القبائل انفسهم يكرهون ثعلبة لدناءته وشراسته اخلاقه . فوقع بسبب ذلك تنافر بين جيلة وثعلبة واحس هذا بضعفه وخاف العاقبة لكن سوء خلقه لم يهد الى سبيل يسترضي به عمه فاخذ يطعن فيه امام الامراء يريد تحقيقه في اعينهم فلم يحقروا الا ثعلبة وبلغ ذلك جيلة فحقدوا عليه وزاد سعيه حتى اخرج كل العرب الفساسنة من حوزته ولم يترك له منهم الا شردمة قليلة

فازداد ثعلبة لؤماً وسناهة واخذ يطعن في جيلة وابنته وسائر اهل بيته فندم جيلة لما وقع منه في حق حماد واسف لانفاذه في تلك الرسالة الخطرة ولم يزد مع الزمان الا ندماً ولكنة كتم ندمه ينتظر ما يجيء به القدر ولكنه صم في باطن سره ان يكفر عما ارتكبه في حق حماد بان يزوجه بابنته سواء عاد بالقرطين او بدونها فضلاً عما في ذلك من النكابة في حماد .

الفصل الخامس والخمسون

* هند والقمر *

وما زالت هند حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبراً فترجح لديها انه اما قتل او فشل وشق عليه الرجوع خائباً فهاجر الى مكان بعيد او لعله فتك بنفسه فراراً من اثقال النشل وتخلصاً من عذاب الحب فتراكمت عليها الهوم . وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالديها تسارقها اللحظ وتفنم فرصة لتخاطبها وهي لتجاهل وتبتعد فلما سدل الليل نقابة دخلت الى غرفتها واوصدت الباب ورائها وجلست الى النافذة المظلة على الحديقة واقمت جنبها على وسادة وجعلت رأسها على كفها وكانت الليلة ممترة والجوصافياً والبدر عند اول بزوغه من وراء النلال وقد ارسل اشعته على الاودية والجبال . فاخذت تتأمل بما احده من الاظلال الطويلة على السهول والساتين ونظرت الى حديقة القصر فرأت اشجارها متشاحنة تناطح السحاب لكن اظلالها اطول منها كثيراً وقد وقعت تلك الاظلال على

ما هنالك من اغراس الرمان وغيره من انواع العطريات فحجبتها عن البصر ولكنها لم تحجب رائحتها فتضوع الفصر منها . وقد هدأت الطبيعة واوت الطيور الى اوكارها وسكنت الرياح فلم تسمع الا خربير ماء الغدير في وسط البستان ونظرت الى ضفاف ذلك الغدير فرأت اشجار الحور مرتبة صنوفاً كما بها عذارى حين الاستقاء فهاهنَّ سكون الطبيعة فيهنَّ ووقن على ضفاف الغدير صامتات .

فما برح القمر ان اعلى وظهر وجهه واضحا فاستقبته همد وجعلت تتأمله فاحست بارتياح الى منظره فتذكرت ارتياحها الى روية حبيبها فاختلج قلبها فعادت الى الانقباض فارسلت نظرها الى القمر لعلمها تسترح ذلك الارتياح فامتنع عنها

ولكنها ما لبثت ان تأملت وجه القمر حتى تفرقت الدموع في عينيها واخذت تخاطبه قائلة « العلك مشرق الآن على منازل مكة وجبالها العلى حبيبي هناك ينظر اليك ويستقبلك بوجهه لينه يفعل ذلك فيلتي طرفانا عندك فنجتمع على بعد الدار »

الى الطائر السري انظري كل ليلة * فاني اليه في العشية ناظر
عمى يلتقي طرفي وطرفك عند * فنشكر اليه ما تكن الضمائر

« نعم اني ارى على وجهك صورة كأنها ظل وجهه فهل يرى هو مثل ذلك ايضا » ثم عادت الى البكاء فاطلقت لنفسها العنان حتى لم يتمالك عن الشهيق وهي تظن نفسها منفردة لا يسمعها احد ولكنها ما لبثت ان سمعت قارعا يفرع الباب فعلمت انها والدتها سمعت صوت نكائها فجاءت لتعزبتها فودت اللقاء في خلوتها فتظاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب ففرعت والدتها الباب ثانية والحت عليها ان تنحى فسمعت عيونها ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة فدخلت سعدى وهمت بهند وضمتها وجعلت تقبلها ونظرت الى وجهها لتتحقق بكائها وهند صامتة مطرقة لا تبدي حراكا فقالت سعدى ما بالك يا ولداه ما الذي يبكيك لماذا لانشكين الي همك الست والدتك اما انت ولدي وفلت من كيدي الا تعلمين اني احبك

فلبثت هند صامتة ولكنها نظرت الى والدتها بطرف عينيها نظرة التأنيب ولم تنه بكلمة فنهضت سعدى انها توبخها لما ارتكبتة بشأن حماد ولكنها ارادت مغالطتها فاخذتها بيدها الى السرير واجلسنها الى جانبها وقالت ما بالك لا تحبينني يا هند اتكتمين عني

شيثاً ألم اكن خزانة اسرارك قولي يا ولداه ما يبكيك
فنظرت هند اليها وكان ضوء القمر واقعاً على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ
وهي ساقطة من عينيها فانظرت لها قلبها وهمت بها ثانية وضممتها وتناولت مندبها
وجعلت تسمع لها الدموع فحوت هت هدا وجهها نحو النافذة وتهدت وهي تنظر الى القمر
وضوءه على السهول والجبال

فنهضت سعدى ووقفت معترضة بينها وبين النافذة وقالت لها قولي يا ولداه
ما الذي يبكيك لقد خطعت قلبي ولم يعد لي صبر على بكائك ألا تعرفين قلب الوالدة
فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة ووالدتها تعترضها وتمسك يدها ثم وقفت وقفة
من ينتظر جواباً . فنظرت هند اليها شذراً وقالت « نعم يا اماء اني اعرف قلب
الوالدة ولكن الوالدة لا تعرف قلب ابنتها »

فادركت سعدى مرادها فقالت ومن قال لك يا هند اني لا اعرف قلبك
فقالته لوعرفت قلبي ما سببت لي هذا الشقاء لاني اعرف حنوك
قالت كيف لا اعرف قلبك يا ولداه وقد كسنت لي غواض اسراره
قالت اذاً عرفت حاله ولم تشقني عليه فلا بأس ساعك الله وسامح والدي
و وشرقت بدموعها

فابتدرتها سعدى واظهرت الاستغراب قائلة كيف نقولين ذلك يا هند كيف لم
نشتق على قلبك وكل ما حصل انما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيه من الفخر الك
فهزت هند رأسها وهمت بالجواب ثم سكت فائمت والدتها الكلام قائلة ومع ذلك
فان الاحوال قد تغيرت هوت الحمارث واذلال ثعلبة فسواء جاء حماد بالقرطين ام
جاء بدونها فليس تم من يتف في سبيله

فلما سمعت اسم ثعلبة ارتعشت جوارحها فقالت « آه يا اماء لقد قضي الامر . .
ابن حماد الآن . . . آه ابن هو . هل تعلمين ابن هو وقد انقضى العام منذ سار من هذا
المكان ولم نسمع عنه شيئاً » ثم حولت وجهها نحو النافذة وقالت وهي تبكي « آه يا حماد
آه يا حماد سامح الله من كان سبباً في بعادك . . . ابكي يا اماء على هند ابكيها وارثها
ولا ينعب ضميرك او تندي على ما حدث لي وله على يدك ويد والدي انما هي الاقدار
قد كتبت علينا هذا الشقاء » ثم قالت وقد غلب عليها الشهيق وعلا صوتها

« آه يا حماد حبيبي ابن انت الآن العلك على الارض ام في السماء ام ابن انت من يخبرني
بمكانك لكي اطير اليك فاما ان اعيش بقربك او ان ادفن تحت قدميك فقد كذاني
ما سينته لك من الشقاء وما جزاء عملي هذا غير الموت . الموت الموت ! .. »

قالت ذلك ورمت بنفسها على السرير ووالدتها لا تزال ممسكة بيدها تحاول
تلطيف ما بها فلما الفت نفسها خافت سعدى ان يعي عليها فيادرت الى الماء لترشها
به وامسكها بيدها: وجعلت تخاطبها وقلبا يتقطع ولولا اشتغالها بتعزيبها لكانت هي
المغنى عليها لا محالة ، ولكن اشتغال الانسان بمن يحبه ينسيه نفسه : فهمت بها وخاطبتها
فتحقت انها لم يغم عليها فحاولت اجلاسها وجعلت تقبلها وهدت مشتغلة بالبكاء والشهيق
وبداها على وجهها

فراأت سعدى ان تركها ههية ريثما يهدأ روعها فلبثت صائمة مطرقة تفكر في
امرها حتى اذا آنت منها سكينة وهدوءا جاءت بكاس من الماء وقدمته اليها لشرب
فشربت وهي مطرقة خجلاً لما ظهر من عواطفها رغماً عنها
فابتدتها والدتها قائلة خفي عنك يا ولداه فانك مثال العقول والرزاة عندنا
فكيف اطلقت لسك العنان

فظنت هند انها توبخها فقالت كذاني توبخاً فقد علمت اني اتيت امرأ يعاب
عليه امثالي ولكن الكاس قد طمخ والامر قد
قالت سعدى لم يند شيء بعد يا هند ان حماداً نصيبك وقد قلت لك سواء
جاء بالفرطين ام لا فانه لك وانت له

فتمهدت سعدى وقالت هذا اذا قدر لنا ان نراه ولا اظنه اذا فشل في مهمته
الا ضارباً في بطن الارض ولا يعود الينا صفر اليدين
قالت تدبري الامر بالصبر والحكمة وانكلي على الله انه قادر على كل شيء وهلم
بنا نصلي ونطلب اليه تعالى ان يعيدك سالماً

فنامت هند في حديث والدتها فترجع عندها انها تقول الصدق بشأن حماد
واقترانها بها سواء جاء بالفرطين ام لا فسرّها ذلك ولكنها ارادت ان تستطلع ما يكنه
والدها من هذا القيل فقالت لوالدتها
هي انك رضيت بذلك شفقة على صباي فهل برضى والدي به

قالت ان والدك اكثر رغبة مي في الامر وخصوصاً بعد ان وقع ما وقع بينه وبين ذلك الغائب من النور على الزوادة والله اعلم فطايبي نفساً وقري عيماً واتكلي على الله ولنطلب اليه تعالى ان يفظ لك خطيبك ويعينه اليك سالماً معافى ونسي انعامنا فسكن روع هند وسارت الى فراشها وسلمت امرها الى الله

الفصل السادس والخمسون

الإشارة

واصبحت في اليوم التالي فعاد اليها الاكثاب فودت اهلها لم تستيقظ او انها نضل نائمة فلا تيقن الا على صوت حماد فلبثت في الفراش تلتبس النوم واخذت تتقلب عبيثاً فلما كان الصبح جاءت والدتها تستنقدها فلما رأتها في الفراش انشغل بالها واستطلعت السبب فشكت لها نكاسها عن القيام فجلست الى جانبها تحادثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وافكارها تائهة حتى كانت الظهيرة فسمعت صوتاً خارج الصرح ينادي « من نذر نذراً لبحران المبارك » فمحن قلب هند لذلك الصوت وهبت من فراشها بغنّة وبغنت ايضاً والدتها لانيها نسمتا منه صوت سلمان وتذكرنا قدومه اليها قبلاً بشأن حماد فهرولنا الى الدافدة فرأنا راهباً على فرس مثلاً رأنا سلمان قبلاً فتحققنا انه هو بعينه فخالته هند تسها في منام لقدومه عليها بغنّة على غير انتظار فنادتاه فتحول ودخل فخرجت سعدى لاستقباله وظلت هند في الغرفة جالسة وركبتها ترتجنان من التأثر ولم تستطع الوقوف الا بعد هنيهة وقد سمعت وقع اقدام الرجل مع والدتها داخلين الى النصر فوقنت لاستقبالها فوصل الرجل الى باب غرفتها وحالما وقع نظرها عليه عرفته فعلمتها بغنّة ولم تعد تعلم كيف تكلمه فابتدرها هو بالسلام وتبسم وهم يتقبل يديها فنعنه وصاحت ما وراءك يا سلمان وكانت والدتها قد اغلقت الباب

قال ما ورأيتي الا اخير يا سيدتي كيف انت

قالت نحن في خير وكيف حماد وابن هو اخبرنا

قال هو في خير وقد نركنة في دبر بحيراء ينتظر امرك ويدعوك

قالت هل هو في خير وعافية

قال نعم يا مولاتي انه في خير وقد التقى بواله في المدينة
فخرت هند الى الارض قبلتها وقالت بحمد الله على سلامتو قالت ذلك وقد

انبسط وجهها وابرقت اسرتها

فقالت سعدى ابن هو حماد ولماذا لم يأت معك

قال انه بقي في الدير خجلاً من مقابلتكم

قالت وما الذي ينجله اننا لا نريد منه شيئاً غير سلامتو .

قال والفرطان

قالت لا حاجة بنا اليها فقد زال اتسبب الذي دعا الى طلبها

قال ان امر الفرطين قد عاد علينا بالمثل فقطعنا النياقي والقفار حتى اتينا

الكعبة فلم نقف لها على خير . وقص عليها حكاية سفرها من يوم خروجها من صرح

الغدير الى ان عادا وكيف التقيا بعبد الله وما عزمنا عليه من البحث عنها في العراق

فقالت همد دعنا من الاقراط وقد اغنانا الله عنها

فحجب لذلك التغير واراد ان يعلم اذا كان جبلة ايضاً في مثل رأيتها

فقال وهل سيدي الملك جبلة في خير

قالت سعدى نعم هو في خير ينتظر قدوم صهر حماد بفارغ الصبر

فلما سمع قولها (صهر) زاد اطمئناناً برضاها عن حماد فقال وهل هو ايضاً

مغفل امر الفرطين

قالت انه لا يريد شيئاً غير سلامة ولدنا حماد فادعه الينا لنراه

قال انه يود ذلك من اصميم قلبه فاذنوا له بفرصة آتي و اليكم

قالت فليأت باقرب وقت ولكننا نود حضوره وواند هند حاضر ليفرح بعودته

ولكن ايضاً والد . معه ليم النرح

ففرح سلمان بهذه الاخبار ولكن خاطراً مرّ يذهنو فاسكنه بغنة فلمحت هند شيئاً

غمره فقالت ما بالك يا سلمان ما الذي اسكنك فهل هناك ما يمنع حضوره اخبرني

قال كلاً يا مولاتي انه ينتظر هذا الاجتماع انتظار الظئنان للماء الزلال وهو انما

تحمل الاخطار ومشاق الاسفار طمعاً بذلك ولكنه . . .
فبغيت هند وسعدى معاً وقالنا ما الذي يدعوا الى ترددك قل يا سلمان لقد
شغلت بالناس

قال لا يخفى عليكما ان سيدي حماداً اشرف بمخضبة سيدي هند ووالده لا يعلم
ولما علم بذلك يوم اجتماعنا في المدينة سرّ كثيراً ولكنه استعمل حماداً في اتمام هذا
الامر ريثما يأتي يوم الشعانين
قالت سعدى وما علاقة يوم الشعانين بذلك

قال لا علاقة له يوم الأمن حيث النذر فقد علمتم ان سيدي حماداً منذور ان يقص
شعره في دير مجيبراه من يوم ولادته وان يكون قصة في يوم الشعانين في السنة الحادية
والعشرين من عمره فلما كان اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث لما تعلمناه وفرّ ولم
يتمكن من وفاء النذر فلما عاد من هذا السفر قال سيدي عبد الله لولده انه سيقص شعره
في يوم الشعانين القادم بعد بضعة اشهر ونقدم اليه ان لا يباشر عملاً مهماً قبل ذلك
اليوم لانه سيطاعة فيو على امور تهمته ولكني لا اظن لها علاقة بهذا الامر
فلما سمعت هند ذلك الكلام تعودت بالله ما هو محباً لها في عالم الغيب
وقالت في نفسها اهل امامنا عراقيل اخرى غير التي انقضت

فقالت سعدى لا بأس ولكن ذلك لا يمنع سيديك من الحضور اليه في سواد هند
وخصوصاً لانه غريب فقد يستأنس به وبمن يعرفه على يد في اللقاء . اما ذلك الامر
فما نحن في عجل اليه وانما المراد ان نطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا ونرى بعضنا بعضاً وقد
تمهدت العقبات بموت الحارث وسقوط يهود ثمانية بين العمائل

فقال سلمان نحمد الله على نعمه ولا اقدر ان اصف لكم . قد ارسل مولاي حماد
بهذا الاخبار فعينط المكان والزمان الذين تريدان الاجتماع بهما لاخبر سيدي
قالت هند فليات حماد اولاً لنراه ثم نعين يوماً يجتمع به الوالدان لاننا نخشى
اذا انتظرنا اجتماعهما ان يطول الاجل فان والدي في اللقاء وربما لا يستطع المحي
الآ بعد بضعة ايام . ولادت هند بذلك ان تجتمع بمجاد فليلاً على انفراد استنوخ امر
النذر وعلاقته بالاقتران

فقال سلمان ما اتي ذاهب لادعوه واطمئ يكون هنا في صباح الغد ان شاء الله

فخرج وقد ندم على ما فرط منه في حديثه عن عبد الله وعلم انه اخطأ فيما ذكره بشأن الذر وخاف ان يشق ذلك على حماد فعول على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فاسرع حتى اتى الدبر في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلو انه لا يريد ذلك

فلما وصل الدبر كان حماد في انتظاره فاستقبله وهو ينظر الى وجهه لعله يقرأ على ملامحه ما يبشرونه فراه يتسم ووجهه منبسطة فرحبت به وسأله عن الخبر فقال ابشريا مولاي ان الله قد محا كل شقاء كتب علينا وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند

قال وكيف هند هل هي مسرورة برجوعي وهل علمت اننا لم نعتز على القرطين وماذا قالت

فضحك سلمان وقال ان القرطين لم يعد لها دخل في امر اقترانكما فقد تغير وجه المسألة بموت الحارث بن ابي سمر - وقصّ عليه الخبر الى ان قال واذا شئت الاقتران في صباح الغد فهو لك لان والدك الفتاة ووالدها راضيان بك لا يريدان منك شيئاً واما هند فانت تعلم قلبها قال وهل طلبت مواجعتي

قال كيف لا وقد طلبت ايضاً ان يشرف سيدي والدك على ان يكون الملك جبلة موجوداً لتتم المعرفة بينها واني واثق باقبال نجم سعدنا لان اقترانك بهند فضلاً عن انه من أم اسباب سعادتنا فهو سبيل الى اكتسابكما نفوذاً لدى ملك غسان فقال ولكذك تعلم ان والدي لا يرضى الذهاب معي بهذا الشأن

قال أعلم ذلك وقد ذكرتُه امام سيدتي هند

فبغت حماد وقال كيف ذكرتُه وماذا قالت

قال ذكرتُه على اسلوب لطيف فقلت ان سيدي عبد الله سرّ كثيراً بخطبتكما

واكنه يود وفاء الذر قبل عقد الاقتران

قال حماد اخشى ان تكون هند قد فهمت شيئاً يحملها على اساءة الظن

قال لا اظنها فهمت شيئاً من ذلك وعلى كل فانك ذاهب اليها في صباح الغد

وقد اجلنا اجتماع والديكما الى فرصة اخرى فاذا اجتمعنا افهنا الحكاية كما تريد

قال اذا نذهب الى صرح الغدير في صباح الغد وماذا تفعل بوالدي هل نخبر
قال ارى ان نخبر باننا ذاهبون لطأنة اهل الصرح بعودتنا واننا لا نتحدث بشأن
الخطبة أو الاقتران مطلقاً
قال هذا هو الصواب

الفصل السابع والخمسون

* حماد و هند *

وفي مساء ذلك اليوم خاطب حماد والدة في امر هند وقال له ان وفاة الحارث
ربما سهلت امر اقتراننا وربما عدلوا عن طلب القرطين . و اظهر حماد سروره
بذلك فلم يجب عبد الله بكلمة

فقال حماد ألم تسر يا سيدي بذلك

قال اني اسر لسرورك ولكني لا ازال الخ عليك بالاقتران في هذا الموضوع
ربما يأتي يوم الشعانين ونفي نذرنا

قال اعاهدك باني لا ابشر امراً قبل ميم ذلك اليوم ولكني عازم في صباح الغد
على الذهاب الى الصرح لاشاهد هنداً ووالدتها لاجل الاطمئنان واطنهم يودون مشاهدتك
قال دع ذلك لبعده يوم الشعانين اما انت فاذهب لمشاهدة اهل صرح الغدير

واحذر ان تمضي امراً

قال حسناً يا مولاي

وفي صباح اليوم الثاني ركب حماد باكراً وركب سلمان معه وسارا قاصدين الى الصرح
اما هند فانها لم تنم ليلتها تلك اعظم تأبها فرحاً بقدم حماد الآ عند الفجر
فاغض جناها فنامت هنيئة فافاقت والشمس قد طلعت فظنت تنسها قد ابطأت
في الفراش وخافت ان يأتي حماد وهي نائمة فنهضت ولم يؤثر فيها السهر شيئاً لتنبه
عواظها فاغتملت ولبست ثيابها وعادت الى غرفتها وفيها نافذة تشرف على طريق
بصرى فجلست اليها وعينها شائعتان نحو الافق لعلمها ترى حماداً قادماً وكانت كلما

رأت شجراً أو ظلاً أو سمعت صوت صهيل أو وقع أقدام خفق قلبها ولا يكاد يحدث في الصرح صوت إلا سمعته كأنها كلها آذان لعظم تأثيرها
 أما سعدى فقد كانت توصي الخدم في اعتاد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها فلما فرغت من ذلك فكرت في هند وما يكون من حالها عند ملاقاتها حماداً بعد طول غيبته فوافقت من شدة تأثيرها لئلا يظهر منها ما تعاب عليه أو يؤثر في صحتها فرأت ان تسير اليها وتشاغلها لئلا يذهب ما بها من قلق الانتظار فباعتها فاذا هي في مثل ما خافتة عليها

فلما سمعت هند وقع أقدام والبيتها كادت تنفت لولا تهودها سمع ذلك فاستقبلت والدتها باشة فابتدرتها سعدى قائلة ما بالك منفردة يا هند اظنك تمنين عدول حماد عن الجبيء فضوكت ولم تجب

فقالت هيأ بنا الى الحديقة تنسم رائحة الازهار لان بقاءك هنا عمل قالت ذلك وامسكت بيدها ومشتا حتى نزنا الى المستان وايغلنا بين الاشجار وهند تسارق النظر من بين الشجر اعلمها ترى حبيبها قادماً ولكن والدتها سارت بها في الحديقة حتى غابت عن الطريق وكانت هند انما تمشي محاراة لها وقلبيها بمحدثها بالرجوع الى القصر لئلا يصل حماد اثناء غيابها

وفيا هما في ذلك سمعنا صوت صهيل عرفت هند حالاً انه صهيل جواد حماد فخنق قلبها فنظرت اليها سعدى متجاهلة فاذا هي قد بغتت وهمت بالرجوع فقالت لها دعينا هنا فانه لا يلبك ان يأتي فنراه وقد ارادت سعدى ان يكون الملتقى على انفراد مخافة ان يحدث في اثناء ذلك الاجتماع ما لا يستحسن اطلاع اهل القصر عليه

فسكنت هند واكتها ما فتئت تنظر من خلال الاشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بفارغ الصبر ولم ترض هنية حتى رآته قادماً وعلى رأسه الكوفية والعمال وقد نقاد الحسام تحت عباءة حريرية مزركشة بالقصب فلما وقع نظرها عليه زاد خفتان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبثت ان عاتته الحمرة وظلت واقفة اما والدتها فتقدمت حتى التفت بحماد فسلمت عليه فهم بتقيل بدما احتراماً فمنعته وهند لا تزال واقفة

وقلبها بجدتها بالمسير نحو ولكن الحشمة والحياة منعاهما
 اما هو فاسرع نحوها ومد به مسلماً ووجهه يطفح سروراً وعيناه شاخصتان
 اليها تفقدان ذكاء وهياماً

مدت يدها وهي تنظر الى الارض خجلاً ولكن الابتسام غلب عليها ولما امسكت
 يده شعرت بقوة انبثت في كل اعضائها ثم توردت وجنتاهما وأبرقت أسرتها كأن
 تلك القوة مجرى كهربائي انتشر في اعضائها ثم انحصر في وجهها فاضاً . فقال حماد
 كيف انت يا هند لقد اطلت الغيبة عليكم ولكنني عدت مع ذلك بخفي حين
 فغلب عليها الحياء ولكنها نظرت اليه بعينين براقتين تسبعت أشعة الهيام منها
 وقالت لا حاجة بنا الى الخنين ولا الفرطين وإنما حاجتنا الى عودتك سالماً فالحمد لله
 على ذلك . قالت ذلك ودموع الفرح تنناثر من عينيها وهي تنسم فارادت اخفاء دموعها
 فتمولت نحو شجرة بالقرب منها تحتها مقعد من حجر للجلاس وتمول حماد وسعدى
 والكل سكوت ولكن فلي العاشقين يتكلمان او لعلها يضحكان فقط ولو تركا على
 انفراد لانطلق لسانها وتعاتبا وتغازلا ولكن وجود سعدى حملها على الاكتفاء
 بحديث القلبين

ولما استقر بهم الجلوس قالت سعدى لقد اطلت الغيبة علينا فانشغل بالناس كثيراً
 ولما سمعنا حكاية سفركم من سلمان حمدنا الله على عودتك سالماً بعدما قاسيته من الخطر
 قال لا بهمني من امر سفرتي هذه شيء ولا احسبني اتيت امرأ ولا تحملت شقاء
 طالما كان سفري عقيماً وان يكن ذلك لغير قصور مني لان السبب فقدان الفرطين
 من الكعبة اثناء هدمها وبنائها اما انا فاني عازم على مواصلة البحث عنها في العراق
 او غيرها حتى اتي بها

فابتدرته هند قائلة لا لا حاجة بنا الى الاقراط فان عندنا من فضل المولى ما
 يكفيننا مؤونة هذه الاسفار

قال وماذا يقول الناس عني وقد عدت صفر اليدين اليس عاراً على حماد ان
 يرجع خائباً عن امر طلبته هند !! قال ذلك وعيناه تنظران الى هند ويكاد النور
 يبتثق منها

فالتفتت في اليوم وقالت وهي تنهم لا لم بعد حماد خائباً لانه جاهد في سبيل

القرطيين جهادًا حسنًا ولا يزال ساعيًا في التفتيش عنها في خزائن المحبة ولكننا نحن حولناه عن عزمه فما ذلك من قبيل المحبة لا سح الله

ثم قالت سعدي ان امر القرطيين يا ولدي لا يهنا مطلقًا فمثل هذه الاقراط كثير عندنا من نعم الله . من ذلك لؤلؤتان معلتان بناج الملك جيلة هما مثل لؤلؤتي قرطي مارية تمامًا حتى لقد بحسبها الناس نفس القرطيين (١)

قال حماد اني لا أجهل نعم الله على ملوك غسان زادكم الله نعمًا ولكني وددت ان اجعل لي سبيلاً استحقى وهدناً فان نسي وحدث ولا حسي بخولاني هذا الشرف ولكن ذلك أحسبه من جملة كرم الغسانيين على الغرباء . قال ذلك وتيسم والتفت الى هند فاذا هي تيسم ايضاً وتظر الى الارض

فالتفت سعدي اليه وقالت ان النسب يا ولدي لا يجعل الانسان انسانا وان الرجل باصغريه لا يردبه فان ما شهدناه من شهامتك وكرم اخلاقك لجدير بان يرفع منزلتك الى أوج الملوك وكم من ملك تحطه دناءته الى مصاف الصغار وشاهدنا على ذلك قريب . قالت ذلك ونظرت الى هند كأنها تذكرها بدناءة ثعلبية والمقابلة بينه وبين حماد فادرك حماد ذلك فاطرق خجلاً لما سمعه من الاطناب ولكن قلبه رقص طرباً لتخلصه من امر القرطيين وتمثل له ملاك السعادة طوع ارادته فابرقت اسرته ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران بسببه فانقبضت نفسه على ان اجتماعه يهند في تلك الساعة انساء كل نقباض . ثم اتمت سعدي كلامها قائلة ارى على ثيابك اثر الغبار الا تحتاج الى تدبيل وغسيل فاذا شئت هلم بنا الى الفصر

قال لا اشعر تعب وان الغسيل والتدبيل امران مستدركان ولكن الجلوس في هذه الحديقة بين الاشجار ومجاري المياه والاستظللال تحت هذه الشجرة مما ترناج اليه نفسي . ولا اخفي على سيدتي اني لم اكن ارجو مثل هذا الاجتماع بعدما قاسيته من المشاق ولا انسى يوماً قضيتها في مكة على سطح غرفتي لا اذكر يوماً كنت فيه كما كنت في ذلك اليوم لا اعاده الله

قالت هند وكيف كنت

قال لا فائدة من ذكر ذلك غير الكدر ولكني امثل لك الامر تمثلاً . تصوري

اني ركبت متن الاسفار وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية مهراً الحبيبتني
هدد والعتيش عن والدي فنزلت بلدًا شهدت فيه حرباً وخطرًا ثم تحققت فقدان
القرطين وضباع والدي فلما تراكمت كل هذه المضائب عليّ صعدت الى سطح غرفتي
وقد ضيق صدري وتذكرت هداً والدي وما انا فيه من اليباس فاذا تكون حالي
فقال سعدى لقد سرنا العنور على والدك هل هو في خير وهل ينوي زيارتنا
فاني احب تعريفة بالملك جبلة لئيم سرورنا فقد زالت كل الحواجز وتهدت كل
العقبات والحمد لله

فتذكر حماد مسألة الذر وحكاية يوم الشعابين فقال في نفسه لم تزل امامنا
عقبة لا يدري ما وراءها. ولكنه اجاب سعدى قائلاً ان سيدي الوالد بسرٌ كثيرًا
بمقابلة الملك جبلة وهو شرف يتناهى امثالنا ولكنه الآن في شاعل وسيغتم اول فرصة
لمقابلة سيدي الملك وانا كذلك

الفصل الثامن والخمسون

* جبلة *

وفياهم في مثل هذه الاحاديث آتسوا في اهل النصر حركة واهتمامًا ثم جاءهم
مخبر بينهم من جاء بشير بقدم الملك جبلة الى الصرح فغمت الجميع لقدمو على
غير انتظار ونهضوا يطلبون النصر ينتظرون قدوم الملك
ممشوا صائتين كل منهم يكره في امر وكان حماد اكثرهم بغتة واهتمامًا لانها
اول مرة يقابل بها جبلة بعد عودته فخاف ان يكون فشلة في البحث عن القرطين
سببًا في فنور تعتوه له واما هند فكانت تتوقع من والدها حوًا الى حماد بناء على ما سمعته
من والدتها واما سعدى فلم تستغرب قدومه لانها هي التي انذرت ابو رسولاً بالامس
بمجيء حماد وانه سيوزرهم في ذلك النهار فاذا استطاع المجيء فعل
فوصلوا النصر ودخلوا قاعة الجلوس وما استقر بهم المقام حتى نودي في النصر
بهي الملك فخرج اهله لاستقباله وخرج حماد وهدد والدتها الى الحديقة

وكانت الفرسان قد وصلت فتحول جيلة عن جواده وعليه لباس السفر من العباءة والكوفية وقد تقلد الحسام ومشي يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يبحث عن حماد حتى اذا وقع نظره عليه دنا منه فتقدم حماد وهو يقدم قدماً وبؤخر اخرى ليرى ما يبدو منه . اما جيلة فاسرع اليه وسلم عليه مصافحة وقبله قبله الوالد لولك والناس ينظرون . وكانت هند تراقب حركات والدها فلما رأت منه ذلك وقص قلبها طرباً وتناثرت دموع الفرح من عينيها وكذلك والدها اما حماد فانه قبل يدي عمه وقد تحفى رضاه عنه . فقال له جيلة اهلاً بولدي وعزيزي محمد الله على عودتك ساماً فاجابه حماد (وملاحح الامتنان ظاهرة على وجهه) له الحمد على كل حال ولكنني احمد انعمو عليّ برضا ملك غسان فانها نعم لا اقدر على تقديرها يا عمه

ثم تحول جيلة نحو هند فقبلت به وقبلها وحماد ينظر فتمركت فيه عاطفة الغيرة عليها حتى من والدها ثم حياً سعدى ومشي الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كما يريد ان يلتفتها بنظره وقد شق عليه مفارقتها بعد ان تقرر له الحصول عليها وكان سلمان في جملة اهل النصر الوقوف في انتظار جيلة ولم يتأ دخول الحديقة على حماد عند اول مجيئه مراعاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون النفوس بوامام احد

ودخل جيلة وسعدى وهند وحماد القاعة فسأل حماد عن سلمان فجاء فدعاه للجلوس هناك فتوقف توقيراً للجلسة فتهض حماد وامسكه بيده وقدمه الى الملك فانثلاً اقدم لكم يا عمه رفيقي وصديقي سلمان فانه كان معتمدي في اسفاري وهو محب غيور للملك جيلة وسائر آل منزله

فرحب بوجيلة وامر بالجلوس فجلس والجميع جلوس ثم التفت جيلة الى حماد وسأله عن والدك فقال اني تركته في دير مجبراً على ان يحظى بمقابلة مولاي في فرصة اخرى

قال لقد سررت كثيراً باجتماعكما بعد طول التشتت بسبب ذلك الغلام الغر (يريد ثعلبة) وقد كنت في غفلة عن امره الى ما بعد وفاة والدك فتبعثر اصدقائه فاخبرني بعضهم بما ارتكبه هذا الخائن في سهل الفتك بك على اثر ما اظهرته من

الشهامة وكرم الاخلاق ويكفي انك عفوت عن قتلو في حلبة السباق بعد ما عاينت من غدره وسوء قصه ولكن ذلك الحائن قد نال جزاء ما جنته يدها وكان الناس انما يرمقونه ببعض الاحترام مراعاة لمنصب والدك فما كاد يتوفى الحارث حتى نُبذ نبد النواة وصار مضغة في الافواه ومن انقل المصائب عليو ان يعلم بمجيبك ونيل مرامك ولا اظنه يسمع باقتراكك حتى يقع ميتا لشدته لؤمو وحسده فجهه الله . وكان جبلة يتكلم ولجينة تهتز وعيناه تنقدان غضبا مع محارلو اخناه ما في نفسه وتخفيف ما يو فلما اتم كلامه اخذ يتلاهي بتمشيط لجنته باصابعه ويداغل نظره بالالتفات الى خيلٍ مربوطة خارج القصر كانت تتزاحم وتتضارب

اما الحضور فانهم لبثوا بعد انمام حديثه مكوثا نهييا من غضوه ولكن قلوبهم كادت تطغى سرورا بما قاله عن ثعلبة . ثم وجه جبلة خطابه الى سعدى قائلا اسقينا شيئا نرطب به اجوافنا ونشربه نخب اجتماعنا فرحا بقدم صهرنا سالما . فقالت الا ترى ان نجلس الى المائدة فنناول الطعام والمداوم معا . قال حسنا تفعلين

فصفت فجاء غلام . فقالت هل تمت معدات الطعام

قال نعم يا مولاتي

فبهض جبلة ومشي فتبعه الجميع حتى دخلوا غرفة مدت فيها الاسطة وعليها الاطباق والمطابعين وكلها من الذهب او الفضة (١) فجلسوا يا كلون وبشربون والفرح شامل لم

فلما فرغوا من الطعام وقاموا عن المائدة تقدم جبلة الى حماد وأشار اليو ان اتبعني فتبعه حتى خرجا من القصر وجعلا يتشبان في بعض طرق الحديقة فلما خلوا قال جبلة اعلم يا حماد انك الآن بمنزلة وادي وقد قسم الله ان تكون صهرا لي وهذا امر احسبه من تحظ هند لانك شهم يفخر بشهامتو وشجاعته ما يربو على الافتخار بالحسب والنسب : وقد تركت اليك تعين زمن الاقتران ولكنني اوجه التفاتك الى امر واحد وهو ان هنداً كما تعلم وحيدة ليس لنا ولد سواها فيشقى علينا فراقها فأشترط عليك اذا تم الاقتران ان نقيم عندنا انت ووالدك ومن تريد من ذويك فنزلون على الرحب

وإذ عرفت ان البلاد تحتاج الى من يتولاها وليس لي واد ذكر فاذا احسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكاً عليهم فلم يعد يعرف حماد كيف يشكر نعمته ولكنه وقف وكانا ماشيين فوق جبل فقال حماد ان هذه النعم وهذه المشمة ما يقصر لسان الناس عن اداء الشكر عليها . ان شرطاً اشترطوه يا عماء ان هو الا نعم انعمت بها علي جزاك الله عني خيراً . اما وقت الاقتران فلا يمكننا تحديد الآن الدواع لا اخفيها عنك قال وما هي

قال لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق قال نعم اذكر ذلك وما سبب طولو

قال ان والدي نذر اني اذا عشت لا يتصر شعري الا في المنة الحادية والعشرين من عمري في دير مجبراء وضرب لذلك اجلاً يوم اذعائين فان ذلك اليوم منذ عام وبضعة اشهر فجمنا البلقاء فحدث ما حدث من سعي تعدد ضدي والقبض على والدي ثم لم نجتمع الا من امد قريب في المدينة فيرى والدي ان يتنزل يوم الشعائين القادم ونقص شعري في الدير وقد اخبرني ان عندك حكاية سينتها علي في ذلك اليوم وواعز الي ان لا اقطع بامر من الامور المهمة الا بعد ذلك اليوم ما رأي مولاي فحجب جبلة لذلك السر وقال لا اري مانعاً من تأجيل الاقترار الى ما بعد الشعائين فنجعل في يوم القيامة ولكنني استغربت هذا السر الا تعلم ما موضوعه قال كلاً يا عماء لا اعرف عنه شيئاً ولا يعلم به احد سوى والدي وقد اخبرني انه لما وقع في الخطر مرة وخاف الموت لم يأسف على شيء اكثر من اسف على ضياع ذلك السر

قال جبلة فلننتظر يوم الشعائين وكل آت قريب ثم تحولا نحو القصر وكانت هند ووالدتها وسلمان جالسين في القاعة فدخل جبلة وحماد وقضوا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة فلما كان العصر التمس حماد العود الى الدير لئلا يستعطفه والده فيشغل باله عليه فقال له جبلة افعل ما بدالك ولكن اعلم يا ولدي ان صرح الغدير وسائر قصور البلقاء مفتوحة لاستقبالك متى اردت القدوم . فهم حماد بيد عمه فقبلها وكذلك

فعل سلمان وودع هنداً وسعدى وكان قد امر فاسرجت الخيل وأراد الإسراع في
الشخص الى دير بجيرا. ليغير والدك بما لاقاه من الاحتماء وما عرضة عليه جيلة من
الانعام لعله يرغب في القدوم على جيلة

فركبا وسارا وهند تشيعها بنظرها خلسة حتى تواریا فعاد اهل الصرح فاحكى
جيلة لسعدى ما دار بينه وبين حماد وما عاد هو الى البلقاء احكت ذلك الى هند
فكادت تطهر من الفرح

اما حماد فانه وصل الدير في مساء ذلك اليوم وكان والدك في انتظاره فاستقبله
ودخلا الغرفة فاحكى له حماد ما لاقاه من الاكرام والاحتماء وما دار بينه وبين جيلة
ما لم يكن يرجوه .. وكان حماد يتوقع ان يرى من والدك بعد هذا الحديث اعجاباً او
انبساطاً فلم ير وجهه يزداد الا انقباضاً ولم يجب بكلمة فليست حماد ينتظر يوم الشعانين
بفارغ الصبر

الفصل التاسع والخمسون

* قص الشعر *

وكان عبد الله كلما دنا ذلك اليوم زاد انقباضاً حتى قيل غداً يوم الشعانين
فعلم ان الدير سيكون مزدحماً في ذلك اليوم وهو انما يلتمس الانفراد بجهاد ليتلو عليه
الحكاية فصار الى رئيس الدير واطلعه على قصه

فقال واي الغرف تريدون

قال يريد صومعة بجيرا. نفسها فانها منفردة وفيها كرامة وبركة

قال ولكن الناس يقدمون اليها في مثل هذا اليوم زائرين

قال بزورونها بعد خروجنا منها فرها مكننا فيها ساعات قليلة من الصباح الى

الظهر . وكان عبدالله جليل الطلعة ممتازاً فاذعن له الرئيس

ثم قال عبدالله اعرف راهباً شجاعاً من تلامذة بجيرا الراهب صاحب هذا الدير

كان يقيم في الصومعة فهل هو باق هنا

قال انه باق ولكنه يذكر شدة الضعف لشيخوخته فلا يخرج من غرفته الا نادراً
قال الا نظنه يخرج في صباح الغد اذا توسلنا اليه ان يرافقنا الى الصومعة ويقص
شعر غلامنا

قال لا اعلم ولكن عندنا من الرهبان والقسس كثيرين يفعلون ذلك
قال صدقت ولكنني افضل ذلك الراهب الشيخ لاني اعرفه
قال هلم بنا اليه نسأله فعساه ان يرضى

وسارا الى غرفة من غرف الدبر مغلقة الباب فقرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ
لفتحه وبعد هنيهة فتح الباب وبان من وراءه شيخ هرم قد ابيض شعره باضاً ناصحاً
واسترسل من رأسه ولحيته وحاجبيه وشاربه حتى لا تكاد ترى من جاد وجهه الا بعض
وجنبيه وقد نجمدتا وثنتت جبينه وبرزانته اعقف واحدودب ظهره حتى لا يستطع
النظر الى واقف امامه الا بجهود وعناية فتقدم الشيخ وبيد الواحدة على الباب وبيد
الاخري يتوكأ بها على عصا قديمة العهد ربما رافقته في صباه وقد قبض عليها بانامل
لم تترك الشيخوخة عليها لحماً فلصق الجلد بالعظم حتى كان اعرض ما في الكف عند
الامشاط عند اتصالها بالاصابع

فلما فتح الباب رفع الشيخ نظره وحدق زائريه وكان قد عرف الرئيس من
مجمل قياضه واكنة لم يعرف رفيقه فنظر اليه نظر المتأمل وشعر حاجبيه المسترسل
يجذب معظم النظر عنه فارسل به يرفع بها شعر الحاجبين وهي ترتعش لضعف
الشيخوخة فابتدره عبدالله بالسلام وهم يتقبل به فعرفه الراهب فقال اهلاً
بولدنا الامير عبدالله ابن الوطن العزيز تفضل يا ولدي ادخل . فدخل ودخل
الرئيس معه وجلس كل منهما على وسادة وهما لا يحسرا على فتح الحديث احتراماً
لشيخوخة الراهب

ثم تكلم الرئيس فقال ان ولدكم الامير عبدالله يلتمس حضوركم الاحتفال بقص
شعر ابنه وفاء لنذر نذره منذ بضع وعشر بن سنة

فتأمل الشيخ برهة ثم رفع نظره الى عبدالله بغضه والنور ينبعث من حدقته في
خلال شعر الحاجبين كأن الزمن لم يؤثر على حدتها وقال ما اسم غلامكم
قال حماد

قال نعم حماد اذكر اني رأيت في الصومعة منذ عامين واخبرني انه جاء لنص
شعره وكان يوم الشعانين قريباً لم تقولا النذر بعد
قال لا يا مولاي لم نستطع ذلك لاسباب فرقت بيننا اعواماً فلما اجتمعنا جئنا
لني النذر فهل تريد ان يكون وفاؤه على يدك
قال اني شيخ ضعيف لا استطيع الوقوف لتادية الفروض اللازمة اثناء
الصلاة

قال يؤديها النفس وتكون انت معنا بعد الصلاة فنفر دانا وانت وحماد
الكلام اقصة عليكما
قال حسناً يا ولدي ومتى يكون ذلك
قال غداً صباحاً ان شاء الله
قال سئلتني اذا صباح الغد في الصومعة قال ذاك وهو يتلاهي بمسجتي ويداه
ترنجات

ثم نهض عبد الله فودع الراهب وخرج توجاً الى غرفته وجلس ينتظر عودة حماد
وكان حماد يخلف الى صرح الغدير مراراً في الاسبوع يتمتع بروية هند فيقضي
النهار عندها مع والدتها واحياناً سلمان وقد شمر ان ملاك السعادة يجرسه وخصوصاً
بعد ما قصة عليه جيلة مما ينوبه له في مستقبل حياته واصبح لا هم له الا محبي يوم الشعانين
ليني النذر ويقترن بهند على انه كان اذا جلس اليها ودار الحديث بينها نسي النذور
وغفل عن مستقبل الايام . اما والده فلم يجتمع بجيلة وكان حماد يلتمس ذلك منه
احياناً فينتحل اعداراً يتخلص بها من المسير

فلما كان آخر يوم كما قدمنا عاد عبد الله الى غرفته وجلس ينتظر حماداً وكان
قد سار الى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معه فعاد في الاصيل على فرسه
وسلمان وراءه على فرس آخر فلما وصلا الدبر ترجلا ودخلا وهما يتوقعان ان يكون
عبد الله في انتظارها فرحب بحماد وقال له الا تعلم يا ولدي ان غداً يوم الشعانين
قال نعم يا ابتاه والي في استعداد لوفاء النذر

قال جعله الله نذراً مقبولاً . وقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في
صومعة مجبرا هل تذكر

قال نعم اذكر اني جلست اليه مرة وقص عليّ خبر الراهب مجير استاذ
قال قد خاطبته في ان يقص شعرك ويسمع ما انلوه عليك بعد ذلك
وكان سلمان لا يزال واقفاً بالقرب من الباب يصلح كوفيته وعقاله وكان قد
انحلاً وهو يتحول عن جواده فلما سمع ما قاله عبد الله تقدم نحوه ونظر اليه قائلاً الا
تظن خادمك - لمان يستغنى الاطلاع على هذا السرايضاً .
قال بلى انك اولى الناس بذلك وستكون انت ايضا معنا
وقضوا بقية ذلك اليوم بعدون انفسهم وخصوصاً عبد الله فانه مال الى الانفراد
بعد بعض الثياب

وفي صباح اليوم التالي ساروا الى الصومعة باكرًا فرأواها مضيئة بالشموع وهي
كما تعلم عبارة عن غرفة كل من جدرانها الاربعة حجر واحد والمقف حجر والارض
حجر وبابها حجر واحد يفتح ويغلق^(١) وهذا هو شأن ابنة حوران حتى الآن نظراً
لكثرة صنورها وقلة خشبها فيبنون البيوت من الحجر ويجعلون درف نوافذها وابوابها
وسقوفها من الحجر ايضا

فدخلوا الصومعة فرأوا الراهب، الشيخ ومعه قميس آخر، وشماس فلما اجتمعوا
جميعاً اخذوا في الصلاة فاحرقوا الخجور وحلوا شعر حماد حتى استرسل على ظهره وكتفوه
وطافوا به بالترانيم والتسابيح على جاري العادة والتبس يحملون الصليبان والمباخر
يتنمون حتى تمت الصلاة وقرأوا فصلاً من الكتاب المقدس وكان الراهب قد نعب
فجلس على مقعد الحجري ليرتاج فلما انقضت الصلاة تقدموا نحوه واعطوه مقراضاً ودنا
حماد منه وشعره بجملته فمد الراهب يده وامسك خصلة من شعره وبارك وقصها اشارة
الى وفاء النذر وبقي الشعر مسترسلاً على نية ان يقصه عند عودته الى المنزل

فلما انقضى الاحتفال اشار عبدالله الى الراهب انه يريد الخلوة فاعز الى المحضور
فخرجوا وبقي هو وعبدالله وحماد وسلمان واطنمت الشموع ولم يبق من الانوار الا
مصابيح الزيت المعلقة امام الايقونات فاشار عبدالله الى سلمان ان اغلق الباب فهم
باغلاقه وهو لا يحسب نفسه قادراً على ذلك اضغانته فاذا هو طوع به لان لاهل
حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الابواب حتى تغلق بسهولة^(٢)

فلما أغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الاحياء وخيل لهم انهم في عالم آخر وخنق قلب حماد تطلعا لما سيسمعه من غريب الاحاديث . فتزعج عبدالله جبنه وهم بصرة كانت معه فحتمها واستخرج منها رداء مزركشا يدببه الطيلسان كان قد اذخره واحتفظ به منذ اعوام فقله ثم بسطه وجعله على كتفيه ونشر على الارض امام مجلس الراهب جانبا جثا عليه وجلس حماد وسلمان امامه والجميع سكوت براعون حركات عبدالله وسكنا تو و ينتظرون ما يبدو منه

الفصل الستون

* كشف السر *

فلما استتب بهم الجلوس التفت عبد الله الى الراهب وقال اعلم يا مولاي اننا الآن في بيت الله وقد اجتمعنا فيو لعمل مقدس فلا يعلم بما سيدور بيننا الا الله وحده وساقص عليكم حكاية اوتيت عليها منذ بضع وعشرين سنة فارجو ان تصفوا الي حتى آتي على آخرها ومتي فرغت منها التمس منكم كتابها عن اهل الارض كافة فهل تماهدونني على ذلك

قال الراهب نعم يا ولدي ان سرك لن يتجاوز جدران هذه الصومعة
قال التمس من قدسكم ان تنلو علينا الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام
وليقسم كل منا بكتبان هذا السر عن البدر كافة
فقال الراهب « ابانا الذي في السموات الخ » واقسم كل منهم بالصليب والمعودة
بكتبان ما سينلى عليهم

ولما تم القسم نظروا الى عبدالله فاذا هو يتأدب في فعوده كانه في مجلس رهيب
وقد امتنع لونه فهابا منظره . وما زاده هيبه ضئالة الأنوار واختلاؤهم في ذلك المكان
فنظر عبدالله الى حماد ووجه الخطاب اليه قائلاً

تعلم يا ولدي ان العرب يرجعون في انسابهم الى اصلين كبيرين هما قحطان واسماعيل ومن نسل قحطان عمّرت اليمن وما جاورها ومن نسل اسماعيل عمّرت الحجاز وما جاورها ويسمى نسل اسماعيل الاسماعيلية او العدنانية نسبة الى جدّه من اجدادهم بعد اسماعيل اسمه عدنان ويسمى بنو قحطان القحطانية

وقد قامت من القحطانية دول ملكت الحافيين منهم التبابعة المشهورين وغيرهم من دول حمير وسبأ . ومن مملكة سبأ خرجت ملكة سبأ التي ذكرت التوراة انها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة آهلة حتى حدث سيل العرم^(١) ففرق اهلها ايدي سبأ . اتعرفون ما هو سيل العرم

قال حماد لا يا أبناء لا اعرفه .

قال عبد الله اعلم يا ولدي ان اليمن وسائر جزيرة العرب ارض ثقل فيها الانهر والينابيع واعتماد الناس في ري مزارعهم انما هو على مياه المطر فانها تجتمع في مجاري الاودية وتسيل كالانهر فاذا انقضى الشتاء جف معظمها فملافة لذلك كانوا يعملون في عرض الاودية سدوداً من حجر تعترض مسير الماء فيجتمع ويرتفع حتى يسقي اعالي الارض

وكان من تلك السدود في اليمن سدٌ كبير يقال له العرم بناءً ملوك اليمن قديماً بججارة ضخمة متمسكة بالفار وفيه خروق يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم وكانت له حنطة يقومون بتعمير وتوزيع مياهه فتفادهم عهد حتى تصدع وخيف سقوطه . وعرب اليمن اذ ذاك بنو كهلان بن سبأ من القحطانية

وكانت دولتهم قد ضعفت واخذت نظامها وآلت الى السقوط فاهمل امر السد وقلت المحافظة عليه فظهر به الخطر اولاً فاولاً فخاف الناس تهدمه بغزة لئلا يسيل الماء عليهم فيغرقهم ويحرق منازلهم فاخذوا ينزحون احياء وبطوناً وبقيت منهم بقية اصحبل ذات اليوم وقد انفجر السد وطافت المياه فاغرقت بعضهم ونجا البعض وتفرقوا في البلاد وسمي ذلك السيل سيل العرم^(٢) وكان ذلك منذ ستمئة سنة او اكثر وكان السامعون مصغرين لاستماع حديث عبد الله وهم لا يرون فيه ما يوجب

(١) ابن خلدون (٢) الطبري

المسارعة ففعلوا لذلك ولكنهم صبروا انفسهم ايروا ما يكون بعد فادرك عبد الله ضائرتهم فقال لم لا ترون في حديثي ما كنتم تتوقعونه من الانبياء المهمة فاني انما اقص عليكم اخباراً متناقلة على السنة الناس ولكنني اردت ان اسط لكم اصل نسب ملوك الحيرة المقربين في العراق ثم انطرق من ذلك الى كشف السر فامهلوني ولا تغلوا

الفصل الحادي والستون

* ملوك الحيرة *

قلت لكم ان انبي كهلان تفرقوا قبيل سبل العرم وبعده وكانوا احياء عديدة تذكر منها ثلاثة هي لحم والازد وطبي اما لحم فهم اجدادنا الذين اقاموا في العراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة (قال ذلك وتهد) واما الازد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد اما طبي فاقاموا بجد والحجاز في جبلي اجا وسلمي^(١)

فسرّ حاداً ان يكون بين اللخمين والغسانيين قرابة وانكم ما زال قلقتا للوصول الى آخر الحديث وكذلك سلمان اما الراهب فكان اقلها قلقتا واشتياقاً كأن الشيوخة وكثرة الاختبار علماء الاستخفاف بمجاذب الزمان فضلاً عن ان ما قصه عبد الله عليهم الى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عنده

اما عبد الله فانه اتهم الحديث قائلاً : علمتم ان ملوك الحيرة اللخميون يتصل نسبهم بكهلان بن سبا من عرب اليمن القحطانية . فنزل بنو لحم العراق واقاموا في مدة على حالم من البدائع . واول من حكم العراق من العرب قوم من حي يقال له دوس وهو بطن من الازد وهم اقرب نسباً الى الغسانيين منهم الينا . ولم تفض مدة حتى تغلب اجدادنا عليهم وملكوا العراق تحت رعاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليه الآن واتخذوا مدينة الحيرة كرسياً لملكهم وسموا المناذرة جمع (المنذر) وهو لقب ملوك العراق كما تعلمون ولا اطيل الكلام عليكم خوف الملل فاقول بالاختصار انه توالى على كرسي الحيرة بضعة عشر ملكاً اشهرهم امرؤ القيس بن عمرو وما يؤثر من فضل ان اللخمين لما قدموا

من اليمن كانوا على عبادة الاوثان فلما ملكوا وخالطوا الرهبان واهل النصرانية تصرفوا
 واول من تصرف من ملوكهم امر والنيس هذا (١) ثم ملك النعمان بن امرى النيس ويقال
 له الاعور وهذا الذي بنى النصرين المشهورين (الخورنق والسدير) ومن غريب امر
 انه لما عظم ملكه وامتلاّت عيابه من خيرات الارض مال الى الزهد فترك الملك
 وتنسك (٢) . وملك بعد المندر ثم الاسود وهذا حارب اصحابنا الغسانيين منذ مئة
 وخمسين عاماً واسرعت من ملوكهم وكان ذلك سبب عداوة مستمرة فيما بيننا
 وبينهم (٣) . وتوالي بعد الاسود ملوك كثيرون منهم المندر بن ماء السماء وكان معاصراً
 لكسرى انوشروان ملك الفرس المشهور وله معه وقائع وحوادث يطول شرحها
 فلنتركها وننتقل الى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المندر .

فلما ذكر اسمه ابتدره الراهب قائلاً اظنك تعني ابا قابوس
 قال نعم انه كان يلقب ابا قابوس .

قال الراهب هذا الذي قتله كسرى رويرو بسبب قتله صارت واقعة ذي قار (٤)
 وقد كنت شأناً وشهدت هذه الحوادث وكنت اعرف الملك النعمان هذا رحمه الله ولي
 معه حديث طويل

الفصل الثاني والستون

* مقتل النعمان بن المندر *

فتمهد عبد الله وهو يعندل في مجلسه ويصلح الرداء على كتفيه وقال قد وصلنا الى
 المراد من حديثي فارعوني السمع لاقص عليكم غرائب ما اعلمه عن هذا الملك . قال
 ذلك وشرق بدموعه خلسة ولولا ضعف النور اظهر الدمع متلاًتلاً في عينيه ولكنه
 تجلد واعاد الحديث فقال .

ان الملك النعمان هذا لا احتاج في وصفه الى تطويل وكلكم بعرفة الأحاديث
 ويكفي في وصفه انه شهيم شجاع صادق وقد اعاد النصرانية الى الملك (٥) بعد ان فسدت

(١) ابن خلدون (٢) ابو الفداء (٣) ابن خلدون (٤) الطبري (٥) ابو الفداء

وابداها اسلافه بالوثنية^(١). ولا تنفع لكم دخيلة حديثي الا اذا ذكرت لكم كيفية تولي النعمان الملك . فقد كان ابو المنذر ملكاً قبته وكان في بلاط كسرى على عهد رجل عدناني اسمه عدي بن زيد كان يحسن العربية والفارسية وكانت له منزلة كبرى وتفوذ لدى كسرى وكان مقام كسرى في المرائن والمنذر في الحيرة كما تعلمون . وكان المنذر ١٢ ولداً احدهم النعمان الذي نحن في صدره وكان قد ربي في حجر عدي بن زيد ورضع في اهله^(٢) وكان من ابناء المنذر ايضاً فتى اسمه الاسود رباه قوم من اهل الحيرة يقال لهم بنو مرينا ينسبون الى لحم

فلما مات المنذر خاطب كسرى عدنياً في من يلي الحيرة بعد وقال له « اني اري ان اخرج الملك من ابدي هؤلاء واجعله في يدي واحد من خاصتي فهل بين اولاد المنذر من يصلح للملك » قال عدني انهم بضعة عشر رجلاً كلهم أشداء فاذا امر مولاي جئته بهم قال اليي بهم . فبعث يستقدمهم وفي نفس ان يسهل سبيل الملك الى النعمان سرّاً لانه ربي عنده فحلبا به قبل اجتماعهم واسرّ اليه اشياء يقولها في حضرة كسرى ففعل وتولى الملك فشق ذلك على ابن مرينا لانه كان يرجو ان يكون الملك للاسود التماساً للتفوذ على يده . فاخذ يحرض الاسود على الانتقام من عدي بدعوى انه عدناني (اي من نسل عدنان وبين القحطانية والعدنانية مناظر) فوافقه وسلم التصرف في ذلك اليه فجعل ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايا والنعيم ويشي بعدي فيذكره بالخير وينوطاً وبعض الحضور على الطعن فيه فيروون عن لسانه انه يقول بان النعمان تحت امره وانه هو الذي ولاه الملك وما زالوا كذلك حتي اضغوثه عليه . فبعث النعمان الى عدي بدعوه الى زيارته فجاء وفي حال وصوله امر بسجنه في مكان خارج الحيرة لا يدخل عليه فيه احد فعلم عدني انها وشاية فجعل يكتب الى النعمان يستعطفه نظراً ونوراً فلم يجد ذلك نفعا فكتب الى اخ له اسمه ابي يحرضه على انقاذه فقام ابي الى كسرى وأنبأه بخبره فكتب الى النعمان في اطلاقه فجاء اعداء عدي واكثرهم من بني بقبيلة واصالهم من عرب غسان^(٣) اهل هذه الديار وحرصوا النعمان رحمة الله على الذئب بعدي قبل وصول كتاب كسرى اليه وحسنوا له ذلك بحيلة بطول شرحها وكان الرسول قد مرّ قبل وصوله الى الحيرة بسجن عدي واخبره بكتاب كسرى ثم

خرج من عندك الى النعمان وفي اثناء ذلك ارسل النعمان الى عدي اناساً قتلوه فلما فضّ كتاب كسرى كتب اليه ان عدياً مات . ولكن النعمان ما لبث ان عرف انه اساء عدياً فندم وماصدق ان لقي ولداً من اولاده اسمه زيد بن عدي حتى هم باكرامه ورفع شانه تكفيراً عما فرط منه بشان والده واوصى بوكسرى فجعله في منزلة والد عدي^(١) فلم يغفل اهل الوشاية عن اطلاع زيد على كيفية قتل ابيه فخذها على النعمان وسعى ضده لدى كسرى بحيلة غريبة . وذلك ان الاكاسرة كانوا يبعثون الى ابيالهم يطلبون نساء لم على اوصاف مخصوصة ولكنهم لم يكونوا يلتمسون ذلك من احباء العرب لعلمهم بخلافهم بكرائهم . فقال زيد لكسرى مرع ان في الحيرة نساء جمعن كل اوصاف الجمال فاذا بعثت الى النعمان ارسل اليك منهن . وكان زيد يعلم ان النعمان لن يرضى بذلك فوقع التناظر بينه وبين كسرى فانفذ كسرى رسولاً ومعه زيد الى النعمان فاخبره بطلب كسرى فعظم ذلك عليه فالتفت الى زيد وقال له « اما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى به حاجته ان الذي طلب كسرى ليس عدي » قال الرسول لزيد بالفارسية ما معنى المها والعين » قال « البقر »

فلما رجعا الى كسرى اخبراه بما قال النعمان واقتعاه انه انما اراد الحط من منزلة كسرى بقوله « اليس في بقر الفرس ما يكفيو » فغضب كسرى غضباً شديداً ولكنه كتم ذلك والنعمان قد شعر بغضبه فاخذ يستعد ويتوقع حتى اتاه كتاب كسرى يستقدمه اليه فعلم انه انما يدعو لقتله فحمل سلاحه واماله والتمس الفرار . وكنت انا ممن لازم النعمان زماناً وكان يستأنس بي وبرنامج الى رفقتي فقال لي كيف انت يا عبدالله قلت اني يا مولاي لاحفك بك ايما توجهت فقال ان في ذلك خطراً عليك قلت ما انا باحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان فقال بورك فيك . فصيبة من ذلك اليوم وسرنا حتى اتينا قبيلة طي في اعالي نجد وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب ان يجمعوه بين الجبلين (اجاوسلي) فقالوا « لا يكدا ذلك ولولا صهرك لقتلناك فانه لا حاجة بنا الى معاداة كسرى »

فتركناهم وسرنا الى قبائل اخرى فلم يقبلنا احد منهم خوفاً من كسرى حتى لقينا رجلاً من قبيلة بكر بن وائل اسمه هاني بن مسعود^(٢) وكان سيداً منيعاً وكان للنعمان

(١) الاغاني (٢) الاغاني (والطبري يسميه هاني بن قيصة بن مسعود)

فضل عليه فقال له « اني مانعك ما امنع نفسي واهلي وولدي منه ما بقي من عشريني الا دين رجل ولكني لا اري ذلك نافعاً لك لانه مهلكي ومهلكك فاذا اذنت لي فاني مشير عليك بالذهاب الى كسرى مستعظماً واحمل اليه الهدايا فاذا صبح عنك عدت ملكاً والاموت خير لك من ان يتلاعب بك صعايلك العرب » فاستحسن مولاي العمان الرأي ولكنه قال ما افعل بحرمي قال هاني « من في ذمتي لا يخلص اليهن حتى يخلص الي بناتي » فقبل العمان بذلك وانا خائف من عاقبة الامر وقد حدثتني نفسي في صدّه عن الذهاب فلم اجسر لاني شاهدت وجهه وكان ابرش احمر كما تعلمون^(١) قد امتنع حتى صار كمن اصابه البرقان ونهض وقد هم الامر كثيراً وجعل يخطر ذهاباً واياباً وقصر قامته وظهر وهو ينقل شاربوه الاشرار كأنه خائف من الذهاب وكان ضميره دليلاً

ثم فكر قليلاً وقال لهاني اري يا اخا بكر ان ارسل الى كسرى هدايا فان قبلها سررت اليه فقال هاني نعم الرأي رأيت نارسلها اليه فقبلها كسرى خداعاً منه فبجّه الله . فهمّ مولاي العمان بالمسير فقلت اني سائر معك والله لا ارحك لحظة فقال اري ان نقي عد نسائي خير من ان نذهب معي قلت اني فاعل ما تريد ولكني اري النساء آمنات في حى هاني . بن مسعود فأذن بذهابي . معك فأذن وكان نفسي حدثتني بخطر قريب فسرنا حتى اتينا المدائن فلقينا زيد بن عدي فتداهمت برؤيته ونحفت سوء قصه وكنت متعباً في ذلك لانه لم يكذب بلقانا حتى قال العمان « انجّ نعيم ان استطعت النجاة » فقال العمان « فعلتها يا زيد فولد الله ان عشت لاقتلك قتلة لم يقتلها عربي قط ولا حقتك بابيك » فضحك زيد لعنة الله وتوعده فعلنا انها حيلة اعدوا له ونحفت العمان ان الساعة قد دنت وان القضاء واقع لا مفر منه . فلما وصل الى كسرى أمر فقيدوه وبعثوا به الى سجن في خائفين^(٢) وكنت اتردد اليه في السجن خلصة وانا ارجو الامراج عنه اما هو فلم يكن يرجو نجاة



الفصل الثالث والستون

* السر *

وسرتُ اليو ذات يوم صباحاً فرأيتُ قد تغير حاله وامتنع لونه كأنه خائف من امر قريب ولا انسى منظر الرهيب في ذلك اليوم فوفقت انتظر امر فقال لي يا عبد الله قلت ليك يا مولاي

قال ارى ان اسر اليك امراً فهل تعاهدني على حفظه

قلت كيف لا

فدببك واعطاني هذا الرداء المزرکش (قال عبد الله ذلك وروع الرداء عن كتيبه ووضعه امامه) فاخذته منه ثم استخرج من بك خاتماً عليه اسمة واقية وهو هذا (وقد عبد الله بك واستخرج الخاتم من جيبه ووضعه على الرداء) وكان الحضور شاخصين يحسبون انفسهم اصغاء لما سيقوله عبد الله وتوقعاً للخطر القريب . وكان عبد الله قد تغيرت سمته واختنق صوته وتخلله ارتعاش زاد الحضور تهباً

ثم قال فلما تناولت الخاتم قال لي النعمان اعلم يا عبد الله اني في هذا السجن حتى ينتضي اجلي فيخرج ملك الحيرة من ايدي اللخبين لان عدياً هذا سيدل جهك في اذلالهم خوفاً ممن ينتقم لي ولا اعرف من اولادي من يصلح لرفع هذا المار عنا ولكن بين اهلي عند هاني بن مسعود زوجتي سمية وهي حامل وستلد قريباً فاذهب اليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها ان هي وضعت غلاماً ان تعهد اليك بتربيتي فتربيتي تربية رجال الفئال حتى يشب شهاً حراً واحذر ان تنص شعره او تخبر عن نسو قبل الحادية والعشرين من عمره فاذا بلغها قص شعره في دير بجيرا . واخبر عن نسو والبسة هذا الرداء وهذا الخاتم . . . »

ولم يكذبتم عبد الله كلامه حتى استولت البقعة على الحضور وخصوصاً حماد اذ خيل له انه في حلم وساعده على ذلك الوهم ضعف النور وهدو المكان وكانوا لا يزددون انفسهم الا وهم يحذرون ان يتعرض حديث عبد الله فلما وصل الى هذا الحد تحققت ان حماداً هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون اليه نظره الاحترام . اما عبد الله فحالما بلغ الي قولوه « والبسة هذا الرداء وهذا الخاتم » وقف على قدميه وجعل الرداء على

كنتي حماد والخاتم في اصبعه وامسكه بيده وانفضه واجلسه على المقعد الحجري وهم بنقيل بك
فنجعل حماد وجذب بك منه فقال له عبد الله لا تنجل يا مولاي انك الآن سيدي
ابن الملك النعمان وقد انقضى زمن والديه عبد الله . فجلس حماد على المقعد وجلس
عبد الله بين يديه وهم سلمان بيد حماد فقبلها وتأدب في مجلسه وهو يقول « والله كنت
ارى هيبة الملوك على وجهه من يوم عرفته »

١١ الرامب فانه على عجزه وقف ورفع بك فوق رأس حماد وباركة ودعا له
بطول البقاء وقبل رأسه . كل ذلك وحماد بحسب نفسه في حلم ولكنه فرح كثيراً
بما علمه من نسبه وودّ لو ان هنداً حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معه وخويل له ان
سعدك قد تمّ لانه ملك وسيقترب بملكه ويرث ملك غسان . وفيما هو يفكر في ذلك
تمض عبد الله فقال لم يتمّ حديثي بعد فهل تسعونه الى آخره
قال نعم

فمدّ بك الى جيبه واستخرج اسطوانة من النضة شخن الاصبع وخاطب حماداً قائلاً
وقد اعطاني مولاي النعمان هذه الاسطوانة واستقلني ان اسلمها اليك مخنومة بعد انام
الخبر فتفتقها في هذا الدبر ونقرأ ما فيها ونعمل به
فمدّ حماد بك فتناول الاسطوانة وهمّ بفهمها فامسكه عبد الله وقال لا تفعل قبل
انام الحديث

قال تنزل

فقال عبد الله : فلما أتمّ النعمان وصيته بكى وبكى وكنيت وكنيت كنت أحبس الدمع
نشيحاً له . فقال « اعلم يا عبد الله ان القضاء واقع قريباً فاحفظ بهذا المرحة حتى يأت
وقته اما اذا اخرجت من هذا السجن وعشت فالمسالة وجه آخر » . والاسف
يا سيدي انه لم يخرج من ذلك السجن فوفاء القدر فتوفي بداء الطاعون^(١) قال
ذلك وتمهد والدموع ملء عينيه فتنهد الجميع ثم قال

اما انا فسرت الى هاني واقويت والدتك سرية وكانت حاملاً فاسررت اليها ما كان
فاطاعت فانتظرت ربنا وضعت واكنها وأسفاه عليها لم تعش بعد الولادة الا قليلاً
فحملتك الى اهلي وارضعتك منهم حتى شببت على ما ترى

الفصل الرابع والستون

* وقعة ذي فار *

ولعلك تسألني عما تم من امر ودیعة والدك فاخبرك يا مولاي ان كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان ان اهله وماله وسلاحه عند هاني وفيه اربعة آلاف شكة والشكة سلاح الفارس كلة^(١) فكتب كسرى الي هاني بان يبعث الوديعة اليه فابي ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام وكان لكسرى عامل على عين التمر وما والاها الى الحيرة اسمها اياس بن قبيصة الطائي فدعا به اليه فجاءه برجاله فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل فاشار عليه ان يفعل فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على كتيفتي والدك وهما الشهباء والدوسر^(٢) وارسل معه جندا آخر بقيادة رجال من الفرس فكانت حملة تززع الجبال وفيها من الخيل والجبال والموتة والعدة مالا يحصى فلما سمع هاني بن مسعود بها سار برجاله للملاقاة فالتقوا في محل يقال ذوقار وكانت فيه وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشهر امرها في الاقطار وكانت الغلبة فيها لهاني ورجالها فانهم هزموا الفرس شرهزيمة وهي اعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام^(٣) وفرّ اياس الى كسرى فسأله عن الخبر فقال غلبت بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم ففرح كسرى به وامر له بكسوة ولكن اياساً خاف انفضاح امره قريباً فاستأذن بالذهاب الى اهله فاذن له فانصرف الى عين التمر ثم جاء رجل من اهل الحيرة الى كسرى وحدثه بهزيمة القوم فغضب منه كسرى فامر فترعت كتفاه ولم يصدق الا اياساً فولى اياساً الحيرة^(٤) كما تعلمون وقد ولي بعد رجل فارسي آخر ثم وليها احد اخوتك المنذر الغرور وهي الآن في ولاية اياس بن قبيصة^(٥) ولا تزال الوديعة عند هاني بعضها او كلها

وكان حماد قد ملّ الانتظار تشوقاً الى ما في تلك الاسطوانة فلما فرغ عبد الله

(١) ابن خلدون (٢) الاثاني (٣) الاثاني (٤) الاثاني جزء ثاني : ويقول

الطبري ان كسرى ولي اياساً الحيرة عند وفاة النعمان (٥) ابن خلدون

من حديثه نهض وقد اعياه التعب لثقة تأثره وذكرى دعائه وقال لحماذ الي
يا مولاي بالاسطوانة فدفعها اليه فالتبس من الراهب ان يباركها قبل الفتح فباركها فوقنا
جميعاً وتناول عبدالله الاسطوانة وعالجها بدمية حتى انتهت فدنا من مصباح منير بجانب
ايقونة ونظر الي ما في الاسطوانة وكلهم يتظالمون من جيبه وورائه ينظرون معه
فاذا فيها لنافه من جلد فاستخرجها ونشرها بين يديه فرأى عليها كتابة بالاحرف
الاسطرنجيلية وهي كتابة اهل العراق الى ذلك الحين فتخصصت ابصارهم الى ما فيها فاخذ
عده الله يلوها عليهم وهم يسمعون وهالك نصها :

« من النعمان نزيل دار البقاء الى ابني المندر المقيم بين الاحياء . اما بعد فهذا
كتاب كتبتُه واباني عالم الوجود وانت في دار الخناء وستقرأه بعد رجوعي الى عالم
الغيب وبروزك في عالم الاحياء . فاذا قرأته وقد وقبت نذرك وعرفت حقيقة نسلك
فاعلم ان عظامي تناديك . من ظلمة القبر وتستخلك بشرف اجدادك المناذرة من آكل لحم
ان لا تقرب امرأة ولا تشرب خمرًا حتى تنقم لايك من آكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك
فمالك مبارك انت ونسالك . وان لم تعمل فان رفاتي نرنعش حقًا ونفسي تتألم وهي
تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك وسجيته واياك موقوف تخاسب فيه
والسلام »

فلم يكده حماد يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائضه واي ارتعاد وقد رأى
مساعدته كلها ذاهبة ادراج الرياح على ان الحمية من الجهة . الثانية تارت فيه والنخوة
هاجت في رأسه وشعر بدافع يدفعه الى الاخذ بنار والده من آكاسرة الفرس وقد
استعظم المشروع وهاله الاقدام عليه فوقف مبهوتين لا يتيسر بينت شدة
فنظر عبدالله اليه يتنظر ما يبدو منه فلما رآه صامتًا قال له هذا هو السرياسيدي
قد اطعمك عليه فالتببت عن عانتي حملاً حلتني نيبًا وعشرين عامًا واما اخاف ان اقضي
نحبي قبل افشائه فانظر في ماذا تعمل

فقال حماد لقد القيت عنك حملاً اثقتني به وارجو ان اتوفى للقيام بما عهد
الي والله منجدي ونصيري . قال ذلك وتحنز للخروج من الصومعة فاقوته عبد الله
والتبس من الراهب ان يختم حديثهم بالصلاة فصلى وتضرع الى الله ان يساعدهم
على كتابان الامر ثم خرجوا وكان على رؤوسهم الطير لمول ما سمعوه ورأوه . واكثرهم

بغثة واندهالاً حماد لانه اصبح لا يدري ماذا يعمل أيسير الى هند يطالعها على سر وليس في ذلك السر إلا ما يوجب كدرها لانه حائل بينها وبين الاقتران الى اجل غير معين وان يكن في اطلاعها على حقيقة نسب حماد امر يسرها - ام يخاطب جبلة بالامر لعلة يشير عليه او ينجد - ام يأم العراق فينزل المدائن ساعياً في الانقام من كهرى - فلما فكر في مسيره الى هناك تهبب لعله بما يحول بينه وبين ذلك المرمى من العقبات فان الاكاسه ذوو بطش ومنعه - فسار الى الدبر وقضى ليله ساهراً لعظم نأثر وهو يفكر في طريقة تهون عليه المشاكل

الفصل الخامس والستون

* دولة الفرس *

ما برحت الفرس من قديم الرمان تحت سلطة مملكة اشور حتى تولى هذه المملكة الملك سردنول في القرن الثامن قبل الميلاد وساء حكومتها وانشغل عن سياسة مملكته بجالسة النساء واللبو على انواعه فابغضته الرعية وودت لتخلص منه فانفق كبيران من قواده على اخراج الملك من يده وهما ارباسيس قائد عسكر مادي وييليزيس قائد جند بابل فاتحدا على العصيان وحاديا ملكهم فحصراه في نينوى فلما أيقن بالهلاك احرق قصره بما فيه من المال والناس وهو في جملتهم سنة ٧٦٠ ق م وهكذا انقضت مملكة اشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها ارباسيس وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون والمدبرون او الجهلاء والظالمون ومن اشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة فافتتح بابل وما بين النهرين وارمينيا وسوريا واسيا الصغرى وجانباً من بلاد العرب وتولى بعده ابنه كبير ففتح مصر على زمن الملك اماسيس من فراعنة مصر ثم تولى داربوس ومن جاء بعده ولم يحسنوا السياسة فتفقرت المملكة واخذت احوالها - فلما ظهر اسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع ببلاد فارس ففتحها وقهرها واستولى عليها ولكن عمر اسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكته فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس ولم يطل حكمه فغزا

الفرثيون بقيادة ارساسيس الاول وما زالت في حوزتهم خمماية سنة
فانف الفرس من رضوخهم للنير الاجنبي فناروا سنة ٢٢٦ م بقيادة رجل منهم
اسمه اردشير فطرد الفرثيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ الفارسي هي الدولة
الساسانية ومنهم كسرى انوشروان الملقب بالملك العادل وهو اعظمهم وصار لفظ
كسرى لقباً لكل من ملك بعده منهم فعرفت دولتهم بالملوك الاكاسرة
وكان مقام الاكاسرة في المدائن وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر
عظيم طار ذكره في الآفاق سمي الابوان ويعرف بابوان كسرى

وحكم (انوشروان) ٤٨ سنة وخلفه ابنة هرمز وكانت امه ابنة ملك النتر
واستأذه الحكيم بزرجهر وكان وزير فسارت الاحكام في ايام هذا الحكيم على مثال
ما كانت في زمن انوشروان فلما توفي بزرجهر انغمس هرمز في الشهوات واهمل
شؤون المملكة فعصاه الولاة وغزاه ملك النتر فنصه قائده اسمعيل بهرام كان
آية في الدهاء والذكاء فطرد النتر من البلاد ثم تحوّل الى محاربة الرومانيين فوشى
بعض المقرّبين من البلاط الملوكي فظهر له هرمز بعض الاحتمار فاستشاط
بهرام غيظاً وجاهر بعصيان الملك وخلعه وولى بعده ابنة كسرى برويز وكان صبياً
صغيراً تساعد على قتل ابيه ببعض اقربائه فلما خلع الحكم له طمع بهرام بالملك ففرّ
برويز من وجهه واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد واسمه الامبراطور موريس
فانجده ورد الملك اليه ففرّ بهرام الى بلاد النتر فاحسنوا وقادته ولكن الخيانة لحقت به الى
هناك فمات مسموماً

واستبد كسرى برويز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس لانه
هو الذي رد الملك اليه فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات صديقه المذكور
عاد الى مناواة الروم فاثار عليهم حرباً عواناً فغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس
فعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صلب عليه وكان في حفرة
بصندوق من الذهب فحملة الى المدائن وكان برويز مع ذلك ملكاً خاملاً مترقاً منغمساً
بالملاهي الى ما يفوق طور التصديق حتى قيل انه تزوج ١٢ الف امرأة واقتنى خمسين
الف جواد وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية الغراء يدعوه فيه الى
الاسلام

كالكتاب الذي جاء الامبراطور هرقل في بيت المقدس فاحترق برويز ذلك الكتاب واساء حامله

ثم مالت برويزان علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده ولم يقوَ على دفعه .
فما زال هرقل هاجماً واهل انقري يفرون من امامه حتى وصل المدائن وبرويز لاه
بقصر ونسائه فلما احسن بقرب الخطر قرأ فقم عليها ابنة شيرويه فتغلة وحكم مكانه
سنة ٦٢٩م ولكنها لم يحكم طويلاً فخلت سواه وسواه وفي سنة ٦٣٠م تولى تخت مملكة
الفرس فتاة من آل ساسان اسمها بوران دخت ابنة كسري برويز وفي ايامها هجم
هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحملة الى القسطنطينية وحكمت بعدها اختها
آزرميدخت سنة ٦٤٢م (٥١٠). واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسومة
ولما قصة بطول شرحها وملك بعدها ملكان لم يطل حكمها واُخبراً افضى الملك
الى بزدجرد بن شهريار بن كسري وفي ايامه فتح العرب بلاد فارس

الفصل السادس والستون

* المدائن *

في عاصمة اكاسرة الفرس ويسمونها اليونان كتيبيون ويسمونها الطبري
طيسون والغالب ان كتيبيون قسم من المدائن وادانت على مسافة عشرين ميلاً من
بغداد جنوباً على الضفة الشرقية لدجلة يقابلها في الغرب بلدة اها كوش^(١) يعتبرها
بعضهم من ضواحي كتيبيون بينها جسر عظيم مبني من اسفن وكان يجوار ذلك
المكان ايضاً آثار مدينة يونانية اسمها سلوقية نسبة الى سلوقوس خليفة الاسكندر هناك
وقد سميت هذه الاماكن بجملتها المدائن^(٢) (جمع مدينة) . واصل بناء المدائن
انه كان في مكانها حصن كبير يسمى حصن كتيبيون كان البرطيون (الفرثيون) ابان
سلطانهم على العراق يقيمون فيه اثناء الشتاء لصفاء الجو هناك وكان يجوار الحصن

(١) جينس (٢) المعجم

مدينة سلوقية الشهيرة ثم اخذوا بينون حول الحصن المنازل والحدايق فلم يأت تاريخ الميلاد المسيحي حتى بنيت هناك مدينة سميت باسم الحصن^(١) كما جرت العادة في مثل هذه الحال وظلت المدائن مقام الأكاسرة في زمن النشأة . وكانت محاطة بسور متبع عليه الابراج والقلاع يزيد مناعة مياه دجلة من جهة والآجام والمستنقعات من الجهات الاخرى فاصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستعمل وصول الاعداء اليها قبل ان تمزقهم نبال الفرس من الاسوار وقد كان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينها اسمها نهر ملكا ومعناها بالكلدانية نهر الملك تسهل نقل السفن بين النهرين^(٢)

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلمٌ ممتد بطول الضفة يصعد عليه الناس من النهر الى المدينة بدرجات متباعدة مبنية من الحجر ويسمى هذا السلم باصطلاح اهل تلك البلاد « مسناة »

وترسو عند المسناة سفن الفرس مئات والوفاء حتى تخال سواربها غابة من الاعمدة تناطح السحاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل وشكل السفن يذبه شكلها في العراق الآن فانها مبتورة المؤخر كانتها قطعت بسكين قطعاً عامودياً فصارت عريضة ملساء واما مقدمها فانه يصعد مستدقار ويداً رويداً حتى اذا انتهى الى اعلاه انحنى على نفسه نحو المقينة على شكل المنجل فتخال تلك السفن اذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد ادبرت مفادها نحو المدينة انها سيوف عتفانة يجملها جمد من الحرس يحملون المدائن

ولو اطلت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لجيل لك انها غوطة فيها البساتين وانغرس بيوتها القصور والنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الابيان كأنه ملك شيبان الشان تحف به الخدم والاعوان



الفصل السابع والستون

* ايوان كسرى *

هو قصر باذخ يسمونه ايضاً الطاق جرى اسمه على السنة العرب بقلامهم مجرى الامثال بالعظمة والغامة حتى عدوه من المباني العجيبة بناه سابور ذو الاكتاف وهو سابور بن هرمز^(١) في القرن الرابع للميلاد^(٢) لكنه يعرف باسم ايوان كسرى انوشروان . قضى سابور في بنائه نيفاً وعشرين سنة^(٣) اقامه في وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لا يجول بين الايوان والنهر الا الحدائق والسماطين تنتهي عند الضفة بالمسناة المنقوشة ذكرها ويحيط بالايوان جملة حديقة واسعة فيها الاغراس والازهار والرياحين والشجر من الازدرخت والليمون وغيرها . ويحيط بالحديقة سور مبني من الآجر له ابواب عليها الحرس بقلائمهم وانراسهم ورماحهم وفوق الابواب رسوم فارسية منقوشة طبعاً على الطين وهو في كماله كان يعمل الاشوريون في آثارهم^(٤) . وعلى جانبي الباب الاكبر المطل على المدينة تماثيلان كبيران يمثلان الثور الاشوري المنجخ برأس انسان طويل اللحية متوج الرأس^(٥) وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الاقبال وفيه بعض الفيلة المربعة لركوب الاكاسرة . وبين ابواب الحديقة والايوان طرقات مرصفة بالحصى الواطأ على شكل النسيفساء يتألف من ترتيبها بعضها بازاء بعض رسوم تمثل اموداً وادميين وفرساناً ومركبات عليها الملوك والقواد يجردون في صيد الاسود نغمة رسوم ملوك اشور اسلاف الفرس ما بين النهرين واكبر تلك الطرقات واوسعها طريق ممتد من الباب الكبير الى باب الايوان بصطف الى جانبيه الحرس عند دخول كسرى الى الايوان

واما بناء الايوان فعباره عن قاعة كبيرة طولها مئة ذراع وعرضها خمسون^(٦) مبنية بالآجر والحصى سقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش ويصعد الى ارض الايوان بدرجات عند بابو . وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة

(١) الابشيعي بالمستطرف (٢) ابو الفداء (٣) الابشيعي (٤) رولتسن

(٥) انسيكلويديا الكسندر (٦) الابشيعي

بجانب عرش كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام وإلى جانبي العرش
عجائب الاعوان ومرازيم ووجدان الايون وسقفة مزينة برسوم بدیعة في جملتها صورة
آري انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وايات من شعر مكتوب بالحرف
الاراني الذي كان يكتب به الفرس قبل الاسلام وفي سقف الطاق رسوم الافلاك
والايراج والنجوم من ذهب منزلة في قبة زرقاء

وكان للايون شرفات مزخرفة بالنقوش تشرف على الجهات الاربع قائمة على
اعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطاق من جهاته الاربع طول الشرفة الواحدة
خمس عشرة ذراعاً وقد ادخل في بناء الايون من الذهب ما ربما زادت قيمته
على مليون دينار^(١)

وباب الطاق كبير نقش على عتبة العليا رسم الشمس مذهبة وإلى كل من
جانبي ابواب شمال اسد كانه يمشي وعيناه تتلألآن والاسدان مصنوعان من الرخام
معليان بالذهب وفي موضع العينين منها زردات زرقاء بدیعة الشكل . واما عتبة
السفلى فهى منوعة من الرخام المرمر . ولا يخلو باب الايون من عشرات من الحرس ولا
يخلو منس الاكاسرة من مئات من العلماء^(٢) بين كاهن وساحر ونجم ويسمى
الطبري الخزاء . فضلاً عن الحجاب والحراس والبطالين

هذه كانت حال الايون عند ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد

الفصل الثامن والستون

* أنس أم جان *

فلندع كسرى وابوانة ولنعد الى حماد وهو اجسود فقد تركناه في دهر مجبراء غارقاً
في لبحج الافكار تتنازفه العوامل بين المسير الى العراق او البقاء في البلقاء وكلا
الامرین شاق وكلما تصور مسير الى مدائن كسرى هاله موقفة موقف الخصم امام ملك
الفرس وعظم عليه الانتقام منه وهو فرد وذاك سلطان يصنع الجند والاعوان ولم يكن

ذلك ليهولة أو يكبر عليه لولا امر هند وتأجيل الاقتران ولقد كان ميالاً كل الميل لاطلاع هند على ما كشف له من نسبه مع ما جدّ من امر التأجيل لهرى ما يبدو منها ومن والدها ولكنه تربص ريثما يتخذ الى ذلك سبيلاً لا تقاً . فلما تلبدت عليه المشاغل وضاق صدره خرج من غرفتو ولم يعلم عبد الله ولا سلمان بخروجه وسار يلتمس مندراً يخلو فيه بنفسه لعلة يتوفى الى رأي يخفف قلته . وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فلاحت له اكمة على بضعة اميال منه فركب وسار نحوها وفيما هو في الطريق غاب وجدانه بما اجندب انتباهه من الشواغل فصار الجواد حينئذ وحامد لا يعلم فلم ينبيه الا وهو في سفح جبل فالتمت الى الوراها فاذا ببصرى والدبر قد غابا عن بصره ونظر الى الشمس فراها مائلة نحو المغرب فوقف يفكر في ماذا يفعل أيعود الى بصرى حالاً ام يجلس هناك هنيهة فنظر الى ما حوله فاذا هو في واد بين جبلين اجردين كسائر جبال حوران^(١) فترجل وقاد جواده صعداً يلتمس قمة احد الجبلين لعلة يشرف منها على بصرى فيعرف جهتها منه ومنى عاد اليها آمن الضباع وفيما هو صاعد حانت منه التفاتة الى الجبل المقابل فرأى كهفاً تحت يد الطبيعة في سفح ذلك الجبل ولاح له شبح يتلصص بين الصخور هينته بين الادمية والوحشية لطول شعره وعريه فوقف حماد ينظر الى ما يبدو منه فما لبث ان رآه يهرول نحو الكهف حتى دخله وتطارى

فقال حماد الى استطلاع حقيقة ذلك الشبح وتحوّل نحو الكهف بقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكان صوتاً غير صوت وقع اقدامه وقرقعة حوافر جواده تدوي في انحاء ذلك الوادي ويتخلل الدوي طنطنة حجارة تندرج من مواقع حوافر الفرس منتزجة بصوت صهيله . فنزل الوادي ثم همّ بالصعود حتى اذا صار على مقربة من الكهف رأى صخراً يتدحرج نازلاً نحو فقعول من طريقه وعلم انه انما دحرج من الكهف عليه فلم يبال ولكنه ازداد ميلاً الى معرفة ذلك الشبح فما زال صاعداً حتى دنا من الكهف فاذا بصخر آخر يتدحرج فنادى باعلى صوتو « لا ترنبا الحجارة فلسنا براجعين من هذا المكان قبل الوصول اليو » فردد الوادي صدى كلامه واضعاً فانهيب من موقفه وزاده تهبباً قرب غروب الشمس واخنلاط الاظلال حتى كادت تحول الى ظلام فدعمر

اذ ذاك انه اساء عملاً بهجبتوا الى ذلك المكان الموعر مع ما آتته من الوحشة والمناومة
ولكنه تجلد وتمهد سلاحه فاذا هو مقلد الحسام والخنجر ثم ما لبث ان وصل الى باب
الكهف فظهرت له مغارة لا يرى آخرها لعمقها ولا يستطيع الدخول اليها والفرس
معه فوقف وحقق ببصره الى الداخل لعله يرى احداً فلم يقع نظره على شيء حتى فصاح
قائلاً « من يقم في هذا الكهف فليخرج الينا لاننا غير مغولين عنه قيل ان نراه ولا
خوف عليه » قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبة لسكون الطبيعة سكوتاً لا يتخلله تغريد
طائر ولا نقيقه ضفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حتى اوجامد
غير صهيل الفرس ووقع حوافره . فهم حماد بسند الجواد الى صخر والدخول الى المغارة
بنفسه وفيما هو بهم بذلك ظهر له شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لاقداؤه
وقع فثبت حماد قدمه وتحنز للدفاع اذا اقتضت الحال . فلم يكذب يفعل حتى وصل
بذات الشبح اليه فاذا هو رجل عار يكسوه شعر رأسه المسترسل الى قدميه وقد تمكن
به الشيب فايض على ان الكبر لم يغير شيئاً من اعتدال قامته ورشافة حركته وحنة
بصره وان يكن جلد وجهه قد تجعد وشعر حاجبيه وشاربيه قد طال وشعر صدره
اصبح لغضو وبياضو كانه زبد الصابون . وطالت اظافر يديه ورجليه حتى التفت
على نفسها

فلم يكذب نظر حماد عليه حتى هاب منظره ولو لم بر في بك صليباً كبيراً المنبل
له انه من مردة الجان ولكنه ادرك لاول وقلة ان الرجل ناسك من نساك تلك
الايام انقطع عن العالم واوي الى الكهوف التماساً للعبادة وكان قد سمع بكرامة
هؤلاء وصدق نظرهم في عوالم الامور فلاح له ان يخاطبه في ما هو فيه ويستشيره
في امره لعله يخفف شيئاً من قلقه فتقدم نحوه باحترام وهم يتقبل الصليب في بك
فادناه من فوقه فبأية ثم خاطب الناسك قائلاً « الملك ناسك مقيم في هذا المكان »
فاجابه الناسك بحني الرأي ان « نعم » فقال هل تأذن لي بمحادثة ابئك فيها بعض
ما في ضميري على سبيل الاعتراف فتشبر علي بما يوحى به اليك الروح القدس
فاجاب الناسك بالاشارة انه لا يستطيع التكلم الآن لان من شروط نسكه ان
يصمت اسبوعاً وينطق اسبوعاً وان آخر اسبوع الصمت ينتهي الليلة فاذا جاء في
الغد خاطبة . وكان التنسك شائعاً في تلك الايام والنساك انواع منهم من ينذر الصمت

طول الحياة او بعضها ومنهم من ينذر العري او الجوع او السهر اياماً ومنهم من ينذر المعيشة على عشب الارض وهو لاه فتنة كبيرة كانت بين النهر بن سُموا « النساك الرعاة » فيقيمون في المغر والكهوف المظلمة (١)

وكان ناسك حوران هذا ممن نذر الصمت اسبوعاً فسرَّ حماد بن جليل المقاتلة خوفاً من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقة في عودته لندة الظلام . فقال له الـ آي اليك معي بطعام او نحو من بصرى فاجاب (لا) لانه من النساك الرعاة الذين يعيشون على عشب الارض

فقال له ولكنني أرى الارض هنا مجدبة لا عشب فيها
فاشار للناسك بيده الى مكان وراء ذلك الجبل فيومرعي
فسأله عن سبب رميه بالحجارة وهو صاعد . فاجابه لعلوا انه لا يمتطعم معاطبة
قبل انقضاء اسبوع الصمت

فقال حماد واين الطريق الى دير بجهراء فدلته على طريق سهل غير الذي جاء منه فودعه وقبّل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل الى الطريق فركب وسار قاصداً الدير فرأى عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقوا لغيابه على غير موعد
فقال له عبد الله لقد شغلت باننا بغيا بك على غير انتظار

فلم يبدأ حماد اطلاقهم على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمان ربهما
بسمع كلام الناسك فيطلبهم على الحكاية كلها

فقال لم خرجت على فسي فسرت بيقاع لم اكن اعرفها فاخطأت الطريق في رجوعي فطال لي المسير

فقال عبدالله وما الذي حماك على الركوب منعدداً . فكبر عليه الاقرار بقلبه وتهيبه من الامر فقال خرجت لترويح النفس

فادرك عبد الله حالة تماماً ولم يبدأ ان يشط عزيمته ولا ان يزيد قلقه خوفاً عليه من اليأس فقال له ارى سبدي في اهتمام وقلق وما في الامر ما يدعو الى ذلك ولا نحن في سرعة او ضجر

فظل حماد صامناً مفكراً فادرك سلمان ان في نفس حماد كلاماً ربما لا يريد

النصريح بو على مسبح منه فنظاها بامر يهبة خارجاً وترك الغرفة فلما خلا عبد الله وحماد
قال عبد الله ما بال سيدي لا يبع بسره السم شريكك في أمرك
قال بلي بل انت بمنزلة والدي ولا اخفي عنك شيئاً فاني في قلق وارتابك واراني في
حاجة الى من يفرج كربتي برأي او مشورة ومسالمتنا في ما تعلم من الدقة والخطر
فقال عبد الله هلم بنا الى الراهب الشيخ الذي شاركنا في سرنا لعلة يشير علينا
بما يفرج كربتنا

قال هلم بنا اليه

وخرجا حتى اتيا غرفته فدخلوا عليه وكان متكئاً فجلس ورحب بهما فجلسا
ثم قال عبد الله انك يا مولاي شريكنا في سرنا وعالم بما في ضميرنا فهل تشير علينا
بما يخفف عنا

فقال الراهب ان المسألة في غاية الدقة والملففة وقد ادركت عظمها منذ سمعتها
ولا ادري بماذا اشير . قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هب من مجلسه بغتة وقال
أرى ان تذهبوا الى ناسك حوران فانه يقيم في كهف على مقربة من هذا المكان
فصاؤه ان يشير عليكم مشورة خير

فيضت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال هل نظننا قادراً على ذلك

قال نعم يا سيدي انه من اوتي علماً وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة

فقال عبد الله لحماد وهل عرفته قبل الآن

فقال اعترف لك اني وصلت اليه اليوم بطريق الاتفاق وخاطبته فاجابني
باشارة يدي انه لا يستطيع التكلم الا في صباح الغد لانه ممن نذروا السكوت اسبوعاً
والكلام اسبوعاً

فقال عبد الله فلنذهب اليه غدًا ان شاء الله فهل ترافقنا يا حضرة الاب المحترم
الى مغارتو

فقال الراهب يا احبذا لو استطعت المسير اليه معكما ولكنني شيخ لا اقوى على
المشي ولا الركوب والطريق وعراً فسيرا اليه بحراسة الله ودعوني اقيم هنا اصلي
واتضرع اليه تعالى ان يسهل سبيلكما
فودعاه وخرجا

الفصل التاسع والستون

* ناسك حوران *

واصبح حماد وعبد الله في الغد فقال حماد لا نصطب سلمان في مسيرنا الى الناسك
قال عبد الله لا ارى ما يبع ذلك وسلمان كما تعلم اكثر غيرة علينا من غيرة
احدنا على الآخر ولا اخالنا نستغني عنه في ما نحن فيه ولا يلبق بنا وقد صحبناه اعواماً
خدمنا بها خدمات جمّة ان نخني عنه امرأ نجربو

قال حماد ذلك ما اراه . وبعثا اليه فصحبها وخرجوا في الصباح على افراسهم
وحامد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل واطأوا على الكهف فقال حماد هذا هو الكهف
وكأني ارى الناسك في انتظارنا عند بابو

فنظر عبد الله حتى اذا وقع نظره على الناسك تهيب من منظره عن بعد وصعدوا
فلما دنوا من الكهف تمخض الناسك للملاقاهم وكانوا قد ترجلوا وبشط نحوه فقال اهلاً
بكم ومرحباً واخذ يتنرس فيهم واحداً واحداً بعينين براقبتين تحت حاجبين بارزين
بروز الطيف حتى يخال لك ان العينين في حفرتين عميقتين

فقال حماد مرحباً بك ايها المتמיד الذي لقد جئناك عملاً بوعدك وهذا والذي
(واشار الى عبد الله) وهذا صديقي (واشار الى سلمان)

وتقدموا جميعاً وعبد الله ينظر الى وجه الناسك كأنه يعرف وجهها مثله
وكان الناسك مشتغلاً في اعداد احجار يجلسون عليها وهو ينظر امامهم عارياً وشعره
مستتر على بطنه بعضه فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر اليه الا خلسة
فلما اعدوا الحجارة تقدموا اليه وقبلوا يده فباركهم وجلسوا . اما هو فجثا على التراب
بجبهته المستريح وجمع شعر رأسه ولحيته في صدره الى حصى واخذ يرحب بهم ويعتذر
لعدم امكانه القيام بحق ضيوفهم

فقال عبد الله لقد جئناك نلتبس بركة لا ترحاباً فقد بلغنا أنك من رجال الله

المخنارين فنظر منك تغيبنا عن اناث النصور . قال ذلك وهو ينعم النظر فهو لعلة
يذكر الوجه الذي يشبهه

فقال الناسك اني احقر عباد الله فاشكر لحسن ظنكم لي وما تكبدتموه من
المثقة في زيارتي فابسطوا في انفسكم لعل استطاع بمشيئة الله ان اخدمكم خدمة
لجده تعالى

فقال عبد الله اننا من الطائفة النصرانية الذين يعتقدون بكرامة الناسك عباد
الله ومنتقد انهم ينطقون بوحى منه تعالى وقد جئنا لنظلمك على سرٍ لم يطلع عليه
احد سوا ما وراهب مقيم في دير بجبراء . والسر ذو خطر يستلزم اصفاءا وكتباتا ونحن
معاشر النصارى نعلم خطارة سر الاعتراف وما فروا ما يدعوا الى الفقة الزامة باموالكم
فقال الناسك قل يا ولدي ولا تخف

فالتفت عبد الله بينا وشيلاً كأنه يحاذر ان يسمعه احدًا وقال بظهر لي انك
من اهل العراق

قال الناسك لقد اصبت المرعي نعم اني من اولئك . وما الذي دلك على ذلك
قال دلي عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيل لي انك من الناسك الرعاة
وم كثيرون في العراق (١)

قال نعم يا ولدي اني كما قلت

قال فوالحالة هك قل لي هل تعرف الملك النعمان بن المنذر
فلم يكده عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغنة على وجه الناسك وابتقت
عيناه واقطب حاجباه واجاب وهو يدرأ ببعته ويحدق بعينه « نعم اعرفه »
فغيب عبد الله لتلك المظاهر والكمة تجامل وقال هل تعرفه معرفة جيدة ام تسمع
باسمه واخباره فقط

فقال الناسك (ويك في لحيتي وشطها باصابعي) لا بل اعرفه كما تعرف ولدك هذا
فلم ذلك بصوت مخدق حتى خيل لم انه يكي

فقال عبد الله اراك يا سيدي قد اهتمت لحكايتنا من اول كلمة قلناها
فتهد الناسك وبن الى عينيه ومسح بها دموعه وقال ان ذكرى الملك النعمان

مهبج اشجاني وتفتت كبدي فهل بهمك من امر ما فني ام جاء ذكرك على لسانك عرضاً
قال بل هو محور حكايتنا ومرجع سرنا رحمة الله
وكان حماد وسهان شاخصين بعجبان لما بيدو من الناسك وعبد الله يزاد
استناساً بطلعتو ولكنه لم يدرك ما الذي يدعوه الى ذلك
فقال الناسك قل ما تولة عن النعمان في ارتاج الى ذكره ولكني انا سفت لذكري
عاقبة امر

فقال عبد الله اذا كان النعمان بهك الى هذا الحد فانظر الى هذا الشاب وقل
لنا هل تعرفه (وإشار الى حماد)
فمسح الناسك عينه ونظر الى حماد وجعل يتفرد فيه ولم يكذباً ملة حتى صاح
باعلي صوتاً «أنا ابن النعمان لا شك فيه» وهم به وضمة وأخذ يقبله
فحنقت قلوبهم وبكوا جميعاً والناسك ضام حماد الى صدره يقبله ويبكي
فازداد عبد الله استغراباً للامر وقال للناسك لقد اذهلنا بما بدا منك فكيف
تقول انه ابن النعمان وقد كان النعمان ابرش احمر^(١) وهذا امر ادعج
قال لا عبرة في ذلك فان ملاح النعمان قد تثلث فيه وهو الرجل الذي رغبت
عن العالم وانقطعت الى هذه الجبال من اجله
فبهتوا لهذا القول ولم ينهمل مغزاه فاراد عبد الله ان يستطلع حقيقة الخبر فقال
وهل تعرف الذي يكلمك

فنظر الى عبد الله نظر المنأمل وقال الملك صديق الملك النعمان وشريكه في
مصابه «شعون المحيري» وكان هذا اسم عبد الله المعروف به اذ ذاك
فاندلجوا جميعاً وخصوصاً عبد الله فانه اعاد نظره الى الناسك وازداد استناساً
به واكنه لم يذكر كيف عرفه فقال اما وقد علمنا انك شريكنا في الامر فاخبرنا من
انت وفرج كرتنا

فصعد الناسك الزفرات وقال اما انا فاني القس الذي ارتد النعمان الى الصرامة
على يدك^(٢) بعد ان كان اسلافة قد نبذوها وعادوا الى الوثنية او الجوسية
ديانة النرس

فاتبه عبد الله من غفلتو كأنه افاق من رقاد وقال العلك النفس يعقوب
قال نعم وقد كنت مقيماً في دبر هند الكبرى المنسوب الى هند بنت الحارث بن
عمر بن حجر آكل المرار وهو في ظاهر الحيرة وكانت هند هناك كما تعلمون قد ترويت
في نفسي باسمها^(١) ولكنني كنت اختلف الى النعمان كثيراً ويطلعني على اسراره حتى
كان ما كان من امر سجنه في خاتنين فخرجت الحيرة وسرت الى هناك وجعلت اتردد
اليو في السجن . ألا تذكر انك كنت تراني هناك

قال اذكر ذلك جيداً وما زلت منذ رأيتك الآن وأنا في افكر فيه . ثم هم عبد الله
يو وتعاونا وما يبكيان اما الناسك فتقول نحو حماد وضمة وجعل بقيلة ويكي وهو
يقول احمد الله اني رأيتك قبل موتي
وليتوا برهة صامتين وكل يبكي ويمسح دموعه بكوا الا الناسك فقد كان مسحة
بيطن كفو

ثم قال عبد الله اقص علينا بقية الخبر يا حضرة النفس المحترمة
قال كنت اتردد اليو في السجن اصلي له واباركة وادعوه له وكان كلما اجتمعت
يو يقول والاهتمام ظاهر على وجهه « ادي سرّاً أطلعك عليه في فرصة أخرى »
فاهتمت لمعرفة ذلك السرو كنت اتوقع ساعه في كل زيارة وهو يسوّف وكنت
كلما سرت اليو رأيتك وعجبت لدهانتك وغبرتك عليه . فساءلته عنك يوماً فقال
انك مستودع اسراره وانك يثق فيك وثوقاً تاماً . وما زلت اختلف اليو حتى اصيب
بمرض ظنوه الطاعون ولا اظنه اياه . فزرته ولم تكن انت ساعتئذ هناك فقال لي
اراني ان انقه من مرضي هذا واعل القضاء سبعا جاني واخاف ان لا املك فرصة
اخاطبك بها . فقلت قل يا سيدي ولعل الله شافك باذنو وبركة ابو . ثم بكى
وبكيت (قال الناسك ذلك وختمته العبرات والجيبع سكوت يصغون الى خبير
يتناولون باعناقهم ويحدقون بابصارهم في شفتيه وما ترنخنان من شدة التأثير)
فسكت الناسك برهة ريثما استرجع قواه . ثم قال فامسكني النعمان رحمة الله بيدي
وادناني منه واسرّ الي امرأ خطيراً قال انه اسرّه اليك ولا ادري هل يجوز لي
النلظ يو وهو سر الاعتراف

فقال عبد الله لقد قلت اني عارف بؤ فلم بعد من قبيل سر الاعتراف وقد
اطلعت ابنة ورفيقنا هذا عليه

فقال الناسك اما والحال على ما تقول فاخبركم انه ادنا في منه وهو جالس على
فراشه في ذلك السجن وقال « اني سأقضي نحبي هنا ظلماً من قوم لا يعرفون الله ولا
يلتفتون على انسان وسأترك اهلي واولادي بدون ان اراهم وارودعهم واني عالم ان
سلطان الحيرة سيخرج من بني لمخ بعد موتي فاسررت الى شعون ان يرني ولدآ لي لم
يولد بعد وان يكتم نسبة عنه حتى يبالغ المشركين من عمر فينص شعون في دبر بجيرا ثم
يطلعه على حقيقة نسبه قال واعترف لك اني حرضت على ان ينتقم لي من دولة
الفرس » قال الناسك فلما سمعت كلامه اقتضت بدني واستعدت بالله من ذلك
كله وقلت « يا سيدي الملك اراك تستعمل الاجل وليس ما يدعو الى قربه
واما الانتقام فاتركه الى الله سبحانه وتعالى وهو الدبان العظيم » فاجابني والدموع
تخفق « لقد قضى الامر يا ابتاه وعهدت بذلك ولا ارى الرجوع عنه والله يقضي بما
يشاء » قال النعمان ذلك واختلج صوته وارعدت فرأيت ثم غاب صوابه وقيامه في
ذلك جاء السجن بشدد التكبر على من يدخل الى النعمان فخرجت ولم اعد اراه ثم ما
لبثت ان سمعت بانتقاله الى دار البقاء (قال الناسك ذلك وتهد) وعلمت واحسرتاه
عليه انه لم يمت بخاتمين بل نقلوه الى ساباط فمات فيها (١)

فلما سمعت ذلك كرهت الدنيا وتحققت فناءها وزدت زهداً فيها فانجأت الى
النسك واخترت منه اكنة زهداً وهو هذا الذي انا فيه اعيش على نبات الارض
وامكك عارياً كما ترون وكنت مقياً في العراق مع رفاق كثيرين من الرهبان وذكر
النعمان لم يبرح من ذهني يوماً واحداً وصورته نصب عيني وهو على ذلك الفراش في
خاتمين وما زلت اردد كلماته الاخيرة . فاحببت الاطلاع على ما فعلته انت من هذا
القبيل فلم اعرف مقامك ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاته ولم ارك ولا عرفت
مترك قلت لعلمك نقيم في البقاء بالقرب من دبر بجيرا لأجل وفاء النذر عند حلول
المهاد . فجمت واقمت في هذا الكهف وفي نفسي شيء لا اريد ان اطالعك عليه فلم اسمع
عنكم خبراً ولا انا استطعت البحث لانقطاعي عن الناس فضلاً عن اني لم اكن اعرف

اسك الحديد فكنت اتوقع ان اسمع خبراً عن شعوب المحبري فلم اسمع هذا الاسم قط

الفصل السابعون

* انذر القاتل بالقتل *

قال عبد الله وما الذي في نفسك وتريد ان تطلعي علي . قلة
قال هو خبر يتعاق بوضيعة النعمان لك ولا بد فاحك لي ما تم معك من قبيل
النذر هل وفيته واطلعت هذا الملك على حقيقة نسبو
قال عبد الله نعم يا مولاي لقد وفينا النذر بعد مبعاده . واحكي له القصة من
اولها الى آخرها حتى آتي على . سب عبيتهم اليو فقال وقد جئنا اليك لهظم ما قام
في نفس مولانا الملك من الانتقام في امر الانتقام فقلنا نطلع ناسك حوران على هذا
السر لعله يشهر علينا مشورة تخفف ما بنا . او تهدينا . هيلاً مستقيماً
قال الاسبك لقد وقعتم على خيبر وان في بقية قصتي ما يفرج عنكم كل كرب
ان شاء الله

فاستبدر عبد الله وحماد ووليدان بافراج الازمة وسرروا لندومهم على هذا الاسبك
فقال عبد الله اخبرنا ببقيّة قصتك بورك فيك
قال كنت لفرط اذتامي في امر الملك النعمان وامر وصيته وما تتضمنه من الحث
على الانتقام لا ابرح افكر في هذا الامر نهائياً واحلم بو اربلا حتى استيقظت ذات صباح
والانس يقعدون بامر كسرى برويز قاتل النعمان . وان ابنة شهبوبه تاامر عليو
وتجئة فقلت في نفسي هك عاقبة القوم الظالمين . ثم ما لبثت ان سمعت بانة قتلة (١)
فما عنبرت بمكة الله سبحانه وتعالى وشعرت براحة فيت ليلة ذلك الخبر وانا هادس في
عاقبة الظالمين وقول القاتل « وانذر القاتل بالقتل » . فرأيت في منامي كأن الملك
النعمان قادم الي بلباس ناصع البياض ووجه منير باسم فغضمت ارويتو على ذلك الصورة

ثم سمعته يقول « لا نجيب يا يعقوب لمنزل برويز الجوسي فقد أعد له الله ما هو
اعظم من ذلك ليعتبر الظالمون »

فقلت وقد بهرني نور وجهه فاطرقت « وماذا عسى ان يكون اعظم من الموت
فقلنا بسيف البين »

فقال لي « سوف ترى وكل آت قريب » فرفعت نظري لأراه فغاب عن
بصري واستهبطت من منامي مذعوراً ولم تض بضع سنوات حتى وقع في سلالة
برويز ما لم نسمع بمثله في غير الازمان . اندرون ما هو
قال عبد الله وماذا تعني

قال كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولداً كلهم ذوو ادب وشجاعة ومروءة منهم
شهبويه الذي تولي الملك بعد فوشى رجل اسمه فيروز لشهبويه على اخوته السبعة عشر
فامر بقتلهم جميعاً^(١) فقتلوا صبياً في ساحة الابوان وهو ينظر اليهم ولكن شهبويه
لم يهدأ له بال بعد عماله هذا فان أخته بوران وآزر مبدخت وبخناه توييخاً شديداً
فبكي بكاء مراً ورمي بالناج عن رأسه^(٢) ولم يزل بنية ايامه مهوماً دنفاً ولاقي
المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فاباد من قدر طليو من اهل
بيته^(٣) واخيراً مات هو كئيباً حزيباً . فهل اشد وطأة من هذا الانتقام . وزارني ملاك
النعمان بعد هذه الحوادث وهو يضحك وإشارات البدر ظاهرة على وجهه فهسبت
بالوقوف للقائه فدمعت بنفسي ثقيلاً لا استطع النهوض فابتدرني هو قائلاً « لقد
انتقم لي الله من برويز الجوسي فطابت نفسي وارى وصيتي لتولدي حملاً ثقيلاً
على عاتقي فقد شعرت بضعف بني الانسان وعلمت الاصابة في قولك وانا في سجن
خائقين » قال ذلك وتوارى عن بصري وانا راقد لا استطع حراكاً ثم استهبطت
وصورة النعمان امام عيني ويكاد النور ينبثق من وجهه

فلما بلغ الناسك الى هذا الحد من حكايتي شعر كل من السامعين بانفراج
الازمة وخصوصاً حماد فانه احس بحمل ثقل نزل عن ظهن
اما سلمان فكان الى ذلك الحين صامتاً لم يفه بكلمة فلما فرغ البناء من كلاه
وقف سلمان وهم يبد الناسك فقلها وقال لقد اتقنا فرجاً من عبد الله ولكن قلوبنا

لا تشغني إلا بعمل نعمة على قهر اولئك الكفرة الفاشقين
 فنظر الناسك اليه وتبسم تبسماً قلماً تعودده وقال ذلك اعمال الله يا ولدي وسنسمع
 بذهاب دولة الفرس قريباً فلا يبقى ثم من تتفهمون منه
 فلم يفهموا مغزى كلامه فقال عبدالله هل تعني شيئاً محدوداً أوحى اليك مما في
 سابق علم الله فانكم معشر الناسك ذور كرامة يفتح عليكم ما لا يفتح على سواكم
 قال الناسك اشير الى امر لا يحتاج الى وحي او كرامة بل هو ظاهر يفهمه كل
 عاقل . الا ترى حال الفرس واخفلال شوؤهم واضطراب احوالهم حتى تولى على
 كرسي ملك خمسة ملوك في خمس سنين^(١) وكل يعمل على الاستئثار بالسلطة وابداء
 الآخريين واضعهم رأياً بزجر الذي يتولى الملك الآن وستزول دولة الفرس على يد
 ناهيك عن ظلمهم وجورهم . الا يدلكم ذلك على شيخوخة دولتهم وهرمها وقرب انقضاء
 اجالها وللدول آجال كآجال الناس ثم في ادوار تنتهي بالموت ودولة الفرس قد
 بلغت شيخوختها ولا تلبث ان تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد
 قال عبد الله ولكن لا تنقضي الا على يد دولة اخرى تقوم مقامها فمن سيخلف
 هاتين الدولتين . قال اما سمعتم برويا الراهب بجهراء الذي كان يقيم في ديبه هنا
 قالوا « كلاً » الا حماد فانه تذكر ما سمعته من الراهب الشيخ في تلك الومعة يوم
 جاءها للملافة هند هناك . فقال بلى سمعت ذلك من الراهب الشيخ فقد احكى لي مرة
 ان بجهراء رأى في منامه فتى جميل المنظر مولد رُج الثور والزهرة مع قران المشتمى
 وزحل وعلم منه انه هو الذي سبهدي ابنا جلدتو بني اساعيل (وهم العرب) الى
 معرفة الله وان يوقى امرهم ويبتد ازرهم وتجمع كلمتهم فيذالون ابنا عمهم بني
 سحاق وينسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من اولئك
 العرب اثنا عشر دولة^(٢) اليس ذلك ما تعنيو
 قال الناسك هذا ما عنيته وازيد عليوان الرجل المنتظر قد ظهر في جزيرة
 العرب ودعا الناس فيها الى عبادة الله ونبتد الاوثان وقد فتح مكة وكسر اصنام
 الكعبة وانتشر سلطانه في الحجاز واليمن وسيفتح الشام والعراق وهو الذي سيخلف
 الفرس والروم في سلطانهما

فقال حماد لقد شاهدنا قوته وسلطانه باعيننا يوم فتح مكة وكان يوماً
مدهوداً وبظهر من رغبته في سبيل الله واستهلاك انصاره واصحابه في نصرته ان دولته
ستغلب الدول كلها ان عاجلاً وان آجلاً

قال فلستم اذن في ما يدعو الي تكبد الخطر في الانتقام من اكاسرة الفرس وقد
رأيتم ان قاتل حبيبتنا النعمان قُتل هو واولاده شرّاً قتلة وسينم العرب على دولتهم
ان شاء الله

فوقع كلام الناسك على قلب حماد برداً وسلاماً فارتاح باله من امر الانتقام
المجمل وانصرف ففكر الى مند وشعر بيلم شديد الى رؤيتها وخاف ان تسيء الظن
به اذا طال غيابه بعد يوم النعمان وهم في اليوم الثاني منه فتظاهر بيلو الى الانصراف
فادرك عبد الله ذلك فقال للناسك انا اذن لنا بالذهاب على ان نغتنم الفرص في زيارتك
حيناً بعد حين وهل تطلب ميثاً امرأ تنضوي لك

قال لا اريد من هذا العالم شيئاً فقد رأيتم زهدي به ولم يكن في نفسي شيء
غير روية ابن حبيبي النعمان لا قصّ عليه ما اوتمنت عليه ما خاطبني به والدك في الحلم
فاحمد الله على نيل بشرتي فاذا مت الآن فاني اتوسد قبره المين ناعم البال

فقال عبد الله اطال الله بقاءك ورجوان نراك كثيراً. قال ذلك وبهض فبهضوا
جميعاً وودعوا الناسك وانصرفوا على افراسهم وكان على رؤوسهم الطير

اما حماد فان ذهنه تنرغ للافتكار بهند واحسن برغبته في اطلاعها على حقيفة
نسيه فلما وصلوا الى الدبر موط بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوه على ما دار
بينهم وبين الناسك فلما انبأوه بما علموه من امر اطرق يفكر بغرائب الحدثنان ثم
قال لقد خيل لي منذ رأيت هذا الناسك انه لم يغادر خضب العراق وبقية في هذه
الجبال المجذبة الا لدافع دفعة الى ذلك وقد صدق ظني وبسرّي انه اطلعكم على ما
خفف قلنكم وهوّن عليكم فما اتم في عجل للقيام بالوصية وقد كفناكم الله مؤنة ذلك
اما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منها فقد ابديته
الحجرات الجارية فان تلك الدرمة من الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى
ملأوا جزيرة العرب فتحاً وفتالاً فدانت لم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد وقد شهد

حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطاش هؤلاء العرب وقوة جاء عنهم ولقد شهد من رأى
حربهم في موقعة هنا انهم كانوا كفاح الاسود وصبروا على الحرب صبر الرجال ولكنها
اول مرة لا تقبل بها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية فلم يفوزوا والظاهر ان وقعة
موقعة كانت امثولة لم هلنهم كيف نواكل الكنف حتى اذا رأوا في جندهم الكفاءة
اعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق ايضا
فقال عبدالله وهل هلت انهم حملوا دلي العراق
قال نعم انهم حملوا عليه حمله اذا لم يكن فوزهم بها تآمراً فلا اقل من ان يؤذوا
الفرس و يضيقوا عليهم

فقال حماد وكيف عرفت ذلك يا مولاي

قال اخبرني بذلك تاجر من اهل مكة تعودنا لقاءه هنا كل عام او عامين ولي
معه صداقة ودالة فقد مر بي من بضمه ايام واطلعتني على حوادث تلك الدولة بعد
فتح مكة حتى الساعة فاذا هي ما يجيئنا على دولتي الروم والفرس وكنت اظنكم
عالمين بها

قال عبدالله كلاً يا مولاي اننا غير عالمين بشيء من ذلك

قال الراهب اخبرني التاجر ان اولئك الحجازيين بعد ان فتحوا مكة عادوا الى
المدينة وانزلوا جنداً منهم الى من بقي في جزيرة العرب لم يرضخ للاسلام فغزوا
غزوات عدة فازوا بها كلها ومن اكر قوادهم رجل منهم يقال له خالد بن الوليد
اتي بالمعجزات في حروبه حتى سماه النبي « سيف الله » ومنهم علي بن ابي طالب
ابن عم النبي وهو بطل مجرب . وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريه اسمع عبدالله ابن
ابي قحافة^(١) لقبه بالصديق ويسى ابا بكر وهو حو النبي والد امرأته عائشة . ومنهم
رجل آخر يندر مثاله في العالم يدعى البطش وصدق الغيرة على الحق اسمه عمر بن
الخطاب وآخر اسمه عمرو بن العاص وغير هؤلاء جماعة كبيرة فتمكن بذلك من
اذلال قبائل العرب حتى انه لم يعد يحتاج في اذلالهم الى ارسال الرجال بل كانوا
يندون عابدهم وفوداً يلتمسون الدخول في دينه عن رضى وطيبة خاطر^(٢) فرأى
الوقت اللازم لفتح الشام قد آن فجنده جيشاً بقيادة رجل اسمه اسامة بن زيد طامس

ان يسهر الى فتح الدمام ونيا هو في ذلك وإفاء القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خالف ابطالاً قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعده حمزة ابو بكر المتقدم ذكراً وهو شيخ جليل القدر واخبرني التاجر ان المسلمين لما مات النبي اختلفوا في من يولونه الخلافة بعده لانهم قسموا قسم يقال لهم الانصار وقسم يقال لهم المهاجرون

فقال حماد وما معنى هذه الاحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا قال لا يا ولدي ان المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة يوم شدد أهله الكبر عليه هناك فتبعه من قريش اكثرهم غيرة عليه فسهط المهاجرين وأما الانصار فيهم أهل المدينة الذين قاموا بصرتهم لما جاءهم مهاجراً فحاربوا معه فسهط الانصار . فكل من الانصار والمهاجرين بظن نفسه اولى بالخلافة فاختلفوا في من يتولاها حتى كادت تنوم بينهم فتنة . ويطن صاحبنا التاجر المكي ان النضل في فض هذا المذكل لأحد المهاجرين عمر بن الخطاب وقد ذكرته لكم الآن فهو الذي توسط في الأمر وبايع أبا بكر فبايعه الناس احتراماً له او خوفاً منه فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قبيلة النبي (قريش) فتخليفة المسلمين الآن ابو بكر الصديق هذا (١)

فلما توفي النبي تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الاسلام في حياته فارتد كثير من منهم الى ما كانوا عليه من الصراية أو اليهودية أو غيرها فتهيب المسلمون لذلك فاجتمعوا واوعزوا الى أبي بكر ان يعدل عن ارسال الجند الى الدمام لاحتياجهم اليهم في اقماع المرتدين فأبى الا انفاذ ما أمر به النبي فارسل اسامة وجند الى الدمام . وما أحكامه لي التاجر المكي حكاية وقعت لابي بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس

فقال عبدالله وما هي . قال الراهب أخبرني التاجر ان أبا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة وكان أسامة راكباً وابو بكر ماشياً فمجدل اسامة من ذلك لأنه شابٌ وذاك شيخٌ فضلاً عن كونه رئيسة فتقدم اليه ان يشي هو وبركس ابو بكر فأبى الا ان يشيعهم ماشياً ويدل ذلك على رغبة حكاهم في الخدمة لا الرئاسة وما أوصاهم به قبل عودته قوله « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تغلبوا ولا تقاطوا طلباً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعفروا نخللاً او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

شاة ولا بقرع ولا بعيرا « هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا لا انكر عليكم ان النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكمانا نبدوا الدين نبد النواة وسيعود ذلك عليهم وبالأ . قال الراهب ذلك وقد أخذت الحمة منه مأخذاً عظيماً حتى ارتجفت صوته وارتعشت لحينه ثم سكت

وكان عبداً لله وحماد وسلمان متطاولين باعافهم يسمعون حديث الراهب وقد زادم تأبراً ما آنسوه من اهتمامه فقال عبداً لله ان مثل هؤلاء لا بد من ان يغلبوا العالم ويفتقروا الامصار فعمام ان بدأوا بالعراق ويقتدونا من دولة الفرس الظالمة فقال الراهب وقد تنفس الصعداء انك تشفى أمراً قد وقع فعلاً فان جيش اسامة هذا لم تطل غيبته ابعده ان الخليفة احوج الى نصرتي في قتال اهل الردة مما يفتح الشام فعاد بجند وانضم الى المسلمين في حروب اهل الردة وما زاد الامر اشكالاً اناس ادعوا النسوة منهم رجل اسمه اسود العنسي في اليمن فالتف حوله حزب كبير ورجل آخر اسمه طلحة الاسدي من بني اسد في نجد وآخر اسمه مسيلة في اليمامة وآخر اسمه ذو الناج لفيط بن مالك^(١) وغيرهم من المؤمنين ودعاة الاحكام حتى لم تبقى قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين واليمامة ومهرة الا نبتت طاعة المسلمين وارتدوا عن الاسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن ابا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعد في ذلك قتاده المحنكون وخصوصاً خالد بن الوليد فانه عمل أعمالاً غريبة وكذلك عمرو بن العاص وغيرها ففضلوا في سنة كاملة حتى دانت الكفاج قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقام امرهم

فقال حماد يا حذا لو يسير خالد الذي ذكرته الى العراق فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس وقال لقد اصبت يا ويدي فانه عمل ما اردته فمار خالد هذا الى العراق لفتح الحيرة وقاتل الفرس^(٢) فهب سلمان للعال وقال لحماد ألا يا ذن لي مولاي بالمسير الى الحيرة اني لا يهدأ لي بال ان لم آل يدي بدم الفرس فاعلم ان اشهد بعض المواقف أو اخدم المسلمين خدمة نعاخدم في انقاذنا من اوائك القوم المجوس فقال حماد اني اولى منك بذلك ولقد كنت عازماً على التماس اولم تلتمة انت

(١) ابن الاثير (٢) ارسله في اول السنة الثانية عشرة للهجرة (ابو الفداء)

قال سلمان أما انت فقد طال غيابك عن امير غسان واميرته فسر اليها وعساوي
ان اعود اليكم قريباً بخير النصر

فاتت به حماد لامر مع هند فاغتم وجوده عند الراهب فرصة لاستفتائهم بامر الاقتران
بعد حكاية الوصية ولكن استغيب فخطب عبدالله على انفراد قائلاً أنظن انه يجوز لنا المخاطبة
بأمر الزيجة أم نحن لا نزال مقودين بالوصية

قال عبدالله دعني اسأل الراهب وأخذ رأيه فما يشير به نفعاً . ونحوّل نحن
الراهب فساء له فقال الراهب يظهر من خطاب الناسك لكم انه بجأتكم من ذلك التبدد
وفي العدول عن الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لان ديانتنا توصينا بمحبة عدونا
ومباركة لا عيننا ونحظر علينا الانتقام

فمرّ حماد ملك الفتوى وسكت حتى اذا خرجوا من عند الراهب اتفرد بعبدالله
وقال له ألا ترى ان يذهب غداً الى البلقاء نقابل جيلة وانت معي فقد فرغنا من
حكاية الذرّوان لكما الاجتماع وخصوصاً بعد ان ظهر ما ظهر من رفيع نسبنا
فقال عبدالله ارى يا مولاي ان تبقي امر نسبك مكتوماً كما كان لنرى ماذا يجد
من حوادث الزمان

فاجعل حماد وقال ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق اليه الناس وخصوصاً انهم
اعترضوا على زواجي بهند لغرض نسبي فهل ابقوه غامضاً
ففكر عبدالله هنيهة ثم قال وارثي مع ذلك ان لا تذكره وعلى كل حال فالامر
راجع اليك

فسكت حماد وكان قد وصل باب الغرفة وسلمان يتبعها وقد ادرك انها يتكلمان
بدأ ن هند فتمتمت قليلاً فلما وصل الغرفة التفت حماد ونادى سلمان فاسرع وهو يقول
انقدم اليك يا مولاي ان تأذن لي بالذهاب الى الحيرة غداً صباحاً وان يكن يعز
عليّ ان لا اشهد الاجتفال باقترانك ولكنني لا اليث ان اعود اليكم بما يسرّكم ان شاء
الله وارجوان تذكروني في حنة الزواج وانا اذكركم في ساحة الحرب

فقال عبدالله لحامد دعني يذهب يا سيدي املة يا تينا بخير فقد انتبهنا من المشاكل
والاسرار ولا نظننا نحتاج اليه في شيء وقد نقرّ لك الاقتران بهند ورضي والدها
ووفينا الذرّوا فليذهب

فقال حماد اذهب يا سلمان بجراسة الله ولا تقطع عنا اخبارك
ففضي سلمان ليلته تلك يستعد للمسير الى العراق وفي الصباح ودّع حماداً
وعبد الله وبكى لوداعها وسار الى الناسك بلمنس بركنة ودعاه قبل المسير
فلما خلا حماد بعبد الله قال له دعنا نسير الى جيلة أو هيّا بنا الى صرح الغدير أم
هناك سرّ نبع ذهابنا واقتراننا ألم يأن لنا ان نخلص من العرائيل
قال لقد آن الوقت وعلم سيدي الي لم أوخر اقتراننا عبثاً ألم يكن في السرّ
ما يدعو الي ذلك

قال بلى واني لا انسى جيلاً صنعته معي يا عبدالله ولكنني اعترف لك اعترافاً
صريحاً بان اطلعك على نسبي قد قلل اسباب سعادتي واحسيني كنت اسعد حالاً يوم
كنت حماد بن الامير عبدالله اما وأنا المنذر بن النعمان فاراني تعيساً يتيماً مظلوماً
قال عبدالله كنت اتوقع ذلك منك ولكنني لم أرَ بنتاً من ان اقص عليك خبراً
عنه يو الي امانة مقدّسة

قال لم اقل انك اخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب على
انني لما اتصور هنداً ومعبثتي معها اسلو الدنيا ومناعبها
قال عبدالله وزد على ذلك انك ستكون عمّاً قليل ملك غسان والغساسنة
لا يفتأون سطوة وبطشاً عن ملوك الحيرة فضلاً عن دلائقهم بالرّوم وهي دولة مسيحية
وذلك خيرٌ من علاقة اجدادك المماذرة بالفرس والفرس مجوس بعدون النار كما تعلم
فانيسط وجه حماد لذلك فقال اذهب معاً الى صرح الغدير قال لو علمت ان
جيلة هناك اذهبت معك لان من اللياقة ان الاقربه فهمي تعارفنا جازلي الذهاب الى
الصرح قال اذن اذهب انا فالتمس لك موعداً فنجتمع فيه بجيلة ونتم الاقتران
قال حسناً نعمل فاخذ حماد بعد جواده للركوب

الفصل الحادي والسبعون

* البرد والحاتم *

أما هند فلم يأت يوم الدهانين حتى ملّت الانتظار وكانت تتوقع ان ترى

حمادًا في مساء ذلك اليوم او في صباح الغد فمضي اليوم والغد وهي تعد الساعات والدقائق ونحسب لنا نحن غير حساب فلما كان اليوم الثالث أفاقنا من رقادها فقلنا البال فنهضت وسارت الى غرفة والدتها والنمت منها ان ترافقها الى دبر بجبراء او تأذن لما بالذهاب اليه وجدها

فقلت سعدي لا أرى ان تفعل ولا ان تفعل فلورأى حماد الهجيء الينا لجاء فرما كان في سر والى ما بمنعة من الهجيء
قالت ما تعنين يا أماء

قالت لا اعني شيئاً ولكنني لم يعجبني أمر والى هذا فكم تدلّل وتمزّر فقد صاهرنا ولك على غموض نسوء وإكرماناً والنمنا لثيابه فلم يأت وما قد انفضي موعده من يوم الدهمانين فلا أظن الآ في الامر دخيلة

فانقبضت نفس هند عند ذلك وقالت لا تاومي الغائب قبل حضوره فرما بمنعة عن زيارتنا مرض او شاغل ذو بال ولما ما اشرت اليه من تدال والى او كبرياتو فلا أظنه في محله وليس ثم ما يسوغ له ذلك
وسكتنا هنيهة مطرفتين ثم قالت سعدي نعم يجب علينا ان نبحث عنه وعن سبب غيابه فلنتظر هذا اليوم ايضاً فاذا لم يأت افئذنا اليه رسولاً

فخرجت هند وهي هاجمة في امر حماد فلبست ثوبها وخرجت الى الحديقة لتفعل نفسها بازهار الربيع وعيناها شائعتان من بين الاشجار وقد هب عليها النسيم فتعاطم حفيف الاوراق وعلت اصوات الطيور مفردة وهند تود انقطاع النسيم وخرس الاطيار مخافة ان تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع اقدام حماد اذا جاءها ماشياً بين الاشجار او تخفي صوت جواده اذا صهل عند استقبال الصرح . وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحدق بعينها وتصبح بسمها وقد صارت الشمس في الهاجرة رأت فارساً قادماً عن بعد عرفته من جواده وظاهر لباسه انه حماد فهرولت الى والدتها وانباتها بقدموه فدخلنا الى قاعة الجلوس حتي جاءها مخبر بقدموه فخرجت سعدي للقائوه ورحبت به فقبل يدها ودخلا الصرح وكانت هند عند الباب فسلم عليها ودخلا جميعاً الى قاعة الجلوس وقد آنتت هند في وجه حماد تفهيراً بعد قص الشعر ولكنها عجت لهجه وحنّ وإرادت الاستفهام عن السبب فمنعها الحياء على ان والدتها

ابتدرته بالسؤال عن والدك
فقال انه كان عازماً على المجيء معي ولكنه رأى من اللياقة ان يقابل ملك غسان
قبلاً ولو كان سيدي العم هنا لاننا انما الى والدي فيحضر حالاً
فقلت جعل الله نذرك مقبولاً هل قصصت شعرك يا وادي
قال نعم . قالت وهل سمعت الحكاية . قال نعم سمعتها . وحدثتني قصة ان يبيع
بها فتذكر تحذير عبدالله فامسك ولكنه رأى سكونه عنها بالمرح تخفيراً للمائل
اما سعدي فلم تزد على هذا السؤال نادياً فلما لم يجيبها غيرت الحديث وسألته
اذا كانت بئر الخروج الى المدينة وهو يود ذلك لعلوانه قد يخلو هناك بهند
فيها تبان او يتغابان
فخرجت من باب خصوصي صغير وتخلت سعدي في النصر توصي قبة القصر باعداد
مائة الغداء

فمشى حماد وهند في طرقات المدينة حتى اتحدرا الى ضفة الغدير وماؤه يجري
على حصياء تلالاً تحته كأنها الدر وقد فاحت روائح الازهار وغلبت عليها رائحة زهر
اللوز وزهر البرتقال وعلت ضوضاء الاطيار وحفيف الاشجار ولو كان لنا فونوغراف
اديسن او اوشمة روتنجن لرأينا قلمي هذين المحبين يتناجيان ويتفاهان
اما هند فما صدقت انها خالت حماد حتى نظرت اليه شذراً وهي تنسم وعيناها
مدرقتان تلالان وقالت ما الذي دعاك الى التعميل في زيارتنا اما كان الأدل على
شوقك ان تبقي زيارتك الى عيد النصح !

فادرك مرادها فاحب ان يعيب بها فقال تركنا يوم الفصح لمقابلة والدك بشأن
الاكليل ام ترين تأجيل ذلك الى الأحد الجديد
فنجلت واطرفت وقد توردت وجنتاها فازداد اشراق وجهها وقالت لو عرفت
انك تجيبي بمثل ذلك ما اقدمت على موالك

قال وقد أعجبت خجلاً وازداد ميامه بها لم أكن اظن ذكر الافتتان بسوءك ونحن
انما نسعى جهداً في الحصول عليه . قال ذلك ونظر اليها كأنه ينتظر جوابها . اما هي
فحولت وجهها عنه وخطرت نحو شجرة من البرتقال تقطف زهرة تلامى بشمها عن
ساع كلامه

فتبعها حماد وهو يقول ما بالك همز بين يني يا هند فاذا كنت تريد من القاض
من قرابتي فولي لي كما قال غيرك ان نسي غامض فلا استحق بنت ملك غسان
فلم تجبه ولا على هذا وقد كان يوقع ان يجرها الحديث الى حكاية السر ليخبرها
بمقبرة نسي ويرى ما يبدو منها وخاف ان تأتي والدتها فيقطع الحديث فدار نحوها
حتى قابلها وجهاً لوجه وامسك يدها فاحس كلامها بقشعريرة الحب فقال حماد لم
تسأليني عن حكاية السر ما هي

فقالت له (وهي ممسكة بك تنظر اليها) يظهر ان حكاية السر عزيزة لديك
لا نستحق سماعها

فادرك انها توجبه لسكوتك عن سؤال والدتها فقال لا يمز عنكم شيء يا حبيبي
قال ذلك ويد بك الى جيبه فاستخرج خاتماً دفعه اليها وقال هذا هو سرها فانظري اليه
فتناولت الخاتم وتأملته فاذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت انه لا يزال سرا
اذ لا أستطيع قراءته . فقال انا اقرأ لك ثم قرأ « النعمان ابن المنذر »

فلم تفهم المراد فقالت وما معنى ذلك
قال معناه ان نسي الذي كان غامضاً عنك وعني كان مخبئاً في هذا الخاتم
فانصت فكرها في مغزى كلامه فادركت انه ينسب الى النعمان ولكنها امتعدهت
ذلك فقالت الملك تنسب الى الملك النعمان

قال « بل هو اي » . وجعل ينظر الى ما يبدو منها فرآها قد استغربت
قوله ولا تزال في حال البغثة ولكن الاعجاب والسرور ظهرا على وجهها معاً على ان
الانفة والرزانة منعناها من اظهار البغثة فقالت ومن انبأك بهذا النسب وكيف خفي
عنك الى الآن

قال لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكان واذا كان الخاتم لا
يكفيك فانظري الى هذا الرداء وكشف غيابة عن برد النعمان وكان تحت انطوى
فبظرت اليه فلما تحققت نسبة عظم في عينها ولكن الاستغراب غلب عليها وهي تحمس
نفسها في حلم

ثم سمعا وقع اقدام من ناحية النصر فنظرا واذا بوالدتها قادمة فامرع حماد الى الخاتم

فجأةً وطلب الى هند كتمان الحديث الآن . اما في فرغاً عن رزانتها وتعاقبا ودت
ان تطلع والدمها على ذلك الخبر
اما سعدى فانها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر
ف نظرا اليها وهما يتوقعان خبراً فقالت لقد اطلت الغياب عليكما لاشغالي برسول
قدم من عند الملك جبلة ومعه هذا الكتاب ودفعت الكتاب الى هند ففضته فاذا هو
من والدها يقول فهو « هل عرفتم شيئاً عن ولدنا حماد وهل وفي نذرة فاني احب
ان اراه قبل سفري الى الامبراطور فقد اتتني رسالة بالذهاب اليه لمهمة ساقصها عليكم
عند الاجتماع »

فقالت سعدى اكني الهواة جاء وقد وفي النذر
فقال حماد ارى ان اسير الى والدي واجيء بو ليتشرف بمعرفة الملك جبلة ايضاً
قالت حسناً تفعل فعادوا الى النصر وكتبوا الى جبلة بذلك على ان يكون مجيئه
في الغد
وكانت المائدة قد أعدت فتناولوا الطعام وركب حماد الى دير مجبراه

الفصل الثاني والسبعون

* كل سرّ جاوز الاثني شاع *

واما هند فما زالت تفكر بما سمعته من حماد عن نسيه وإدركت والدمها فيها تغيراً
ظاهراً على وجهها بدل على شيء في نفسها تكتبه فلما كان المساء ذهبت هند الى
فراستها فجاءتها سعدى واخذت نجاذبها اطراف الحديث حتى باحت لها بالسرفلم تكن
سعدى اقل استغراباً من هند وحسنت لها ان تطلعا والدهما على ذلك
فلما جاء جبلة بيته ضحى الغد انبأته بالخبر وكانت تتوقع منه ارتهاحاً واستحساناً
ولكنها رأت انقباضاً فندمت هند على نصر مجبراه بالسرّ وخافت ان يترتب على ذلك
ما يسوؤها وكان خوفها في محلها لان جبلة ما ليك منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس
طارقاً في مجاراتنا مثل لعلوا ان حماداً اذا تزوج هنداً سيكون ورثته في الملك اذ

ليس له ذكور يرثونه فاذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الفساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتساق الى المناذرة ان الملك سيخرج يوم من الفساسنة الى المناذرة فيكون قد سعى الى زوال ملكه فانريك في امره فلم يعد يعلم ماذا يعمل وود لو انه زوج هنداً لعلبة ابقاء للحكم في عائلته ولكنه كتم ذلك كله ونظاهر باستغراب ما سمعه

اما هند فكانت تراعي والدها وتراقب حركاته وتتنظر ما يبدو منه وقد انقبضت نفسها واستفت اسفاً شديداً لما فرط منها

وفيما هم في ذلك سمعوا قرعة اللجم وصهيل الخيل عند باب المدينة فاطلوا واذا بحماد وفارس آخر عرفوا انه والك فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جيلة هم يتقبل بك فمتعة ونعائنا ونقدم عبدالله الى جيلة فصافحة وتعارفا ودخالا جميعاً الى قاعة المجلس واخذوا في الاحاديث المتنوعة الاحديث الذرفانة لم يدرب بينهم ابداً فقالت سعدى لجيلة قلت لنا في كتابك ان الامبراطور هرقل انذ بدعوك اليه فما الذي دعاه الى ذلك

قال دعاه اليه اضطراب في جو السياسة اوجب اهتمامه في التأهب للحرب عاجلاً فبغت الجميع واستعاذ حماد بالله وخاف ان يحول ذلك بينه وبين هند الى اجل بعيد فقال

وما هو ذلك الاضطراب يه عماء

قال لقد انبأنا الجولسيس ان الحجاز بين الدين جاؤنا منذ بضع سنين على ما نعلم وعادوا عن مؤنة خاسرين قد استغل امرهم واتسع لاطانهم وتوفي نبيهم وخلفه بعض اصحابه فجدد جنداً كبيراً انك لقتالنا ولا يلبث ان يصل الينا قريباً فبعثت الى هرقل بذلك فارسل يستقدمني اليه في حمص^(١) للتحارب بندان التجنيد وقد قيل لنا ان حملتهم هذه المرق ستكون اصعب مراساً من الماضية وقد جاؤا فرقاً يقوم اعظم الفواد

فقال عبدالله سمعنا انفاذ ذلك الجند الى العراق لحرب الفرس وليس للقيام قال ذلك جنداً آخر بعثوه الى العراق في العام الغابر اما الآن فانهم عاملون

علي التجويد البنا

فقال حماد هل يرى سيدي العم ان غيبته ستطول هناك
قال لا ادري مقدار طولها ولكنني اظنها طويلة
قال نسبر اذا في خدمتك

قال لا ارى حاجة الى ذلك والاولى ان تبقى في بصرى ربنا اعود او ابعث
اليكما . اما سعدي و هند وسائر اهل هذا النصر فوسهرون معي خوفاً عليهم من غائلة
العدو وهم في هذا الكلاء

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبها وكادت الدموع تتناثر من عينيها وقد ادركت
ان والدها يضر السوء بحماد

اما حماد فلم يكن اقل وجمالاً وهو لا يعلم ما في نفس عمه وظنه لم يعلم بحقيقة نسو
ولا حدث ما يوجب تنوره واكذبة استعظم فراق هند بعد ان كاد يظفر بها على اثر
ما قاماء من المشقة والبلاء في سبيلها

اما عبدالله فادرك ان في الامر شيئاً جديداً اوجب هذا التبعاد ولو لا ذلك لم
يكن ثمت ما يمنع مسيرهم معه حيثما سار فخاصه شك في كتمان حماد فنظر اليه بطرف
خفي ففهم حماد مراده فانتبه انه اخطأ باطلاع هند على ذلك السر
وشاركتهم في ذلك الاحساس سعدي لانها اعلم الناس باخلاق زوجها فقالت
له ألا ترى ان نسير جميعاً معاً وما الفاتنة من بقاء حماد هنا

قال بل ارى بقاءه هنا وساخبرك عما يمنع ذهابه معنا . قال ذلك وفي كلامه
غنة الجفاء فسكتت وحكت الجميع

ثم آن الغداة فتغذوا والحكوت مائد عليهم جميعاً فلما نهضوا امر جيلة ان
تعد الركائب لسير زوجتي وابتو معه في ذلك اليوم فشق ذلك على عبدالله ونفر
من جيلة لما اتفق له معه في المقابلة الاولى . وعول على تحويل عزم حماد عن هند
كانه لم يدبرها في قلبه من لوايح الغرام وقد فاته ان الحب يتعاطم بنسبة ما يعترضه
من العقبات

فاستشار عبدالله حماداً في الانصراف فاجابة اليه رغماً عنه ووقفاً فتقدم حماد
الى عمه وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه وودعه عبدالله . وسار حماد الى سعدي و هند

بودعها وكاتما قد خلنا وهند تبكي وتغيب ووالديها تخفف عنها وتلمس الاغذار
لما ظهر من جفاء والدها فلما سمعت وقع اقدام حماد خرجت هي فودعته واعندرت
عن هدايتها تشكوا من صراع الم بها حتى ابكاهما

فادرك حماد انها شعرت مثل شعوره وترجع ليدبو انها باحت بالسرو ولم يلم
الا نفسه لانه لم يوصها بكلماته . فقال والدمع يبلألا في عينيه دعيني اري هنداً
قبل ذهابي وان تكن باكية . وكانت هند قد استعدت للقائه فسمحت دموعها وحاولت
اخفاء ما بها وخرجت الى حماد وهي تجلد ومدت يدها وتجاد هو ايضاً فودعها
مبسماً وتحت ابتسامه غيظ يكاد يبرز ثم ودع سعدى وخرج فلقي عبدالله في الحديقة
يتنظر قدومه فركبا وحماد يلتمس وراة بودع الفصر وامانة وهو غارق في لبح
الهواجس فسارامه صامتة لا يفوه احدها بكلمة وكل منها يفكر في امر وحماد يراجع
في ذهنه حوادث ذبلك اليوهين ويغرق ندماً لما باح به من امر نسو وشعر بخطائو
فحو عبدالله لانه لم يطعمه في كتمانو فظل صامتاً يتردد بين الخجل والنشل
اما عبدالله فلم يبق عنده شك بتغير جملة وفساد ما بنوه وضياع ما املوه ولكنة
لم يذكر ذلك لحماد رفقا بمواطنو وعول على ان يثنيه عن عزوه فيها بعد

الفصل الثالث والسبعون

* ان الله مع الصابرين *

فلما دنوا من الدير قال عبدالله أتري يا سيدي ان نقيم في الدير او نذهب
الى بصرى
قال لك الامر ولكنني اري بصرى افضل لنا بعدما سمعناه من حملة العرب
الحجازيين
قال الامر اليك وعرجط نحو الدير بانوا فبو تلك اللبابة على اهبة الانتقال الى
بصرى ولم يبق حماد الا قليلاً لكثرة ما تراكم عليه من الهواجس
فلما اصبحوا اخذوا يستعدون للركوب فذهب عبدالله لوداع الراهب وظل

حماد وحده يتنفل في بعض الميام وكان الوقت ضحي وفيها هو ينظر الى خارج
الغرف رأى امرأه تنظر اليه معرقها انها الجارية التي رافقت هنداً الى الصومعة يوم
التي بها المرة الاولى هناك فبغت لرؤيتها وهزول اليها
فقال له انعرف بائع الحلي
فقال نعم وصلت

فدفعت اليه مندبلاً كان في يدها وتعملت راجعة
فقلب المندبل بين يديه فاذا هو رسالة قد كتب فيها « لا يضعف عزمك ما
رأيتك البارحة من والدي واصبر ان الله مع الصابرين » فعلم انها رسالة من هند
فابرقت اسرته وانترجت كربته وطوى المندبل وخبأه ولكنه ود لو يعلم ابنه في
فوسير اليها بغير تقريبها يتنسم اخبارها فنذكر ان والدهما ساءرا الى حصص لمقابلة
هرقل فقال في نفسه لا اظنه يحمل امله معه الى هناك فربما خلفهم في البلاء. وكان
يفكر في ذلك وهو يتظاهر بالاستعداد المسهر فاجاء عبدالله فركبا وسارا الى بصرى
واقاما في منزل بقرب السور عال مشرف. فنذكر عبدالله يوم ثعلبة وموقفه امام
رومانوس (رومانوس) حاكم بصرى وما كان من امر الخاتم ولكن ثعلبة ضعف امن
وخرج من بصرى فاقام في بعض القبائل الغسانية. ورومانوس ما زال حاكماً هناك.
وكان حماد قلقاً على هند لا يهدأ له بال وما زاد الحالة ثقلاً عليه لومه نفسه لأباحتها
بنسبه وقد عرف قيمة نصائح عبدالله وتحتق ان الاختيار والمعاشرة تكسب المرء علماً
وحكماً لا يدركهما بمجرد الذكاء الطبيعي وما لبكيتو الى استشارة عبدالله في ذهابه
الى البلاء وشعر بما اجتو الى سلمان لانه كان له يو غنى عن تجشم تلك المشاق بنسبه
ثم اجفل بغنة وخاف اذا استشار عبدالله ان يشير عليه بترك هند وهو لا يستطيع ذلك
ولا تسهل عليه مقاومتها بعد ان اخبر صدق نصائحو فسكت وسلم الامر لله

اما عبدالله فكان يتجامل عن كل ما يظهر على حماد من القلق ويدعوه حيناً بعد
آخر الى الخروج للصيد كما كانا يفعلان اول مجيئها تلك الديار وكان حماد يسير معه
لعلة يوزل في البرية فيوقف على قادم او غادر فيطلع منه على خبر هند او والدها ولم يكن
عبدالله يفتحه في خبرها الا عرضاً في اثناء كلامه عن قووات الروم ونحو ذلك فاذا
انس من الحديث افترباً من الموضوع تباعد عنه وهو يتوقع ان ينتر ميل حماد من

تلقاه نفسه وكان حماد أكثر رغبة عن الخوض في ذلك الموضوع لئلا يسمع نهيًا أو نصحاء
بيعه عن هند

فقضيا أشهرًا على تلك الحال وهم لا يسمون إلا باستعداد الروم لدفع المسلمين
وان جند المسلمين وصلوا ضواحي النمام وإقام بعضهم في اليرموك وكان حماد كلما سمع
خبرًا من هذا القبيل ازداد قلقًا حتى لم يعد يصبر على البقاء في بصرى ومال إلى الخروج
منها إلى البلقاء لعلة يعرف شيئًا عن هند وعبدالله بدأغلة نارة بالصيد وطورًا بزيارة
رومانوس صاحب بصرى وكان رومانوس قد عرف منزلة عبدالله على امرأته كان
بينها من أمر تسيير عبدالله إلى هرقل وما لاقاه من العنوة هناك . فكان يجتمع
برومانوس وحماد معه ويخرج أحيانًا إلى الزاهب فيزوره ويدعوه إلى زيارته .
أما الناسك فسارا اليوم فلم يجدها

الفصل الرابع والسبعون

* حصون بصرى *

ففيها ما ذات يوم في ضواحي بصرى يطلمون الصيد قال حماد أرى الصيد قليلًا في
هذه النواحي لو عرثها وقلة المرعى فيها إلا ترى أن نسير إلى البلقاء لعلنا نصاد على صيد كثير
قال عبدالله إن الصيد يكثر أحيانًا ويقل أحيانًا أما إذا شئت الذهاب إلى
الבלقاء فالامر إليك

قال أرى في الانتقال خيرًا

وفيها ما يتعادثان رأيا سربًا من الغزلان قادمًا من عرض البر لم يريا مثله قبلاً
فبغنا فقال حماد ما هذه الغزلان التي أراها تطلبنا وذلك لم يتفق لي منذ طلبت الصيد
فقال عبدالله إن مثل هذه الكثرة تدل على أمر خطير

قال وماذا عسى أن يكون ذلك

قال لا يجتمع هذا العدد منها ويسير في جهة واحدة إلا فرارًا من جند فنادم
فعمل جنديًا من العرب قادم إلى بصرى . قال ذلك وصعدا إلى ربوة أشرفا منها على
سهول ببيعة فرأيا غبارًا يتصاعد عن بعد فقال عبدالله لقد صدق ظني

فقال حماد اظنها جنود المسلمين فادمة لحصار بصرى فبالتيما خرجنا منها قبل الآن قال عبدالله اذا لم يكن لنا بد من لجاء في هذه الديار خوفاً من المسلمين فان بصرى احسن المدن وامنع الحصون واسمها بدل عليها فان لفظها في الكلدانية معناه الحصن المنيع^(١) الم تر سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعه المعاول ولا تهدمه الجانيق^(٢) وقد رأيت ابوابها فان منها يخرج اثنا عشر الف فارس دفعة واحدة عند الافتضاء فالمسلمون اذا فتحوا بصرى هان عليهم فتح سواها فتربصنا داخل اسوارها خير لنا من الخروج الى البلقاء او غيرها . وزد على ذلك ان اهل بصرى اشداء وهم اكثر الناس حرصاً على دينهم واشدهم دفاعاً عن مدينتهم فانها اعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر^(٣)

فبغت حماد وعظم عليه الامر وعلم ان امره لا بد من تأجيله وان طوما وان كرهاً وهب انه عزم الى البلقاء او دمشق فان جبلة وقبائل غمان وجنود الروم اصبحوا في شغل يشغلهم عن كل شيء ولكنه اراد ان يتحقق قوة جند الروم ليرى قدرهم على الدفاع فقال وهو يدبر رأس جواده نحو بصرى وعبدالله يتبعه وما هي قوات الروم في الشام وكم مدينة مثل بصرى عندهم

قال عبدالله اعلم ياسيدي ان ولاية سوريا او هي ولاية الشام تقسم الى ١٥ قسماً احدها بصرى^(٤) وقوات الروم كثيرة وعدتهم كثيرة ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنياهم واستولى عليهم الانقسام . وما زالوا في هذا الحديث حتى وصلوا المدينة فرأوا اهلها في هرج ورج والجند في حركة يستعدون للدفاع فدخلوا الاسواق فرأوا الناس مجتمعين منى وثلاث وربع ينساء لون عن الجند القادم وامارات الاستغناء ظاهرة على وجوههم فقال عبدالله هلم بنا الى منزلنا فانه عال يشرف على الاسوار وما وراءها

فسارا وقال حماد ما قولك برومانوس حاكم بصرى هل هو خائف ام مستخف فقال عبدالله لا اظنه خائفاً وعنده مثل هذه الحصون وهذه الفلاح فضلاً عن العدة والرجال ولكني اظن الولاية ستخرج من يدك الى آل آخر جاء منذ ايام اسمه تراجان (دبرجان) وهو بطل محنك وقد سمعت الناس يتحدثون بنفور بينها وليس هذا وقت التنافر

الفصل الخامس والسبعون

* رومانوس وتراجان *

وما زال بالحديث حتى وصلا المنزل فاطلا من بعض نوافذ فاذا بالعباقرة قد بان
عن جند كثيف تنفذه الاعلام والفرسان

ولم يكذب يظهر جند العرب حتى تسابق الناس الى الاسوار ينظرون اليهم وهم
يهزون بهم وبالسيتم وسداجة معداتهم وبعد قليل جاء رومانوس فوقف في بعض
الابراج ونظر الى جند العرب وقال لمن حوله من الضباط لا نرى ان نقل ابواب
بصرى امام هذا الجند الضعيف ولكننا نخرج اليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردم على
اعقابهم - طمرا بالجند ان يعسكروا خارج الاسوار مقابل معسكر العرب (١)

فلما رأى عبدالله هذا التهور خاف العاقبة لما يعلمه من بطش العرب وصبرهم على
القتال وكانت له على رومانوس دالة كما تقدم فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثه
نفسه ان يصح له ان لا يفعل فسار اليه وحامدا معه وقد علم انه توجه الى دار حكومتهم
فلما وصل الدار رأها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وكلهم راضون عن رأي
رومانوس واكدت له برّ تراجان بينهم فلما رأى اجماعهم على ذلك علم انهم لن يصغوا الى
كلامه فرأى ان يخاطب تراجان بالامر فسأل عنه فقيل له انه في منزله فصار اليه
وكان قد عرفه واجتمع به مرارا فاستأذن بالدخول عليه فاذن لها فدخلت فاذا
بتراجان مقطب الوجه فلما دخل عبدالله رحب به تراجان وكان يعرف العربية فجلس
وجلس حماد الى جانبه

فقال تراجان هل تعرفون هؤلاء الحجازيين

قال عبدالله لقد عرفناهم وحضرنا حروبهم غير مرة

فقال وكيف رأيتهم

قال رأيتهم اشداء صبورين لا يعبان بالعناء ولا بالكثرة

(١) الواقدي

قال ألا ترون الخروج اليهم خطأ
قال عبد الله بنى يا مولاي وهذا ما جئنا به اليك فكيف تخرجون اليهم فتعرضون
جندكم لنبالم وسيوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة
فتشهد تراجان وقال هكذا اراد رومانوس ولقد نصحت له فلم ينتصح وكافى به
ياهي يجند الروم الى التهلكة

فقال عبد الله الوس من سهيل الى اقصاء
قال كلاً لانه عنيد معتد بنفسه وسبكون فضلة عظيماً واذا فشل فانما يكون دمه
على رأسه قال ذلك وهو يلاعب صليبا من الذهب معنفاً بسلسلة في عنقه
فأس عبد الله في كلام تراجان لغيره الشاة فسكت وودعه وخرج وحماد معه
فلما خرجا قال حماد ما ترى من امر هؤلاء اني اخاف ان تعود العائنة على هذه المدينة
فيصيرنا ما يصيب اهلها

قال وما لعل يا سيدي اخرج الى المسلمين
قال حماد كلاً ان خروجاً حياناً
قال ارى ان تدرى ما يكون من حربهم
وسارا حتى انها المنزل وكان الليل قد سدل نفاة فاطلاً على معسكر العرب فاذا
بهم قد نصبوا الخيام واوقدوا الوقود واصدوا الاعلام
فقال حماد ومن هو يا ترى امير هذه الحملة العمة خالد بن الوليد
قال ان خالدنا في العراق على ما علمت واكن الامراء غيره كثيرون

الفصل السادس والسبعون

* فتح بصرى *

وبانها تلك الليلة واجند يستعد للخروج وفي الصباح افاقوا على دق الاجراس^(١)
واذا بالجد خارج وفيهم اثنا عشر الف فارس والفسس امامهم بالصلبان والمباخر^(٢)

فسار عبدالله وحماد الى الاسواق فأول الناس يسرعون الى الكنائس ينسبون الصلاة باليونانية (١) ويدعون لخدمهم بالامر وصعد الكهنة على الاسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بمياه المعمودية واخذوا يرفون ويشدون الابواب المسيحية وفهم الرجال والنساء والاولاد يدعون بصوت واحد بالصر لجد الروم

اما جند العرب فكان قائم شرحبيل بن همزة كاتب وحي النبي وجهه عيبة بن الجراح في اربعة آلاف فارس لفتح بصرى وكان عيبة قائداً عاماً لجنود المملين في الشام ولاء القيادة العامة الخليفة ابو بكر الصديق

فوقعت بين الجندين عدة وقائع ظهر فيها الرومانيون في بادىء الرأي ولم يحب عبدالله لصنع الروم لما يملأه من كثرة عددهم

ففي ذات يوم التهم الجندان فظهر الرومانيون واخذوا امر المملين حتى كادوا يهدون الى الفرار وعده الله يراقب حركاتهم وحماد الى جانبه واذا بغبار يتصاعد من جهة الافق وبان من تحته جند عرفوا من نوع نظائره وشكل اعلامه انه جند المملين فعملوا انهم انجدة جاءتهم ولم يلبثوا ان رأوا في مقدمة ذلك الجند رجل ضخيم عريض اللحية طويل القامة تفتق فوق رأسه راية سوداء وهو خالد بن الوليد فاشد ازر المملين واعادوا الكثرة فتفهم الروم حتى دخلوا الاسوار واقتلوا ابواب المدينة فلقي تراجان رومانوس راجعاً فذكره بنصيحته فغضب رومانوس لاشاقبه به

فلما علم عبدالله بما تمكن من التفور بين القائدين خاف سوء العاقبة وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فقتل الهو رومانوس والناس ينظرون اليها وما ياول الهو نزالها وبعد اراز طويل عاد كل منها الى معسكره فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه ما يدل على تغير في مناصبه وقد فترت همة عن الدفاع فلحظ ذلك فيه الذين يعرفون اخلاقه ولما عد الله فاجتمع بمجاد وقال اني خائف من هذا الرومي فوالله لا يلبث ان يسلم المدينة لاني رأيت من مطاوتو في النزال ما يوحي الشبهة فيه

فقال حماد ولقد سمعت من بعض اصدقاء تراجان اليوم انه جادل رومانوس

(١) وكانت خدمة الصلاة في سائر كنائس المشرق اذ ذلك باليونانية واما لغة رجال الحكومة

واعيان المملكة فكانت (اللاتينية وامة الشعب) اللغة الوطنية او اليونانية (جيس)

وربحة وشئت به لما آل اليه خروجه فشق ذلك على رومانوس وتوعدك بشر ينويه
له وقال له اذا كنت افرس مني نازلهم فاجابة تراجان وشتمه وعلا الخصام بينها
وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس وبعضهم لتراجان وتوعدوا رومانوس بالقتل
واتهموه بالخيانة وقالوا له لا نرضاك حاكماً علينا وقد ولينا تراجان فسكت ولم يجهم
وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ولكنه قال فليزل هو ونرى بطشه

فلما اصبحوا نزل تراجان على جناده بعتوه وسلاحه وطلب المبارزة فخرج اليه
فارس علما من لباسه وكبير جنته انه خالد بن الوليد فطال النزال بينهما والجيشان
ينظران وكان على رؤوسهم الطير فمضى معظم النهار ولم ينل احدهما الآخر بشر
فرجع كل منهما الى معسكره^(١)

فلما رجع تراجان الى المدينة اسرع الناس للقائه وسواوا عما لقي من عدوه وكان
اول من لاقاه رومانوس وقد نظر اليه مستهزئاً ضاحكاً كأنه ينتقم منه لثباته
به قبلاً فاتته وعينه بانة مخلوع فقال رومانوس ستري من هو المخلوع منا
وتركة ومضى

وكان عبد الله وحماد ينظران الى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ماراً ياه
وسما يهديك خافا فقال عبد الله لقد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا اظنه
الاً فاعلاً شراً

فقال حماد وما شأننا في ذلك

قال عبد الله انما بعيننا من الامر المحافظة على حياتنا مخافة ان يدخل العرب
المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا ناقة لنا في الدفاع ولا جمل الا نظننا كنا آمن على
حياتنا لو اقمنا في دير بجيرا

قال حماد وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فهو ولا جند ونحن الآن في
امنع مدن الشام^(٢)

قال لم اقل ان الدير احصن من بصرى ولكنني علمت ان خليفة هؤلاء المسلمين
لما خرج لوداعهم يوم تسيرهم الى الشام اوصاهم بالرهبان والديور خيراً فهم لا يستنون
راهباً ولا ينجرون دبراً

قال حماد لو ذكرت ذلك لفضلت البقاء في الدير ولكن السهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي في ما تراه من الحصار فما الرأي
ففكر عبد الله قاهلاً ثم قال ان سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا فلو
استطعنا، استطلاع شيء منه لعلمنا طريق النجاة فارى ان اسير اليو الليلة لعلني
اتسم خيراً

قال حسناً تفعل

وقضيا بقية يومها في المنزل وبعد العشاء سار عبد الله الى دار رومانوس وبقي
حماد وحده ولم يرض الا القليل حتى عاد عبد الله وعلى وجهه ملامح البغثة
فقال حماد ما وراؤك

قال لا اظن الامر الا عظيماً فاني سألت عن رومانوس في منزله فقيل لي انه
نائم فلم اصدق انه ينام الآن فخرجت استطع خبير من بعض الحرس فعلت انه
خرج الى حيث لا يعلم احد ويحتمل لي انه سار ليدبر مكيكة ويسلم بها المدينة و...
فقطع حماد عليه الكلام قائلاً اجل اظنه سيفعل ذلك لان هذا التصد كان
ظاهراً على وجهه فما الحيلة

قال لا حيلة لنا يا سيدي الا التربص الى الصباح فاذا تحققتنا عزيمة على ذلك
دبرنا حيلة نجو بها بانفسنا
وبانا تلك الليلة على مثل الحجر

وفيما هما نائمان بعد نصف الليل سبعا طارقاً بطرق الباب فهباً من رقادها
مدعورين فسألوا من الطارق فسمعا صوتاً يقول افتحا اني انا خادمكما سلمان
فهروا عبد الله للحال ففتح الباب والبيت مظلم فاذا برجل عليه لباس اهل
الحجاز وفي يده مصباح فيفتحا لينظروا ولكنه ناداهما اني عبدكما سلمان لا تخافا
ورفع العمامة عن رأسه فبان وعرفاه فصاح به حماد ابن كنت يا سلمان
وما الخبر

قال جئت من معسكر خالد ولا يلبث هو ورجاله ان يستولوا على الاسوار
فجئت لاعلمكم بالامر لتكونوا على بصيرة وهذا علم من اعلام المسلمين انصبوا على
باب منزلكم لتأمنوا من سقوطهم اذا دخلوا المدينة

فقال عبد الله بورك فيك ايها الصديق الامين فدخلوا جميعا واوصلوا الباب وسأله حماد ان يقص عليهم الخبر فحاجس وهو يلهث من التعب والبغته وقال اخبركما بالاختصار ان رومانوس صاحب بصرى خرج الى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقه غلته فاعتنق الاسلام وقال لخالد بن الوليد ارسل معي من تعتمد بتسليم المدينة فارسل معه عبد الرحمن بن ابي بكر ومئة من المسلمين فجمعت انا معهم فدخلنا من خرق في السور واخذ الامير عبد الرحمن ورجالاه الى قصر ليساجهم ويسير بهم لقتل تراجان وقال انه مناظر له في الحكم وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركم سألت الراهب الشيخ عنكما فاخبرني انكما مقيمان في بصرى وداني على هذا المنزل فهزولت اليه لاعلمكما بجلبه الخبر وانيت بهذا العلم انصبه فوق الباب حياية لكما وبعد قليل نسمعان تكبير المسلمين على اسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجا فيهمم الجميع وتكون مذمجة هائلة

فانبا على هتو قرامى هو على يد حماد فقبلها وقال لقد وددت ان تكونون معي في معسكر هؤلاء انجاز بين لترو ما رأينا من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم واعلموا ان خالدًا وجنده لولم يصلوا بصرى الآن لذهب جند شرحبيل ايدي سبا وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في شدة وضك لفلتهم وكثرة الروم

فقال عبد الله وهل خالد وحده من القواد النظام قال سلمان وفيهم ايضا عبد الرحمن بن خليلتهم ابي بكر وهو الذي جاء معنا لاستلام المدينة وغرب جماعة كبيرة من الامراء والقواد ولقد رأيت من حربهم وبطونهم في العراق ما سأقصه عليكما ان شاء الله فمهم حماد ان يسأله عما فعله خالد في العراق فسموا الضوضاء والضحج وبين الاصوات صوت التكبير

فقال سلمان ان المسلمين الآن على الاسوار وعما قليل ينفع اولاد رومانوس ابواب المدينة فيدخلها المملون فالينا هنا انرى ماذا يكون فالينا ان سمعنا ضجيج الناس وبكاء النساء والاطفال فتمركت الشفقة في قلوبهم ونارت الحسبة في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفا على حياتهم فما طلع النهار الا وقد فتح المسلمون بصرى واعلموا بها السيف ثم سكنت الغوغاء بعد قتل تراجان وتسليم اهل بصرى

فتفتح سلمان الباب وخرجوا الى شرفة من شرفات المنزل نطل على الشارع
فراوا جنث بعض القتلى هناك بين ميت ومنازع وقد تلطخت الاثواب بالدماء
المسلمون قد توغلو في المدينة وامتلكوها واكتمهم لم يقربوا منزل عبدالله لوجود
العلم على بايو

وفياهم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي اليه حال بصرى وقد اطمان بالم سأل
سلمان حمادا عما تم من امر هند فاخبره بحياة الخبر وكيف شغلته الحرب عن الاقتران
وعبدالله يسع ويجهل حتى انتهى الى عودهم من صرح الغدير بخني حنين وحاول
حماد اذ ذاك ان يبين لسلمان ان عمه جبلة اصاب بذلك وانه لا يزال على حي
واعتباره وعبد الله لا يجيب ولا يعترض

اما سلمان فنكدر لهذا التغيير وقال وما هو موعد الاقتران يا مولاي

قال حماد لما تنتهي الحرب ويرجع جبلة واهله الى البلقاء

قال ومن يعلم متى يكون ذلك

قال الله يعلم

قال انعلم ابن عم الان

قال اظنهم في البلقاء

قال سلمان لا اظنهم هناك فقد انبأنا جواسيس العرب ان جبلة سار برجاله
الى اليرموك لنصر جند الروم في حرب المسلمين ولا يلبث جند خالد بعد قليل ان
يذهب الى هناك لنصر المسلمين فاذا كان جبلة في اليرموك لا اظن يترك اهل منزله
في البلقاء وهي عرضة اغزوات العرب
فقال سلمان وما ظنك بو اذا

قال اظنهم يرسلهم الى دمشق ومع ذلك فاني ارى ان اسير مع خالد حتى آتي
اليرموك وابحث عن جبلة واهله واعود اليكم بالخبر اولي اعود اليك برسالة من هند
قال ذلك وتبسم كأنه يريد ان يعبك بمجاد فاجابة حماد بمثل اهتمامه وهو ينظر الى ما
يبدو من عبدالله فاذا بو في شاغل عنهم ينظر من نافذة الغرفة الى الشارع والاهتمام
ظاهر على وجهه وسما قرعة اللجم وضوضاء الناس فالتفتنا الى ما هو ناظر اليه فاول
ما وقع نظرها على راية سوداء تحمها جند من العرب في وسطهم بعض الفرسان وفي

مقدمتهم فارس كبير الجثة عرض اللحية طويلاً القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير العامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه اثر المجدي^(١) وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل يتنقل بهديته كالعروس ويكاد الشرر يتطاير من حدقتيه ووراءه فرسان حوالم الأعلام وهم فرحون بما أوتوه من النصر فالتفت سلمان الى عبدالله قائلاً اعرفت من هو هذا الفارس يا سيدي

قال عبدالله قد عرفته من يوم كان في وقعة مؤتة وكنت انا اسيراً عندهم اليس هو خالد بن الوليد

قال بلى هو هو بعينه انظر الى هذه القامة وتلك الطلعة ان خالدًا يا مولاي من معجزات خالق الله لم أر ولم اسمع بمثل شجاعته وشدة بطنته فلا غرو اذا سموت سيف الله لقد رأيت منه أعمالاً تعجز عن فعلها الابطال في حروبه بالعراق وسمعت من اخباره ما تدب لمولود الاطفال فقد كان قبل ايامه هو المقدم على خيل قريش في الجاهلية فاسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص ولم يزل منذ اسلم بوايو الرسول اعنة الخيل في مقدمتها^(٢) وقد علمت ان في عامته خصلة من شعر النبي يتبرك بها . وقد شهد وقعة مؤتة بالبقيع وعلى اثر ما اظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله^(٣) ثم كان عوناً عظيماً للمسلمين في كل حروبهم حتى تولى ابو بكر فانتك الى فتح العراق كما علمتم

فقال عبدالله وما هذه الراية السوداء
قال سلمان هذه راية ذات شأن عظيم عندهم ويقال لها راية العقاب
فقال حماد لم نخبرنا بما فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المدن ودوخوا الفرس
فقال سلمان لو تعلم هناك لفعلوا ذلك ولكن خليفتهم استقدمهم ليجت جند الشام ولولا قدوم خالد على بصرى لما استطاع شرحبيل فتحها فقد وصلنا اليهم وهم في شدة وجهه وضيق



الفصل السابع والسبعون

* فتح الحيرة *

فقال حماد اخبرنا يا سلمان عما فتحه خالد من العراق وكيف رأيت حال الفرس قال أما خالد فانه من اعظم القواد وخبرتهم وقد لقيناه في الحيرة يوم فتحها وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب لان العراقيين قد ملوا من حكومة الفرس وظلمهم وعنوم واحتفروم لا خلال امورهم . فاوّل مكان وصل اليه خالد بلاد بانقيا وباروسا والليس فصالحه اهله على عشرة آلاف دينار سوى حرزة كسرى وهي فربضة كان يتضمها الفرس عن كل رأس اربعة دراهم . ثم ساروا الى الحيرة وعليها اياس ابن قبيصة كما تعلمون (قال ذلك وتنهى) فانه تولاهما بعد ما قضى الله من امر مولانا رحمه الله (فتنهى حماد وعبدالله وهما صامتان بسمعان حديث الحيرة) فقال سلمان لم يكذب خالد الحيرة حتى خرج اليه اياس وسائر اشراف حكومتهم كأنهم كانوا منته على موعد فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم الى الاسلام او الجزية او الحرب فاخناروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية فبلغت جزيتهم ثمانين الف درهم وقد اخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن انها اول جزية اخذها المسلمون من الفرس . ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في عدة مواضع وفازوا في اكثرها وما فازوا فيه وقعة النبي وقعة الوبحة وقعة اللبس^(١) كل ذلك قبل وصولي

أما انا فلما ودعناكم سافرت الى الحيرة فوصلتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها واهلها بين راض بالصلح وناقم على اياس وخصوصاً الفرس فمنهم فقد سمعهم يتذمرون وكانوا بذلك كسرى ابرويز وكان يتولى عرش الاكاسرة اذ ذلك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة فانفذ جنداً بقيادة رجل من مرزبان اسم الازابه لمحاربة العرب فوصل اليه وانا في الحيرة وكان خالد قد برحها الى بلاد اخرى بالتمس

(١) ابن الاثير

الفتح ثم سمع الازاذبه بقدموه فخرج اليه وعسكر عند الغر بنين وخرجت انا معهم وعلم ان خاندًا ورجالة قادمون بالسفن : الفرات فارسل ابيه ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج برجاله على الخيل حتى قتل ابن الازاذبه وتقدم خالد نحو الحيرة

ومن غريب الاتفاق انا بيننا نحن في الغر بنين وصل ساعي البريد من المدائن يحمل كتابا الي المرزبان فلم يكذب بفتحة ويقرا ما به الا وقد تغير لونه واستولى عليه الجزع فخاف كل من رآه ولم نعلم ما دعاه الى ذلك الا في اليوم التالي اذ شاع في المعسكر ان كسرى ابرو يزقد مات فوق الاضطراب في الجند والمغل الازاذبه واضطرب ثم جاءه الخبر بقتل ابيه وتقدم العرب نحو فتاهم نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغر بنين انا نانا فتاه رأيت اختلال احوال الفرس قلت في نفسي لقد آن الوقت الذي فيه استطاع الفيام بالهمة التي جمعت لاجلها تخرجت من الحيرة في ليلة ليلاء حتى اتيت معسكر العرب فالتصت الامان وان اري الامير خاندًا فاخذوا في اليه فطلبت الخلوه بو فخلونا فقلت اعلم ايها الامير ان حال الفرس في اختلال موت ملكهم وانقسامهم فيما بينهم فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب واما الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخلهم واطاعته على خنايا كنت عالما بها فمررت كثيرا واثنى علي فقلت في نفسي هذه فرصة اغنمها لحظ ما لمولاي هناك من الاموال والعقار وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عود الامير عبدالله فطبيت خاطرهم وقلت لم اني انا اتيت الحيرة لنفقد حالم وروصيتهم بالعناية في استغلال الارض فلما آتت من خالد ارتياحا الى خدمتي التمت منه حماية تلك المزارع فوعدني . وقيل هبومهم على الحيرة اخذت علما مثل الذي نصبت على هذا البيت ونصبت هناك وبعد قليل هم المسلمون على المدينة فتقوموا فظلت في مية خالد حينما ذهب

ويسرني ان اخبركم بان سقوط الحيرة كاد يقضي على دولة الفرس كنه لان الدماقين وم ولاية الفرس كانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فجاؤوا وصالحوه وسلموا اليه فاخذ الجزية منهم وكتب الى اهل فارس بدخوم الى الاسلام ويهددهم بالقتال فلم يكن يمر يوم لا تزي الناس قادمين زرافات ووجدانا وخصوصا عرب العراق وم النصارى وبعد قليل سار خالد وانا

معة ففتح الانبار ثم عين التمر وغيرها وقد لحظت منه انه لم يجزأ على المير الى المدائن
قبل الاستعداد الكافي

وفيا هو في ذلك ورد عليه كتاب من الخليفة ابي بكر يأمُر بالذهاب الى الشام
لنصر جند العرب على فتحها فبحث انا معه حتى اتينا بصرى وهي محاصرة وانا لا اعلم
مقر كما فخطر لي ان اسأل راهبنا الشيخ فاخبرني بما مكابنا هنا فتربصت حتى تم الفتح
كما قدمت

وكان عبدالله وحماد صامتين بصغيان لما يقصه عليهما سلمان فلما انتهى الى هناك
قال حماد وما ظلك بتمة فتح العراق فان خالد لم يفتح منها شيئا كثيرا والمدائن لا
تزال على ما هي والفرس لا يزالون حاكمين

قال رويدك يا سيدي ان العرب لا يلبثون ان يعبدوا الكعبة واطنما تكون
الفاضية وخالد لم يأت بصرى الا مددا لجند الشام فطب نفسا ان الله سيتم انتقامه
من اولئك الظالمين

فقال عبدالله وما العمل الآن

قال سلمان ارى يا سيدي ان ابقي انا مع خالد كما كنت فامير معة الى اليرموك فقد
ضمت ان العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالا شديدا وسيسير خالد لتجديتهم
فقال حماد وابن اليرموك

قال هي على مفرقة منا غربا على نهر يقال انه نهر اليرموك بص في نهر الاردن
وقد عسكر العرب عند مائه

فتهد حماد وفي نفسه شيء لا يكتمه

فادرك سلمان انه يفكر بهند وجبله فقال ولا بد من ان يكون جبله مع جند الروم
اذا جاء اليرموك فلا اعدم وسرلة استطاع بها مقر هند فابعث اليكم بخبرها
فقال حماد الا ترى ان نسير جميعا مع خالد

قال سلمان لا ارى حاجة الى ذلك بعد ان اوعز اليك جبله بالاقامة هنا ربنا
يبعث لكم فلعله ان يفعل ذلك وانهم يعيدون عنها فتفوت الفرصة واما اذا سرت انا
وبقيت انا هنا فنكون قد امسكنا الحبل من الطرفين

اما عبدالله فظل صامتا وحماد ينظر اليه فادرك انه غير راض عن كلام حماد

فقال ما رأيك يا والداه
فقال عبدالله الرأي رأيك يا سيدي ولكنني ارى جبلة واهل منزلولا بهم شيء
من امرنا اقمنا في بصرى ام رحلنا عنها بذلك على ذلك سكرتهم عنا وقد اصاب بصرى
ما اصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا
فقال حماد ولا نظنهم اهل بما آلت اليه حالتنا وهب انهم اهل فكيف يستطيعون
الوصول اليها والمدينة محاطة بالعدو . فلما رأى حماداً يدافع عن جبلة قال لعل لم
عذراً وسكت

ثم خرج سلمان الى معسكر خالد ليرى ما تمّ عابو الامر فرأى العرب قد ولوا
رومانوس بصرى^(١) واخذوا يستعدون للمسير فعاد فاخبر عبدالله وحماداً بذلك
وتمّ بوداعها فقال له حماد لا ارى ان اوصيك بانقاذ خبر جبلة اليها على عجل واطلاعنا
على ما تمّ لاهل بيتنا وابنهم
قال سمعاً وطاعة وسياً تيك الخبر سر بعام ثم ودعها وخرج
ولم يكن سلمان اقل من حماد فلما على هند وقد شارك عبدالله في ارتياح من
جبلة فعول على استطلاع كيو الامر وانما ذلك الى سبب وفي اليوم التالي اقلع خالد
وشرحيل وجنداها الى اليرموك

الفصل الثامن والسبعون

* وقعة اليرموك *

ولما تكامل جمع المسلمين في اليرموك بلغ عددهم ٢٦ الفاً منهم تسعة آلاف بقيادة
خالد فيهم الف من الصحابة من جناتهم مئة من شهداء وقعة بدر الكبرى^(٢) ومن قوادم
ابو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحيل وابو سفيان بن حرب وكانت الحرب
بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد نمانداً اي كل امير على اصحابه لا يجمعهم احد^(٣)
وكان ابو بكر قد ولي خالداً القيادة العامة على جند الشام كافة والناس يجمعون

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير (٣) الواقدي

ابا عبيدة بن الجراح اولي منه بتلك القيادة فوقع بين المسلمين اختلاف من هذا القبيل فلما جاءهم خالد حاول جمع كلمتهم وقد ادرك ما في نفوس بعضهم فوقف في الجماهير وقد اجتمع الامراء حولة وقال « ان هذا يوم من ايام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا الدغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعدك ولا تقاوتوا قوماً على نظام وتعبية وانتم تتساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان مني ورائكم او يعلم بلكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما تؤمرون به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبة » قالوا « مات في الرأي » قال ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى انا سنبراسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ان الذي انتم فيه اشد على المسلمين ما قد غشيتهم وانفع للمشركين من امدادهم وانقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم بيلد لا يتنصت منه ان دان من الامراء ولا بزبدك عابو ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا يتنصت عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هلما فان هؤلاء قد تهربوا وان هذا يوم له ما بعدك ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلم فلتعاور الامارة فايكن بعضنا اليوم والاخر غداً والاخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني اتأمر اليوم » فامروهم وهم يرون انها كخرجاتهم وان الامر لا يطول (١)

فجذب سلمان لجمارة خالد وحزمه ولكنه اخذ منه وصواو بمحاول الخروج لك معسكر الروم ليرى جيلة او يسمع خبراً عن هند فصعد الى رهوة على ضفة ذلك النهر ونظر الى معسكر الروم فرآه قد ملا النضاه وفيه الرايات والصابان فامعن نظراً فهو فرأى معسكر الفسانيين منفصلاً الى جانب وشاهد راية جيلة وفسطاطة في وسطه فحدثته نفسه ان يسير اليه ولكنه خاف ان يستغشيه المسلمون اذا رأوه فيوقعوا به شرّاً فرأى ان يذهب اليهم بجيلة الجاسوسية فعول على ان يخاطب خالداً في ذلك فسار الى فسطاطه فرأى الامراء يتزاحم فيه وقد اجتمعوا للمناوضة في امر الحرب فهاب الدخول مخافة ان يسمع انتهاراً فصبر حتى ارفض الجميع واتي خالد وحده فالتبس الدخول عابو فاذن له فدخل وقبل بك فمال خالد ما خبرك قال هل يا اذن لي مولاي بكلمة اعمل فيها نفعاً

قال قل

قال هل بعثتم من يستطلع اخبار العدو ويسير قواتهم وموافعهم وعدد جندهم

قال لقد فعلنا ولكنني ارى انك اجدرهم بذلك

قال اني عبد مطيع فاذا رأيت ان اسير في الامر فعلت

قال سر وافعل

فقبل بئس وخرج فتزياً بزي الغسانيين وسار حتى اخطط بالغسانية فالتقى بأناس عرفهم في البلقاء فظنوه كان معهم من ذي قبل فاستظلمهم خبير هند فعلم انها مع والديها في دمشق ثم استخبر عن قوات الروم فعلم اهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لاهل الدولة وبعضها للنجرات من الارمن^(١) والسريان والمصريين وان جملة الجند ٢٤٠ ألفاً ما عدا العرب المنتصرة من الغسانية وغيرهم^(٢) فوقعتم في نفسهم من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم وتردد في الرجوع الى خالد ولكنه قال في نفسهم اذهب الآن الى المسلمين فاذا رأيت فيهم تضعفاً فررت الى الغسانية

فلما سدل الليل نقابة عاد الى معسكر المسلمين واطلع خالدًا على حال الروم

فقال خالد لا يهنا امر كثيرتهم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله

فقال سلمان ليست القوة في الكثرة يا مولاي واكثرها في الاتحاد فقد علمت ان

هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لا اختلاف اغراضهم وبشارتهم . ثم ودعه وخرج

وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبير هند الى حماد

فلما اصبح الصباح سمع التكبير والاذان في معسكر المسلمين وقد قام الداس وقعدوا

واخذوا يتأهبون للقتال فوقف بنظر الى كيفية نظامهم فرأى خالدًا قد وقف في وسط

الامراء وامران نظم الجبهوش كراديس فقسم الجند ٢٦ كردوساً وجعل قلب الجند

كراديس واقام فيه ابا عبيدة وجعل المدينة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحويل

ابن حسنة وجعل المصرة كراديس وعليها يزيد بن ابي سفيان وجعل على كل كردوس

رجالاً من الشجيمان . وفيما خالد يهيي الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول ما اكثر

الروم واقل المسلمين فقال خالد بل قل ما اقل الروم واكثر المسلمين انما تكثر الجنود

بالصروف بل بالخذلان فوالله لو ددت ان الاشقر (يعني فرسة) يراى من توجيه

وانهم اضعفوا في العدد وكان الاشقر قد حني في مسيرهم . ثم امر ان يبدأ القتال فحاذر سلمان ان تصيبه نيلة فتشفي وهو خائف ان تعود العائنة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم فوقف في معطف يؤدي الى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجلاً من جند المسلمين وتوقفاً فتأملهم فرأى بينهم ابا سفيان وكان قد عرفه في بعض اسفاره مع سيد عبد الله الى ابحاز فنذكر ما كان من حديثه في بيت المقدس وكان قد رآه يوم اعتناق الاسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفة هناك والحرب متعلبة فدنا منه وابو سفيان لا يراه فسمعته يخاطب رفاقه فيقول « يا مشيخة قريش وما يجري الفتح (وم الذين هاجروا يوم فتح مكة واسلموا) لا يهتبا من هذه الحرب الا الانحياز الى الغالب فاذا غلبت الروم كما معهم واذا انتصر المملون فاننا معهم » فعجب سلمان لكلامه وعلم انه اذا اسلم خرقاً على حياته لا رغبة في الاسلام ولكنه ظل في ريب من هذا الامر فاصاح بسموه لما يقرونه بعد ذلك فرآه اذا تقهرت العرب وتقدم الروم قال « ايه يا بني الاصفر » (يعني الروم) واذا مالت الروم وتقدمت العرب قال « وبيج بني الاصفر »^(١) ولم يكذب ابو سفيان يتم كلامه حتى صاح باعلى صوته آه فنظروا واذا بنيلة اصابت احدى عينيها فنفاها فقال سلمان في نفسه لقد نال هذا الرجل جزاءه . وخاف سلمان البقاء هناك فلا يصاب بنيلة فصار الى ناحية اخرى والحرب قد حسي وطيسها فرأى بريداً قادماً من جهة البلقاء فعرف صاحبة وكان قد عرفه في ابحاز فعلم انه بريدي فادم من المدينة بخبر جديد ففهرس سلمان في صاحب البريد فرآه مسرعاً وعلي وجهه امارات البغنة فناداه فوقف فقال سلمان هل تريد الامير خالد قال نعم ابن موقال في المعركة ولخني اوصلك الى فسطاطه فصارا معاً وعينا صاحب البريد على الجند وحركاته فلما رأى جند العرب ظافراً لم ينالك ان قال « ألم يكن مقدوراً لابي بكر ان يسمع بخبر هذا النصر قبل موتو » فقال سلمان وهل مات ابو بكر

قال نعم لقد مات وانا انما جئت بخبره

فقال سلمان ومن تولى بعده

قال تولى الامام عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم

فبنت سلمان لذلك الخبر وقال الا نظن وفاتة توثرت شيئاً في مجرى الاحوال
قال كلاً ولكن عمر ينضل ابا عبيدة على خالد وقد انذني بعزل خالد عن قيادة
هذا الجند ونولية ابي عبيدة على انني لا ارى ان ابلغهم الخبر قبل انقضاء الواقعة لئلا
ينفعلوا ويخالفوا فيما بينهم . فقال سلمان حسناً تفعل فقل لي ما الذي حمل الخليفة
عمر على نقل القيادة الى ابي عبيدة المأمة اشجع من خالد

قال كلاً ولكن ابا عبيدة رجل كريم الاخلاقى لئن سهل حليم رؤوف وهو اقدم
في الاسلام من خالد والقيادة تحتاج الى حكمة وتأن اكثر من حاجتها الى الشجاعة
قال سلمان نعم ولكنني علمت ان النبي سعى خالدًا « سيف الله » أفليس هو
احق بالقيادة . قال واكتبه (معلم) سعى ابا عبيدة « امين الامة » وكان يحب صحبته
والانصاق به (١) والحق يقال ان كليهما فرد ولكن للخليفة رأياً في ذلك فانه ما خط
علي خالد بسبب حكاية وقعت منه في ايام ابي بكر

فقال سلمان هلم بنا نجلس في مأ من ريشنا ننقضي الحرب لانهم اذا رأوك لا ينفكون
عن مؤالك حتى تغبرهم موت ابي بكر وعزل خالد
فاستحسن صاحب البريد الرأي وعرج مع سلمان الى شعبه ارابا وراءه جدها
فاخذ سلمان بمنهم عن كيفية موت ابي بكر وولاية عمر

فقال صاحب البريد لما احس مولانا الخليفة ابو بكر يدنو الاجل واسفاه عليه
دعا كاتبه عثمان بن عفان وقال له اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد ابو بكر
بن ابي قحافة الى المسلمين اما بعد » ثم اغشى عليه وكان عثمان وسائر الصحابة لا
يروون احق في هذه الخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم فاتم
الوصاية عثمان من عند نفسه فكتب « اما بعد فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب
ولم آلكم خيراً » ثم افاق ابو بكر من غشبه فقال لعثمان اقرأ فقرأ ما كتبه فكأبر ابو
بكر وقال « اراك خفت ان يخاف الناس ان يمث في غشبي هك » قال « نعم »
قال « جزاك الله خيراً عن الاسلام واملو » ثم قرأوا هذا العهد على الناس ولما قضى
ابو بكر بايع على عمر وهو الآن خليفة خليفة رسول الله وقد سموه امير المؤمنين تخلصاً
من تكرار لفظ خليفة لمن يتولى الخلافة بعد

وفياها في الحديث واعينها شائعة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقروا وعبر
العرب خندقهم واستولوا على اسلابهم وفرّ الروم ومن نصرهم من العرب المصنع وغيرهم
وتمّ النصر للمسلمين ولم يمسّ الآ القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الاثاث والحلى
والاسلحة وغيرها . فمضى سلمان وصاحبه نحو فسطاط خالد فرأياه عائداً وحوله الامراء
على غير نظام لما دار بينهم من احاديث النصر

فحالما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفة فبعث اليه فتبعه الى الفسطاط
فاذن بدخوله فدخل وانياً خالداً يموت ابي بكر وخلافة عمر وعراو وولاية ابي عبيد
فاوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل انسان (١)

اما سلمان فانه عاد الى مشاغلو بامر هند وثق عليه انهزام جيله وخاف ان يكون
قد قتل ثم علم ببقائه حياً قال بكنيته للدعاب الى حماد بطلمعة على ما علمه عن هند
ولكنه اراد استطلاع نية المسلمين ووجهه مسرهم قبل ذمها و فقتضى اياماً يبحث عن
ذلك فعلم انهم عازمون على دمشق فخاف على هند لعلمها انها فيها وودّ لو يعلم ابن
والدها وبما هو عازم عليه بعد شخوص العرب الى الشام فعول على استطلاع ذلك من
جيلة وقد علم بانهم امو فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيرهم فقول له انه سار
في جملة منهزمي الروم الى حمص والامبراطور هرقل فيها فنصد حمص

الفصل التاسع والسبعون

* خبر مفاجيء *

تركنا حماداً وعبدالله في بصرى ينتظران عود سلمان بخير البرموك ومقام هند .
وحماد كثير الفلق لا يرتاح له بال على هند وقد حدثته نعمة بشرى اصابها او بفشل
بتهوده على اثر ما قاساه في سهيل الحصول عليها من الاسفار والاطوار ونهباً له انها
خرجت من يدك وذهبت مساعبو كلها ادراج الرياح فمعظم علم الامر فانس في نفوس

(١) ابن الاثير وابن خلدون

مهلاً الى المسير اليها واستطلاع ما في نفسها من قبله ولكنه لم يكن يعرف مفرها فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين
وكان يتلامي بالخروج الصيد ونحوه وهو لا يبدأ له بال وإدرك عبد الله في ذلك وهو يجهل وينتظر ان ينفر حماد من هند ويلبس العدول عنها من تلقاء نفسه وقد فاته قول القائل

واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد بارد
فكان صاحبه الى الصيد ويكثر من محادثته في شؤون مختلفة إلا مسألة هند فانه لم يكن يفتحها قط . ولم تمض ايام حتى سمعا بانهمزام الروم في اليرموك فصارا يتوقعان سرعة رجوع سلمان

ففي ذات يوم نهض حماد صباحاً واخذ يتأهب للخروج الى الصيد وفيما هو يفتش بين اطلال وملاحه عثر على السرع التي البستة اياها هند يوم السباق ولم يكده ينظر اليها حتى اخذ قلبه لما مر في ذاكرته من حوادث الحب فعظم عليه احباسة في بصرى لا يعلم مقر حبيته مع ما ظهر له من جناء والدها وفنور والك (عبد الله) وما قام من المحروب مما زاد الامر اشكالا . فوقف برهة ينظر الى الدرع ويقلمها بين يديه وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليه اليأس وكادت الدموع لتناثر من عينيه وكان عبد الله غافلاً او متغافلاً عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة له وترك حماداً في الفرقة وحده

فلم يكده حماد يخلو بنفسه حتى سمع صهيل جواد غير جواده وغير جواد عبد الله فانبه بغنة واطل من النافذة فاذا براكب ترجل ودنا من الباب وهو في ريب من امر امله فاسمع حماد نظره فهو فلم يعرفه فلاقاه الرجل بالباب وقال هل هنا منزل الامير عبد الله العراقي

قال حماد نعم هو هنا

قال واين ابنة الامير حماد

قال هو انا ماذا تريد

قال ان بعض الناس في حاجة اليك ينتظرونك في دير مجبراه

فلما سمع حماد ذكر الدير خفق قلبه وانبعث بقدم القادم فقال للرسول اني سائر

الى هناك علي عجل فودعه وركب وعاد حالاً
فاسرع حماد في لباسه قبل ان يأتي عبدالله ولكنه لم يكذب يخرج حتى لقيه عبدالله
فاستغرب ركوبه قبله فاعتذر بانته بود الخروج لزيارة الدبر وحدث فاذعن له وهو في
ريب من الامر

فهبز حماد جواده ولم يقف الا امام باب الدبر فرأى هناك فرساً عرف انه من
افراس اهل صرح الغدير فاستبشر ودخل الدبر بطاول بعنقه ويحديق بعينيه فرأى
امراً عرفها لاول وهلة انها من خادمت همد وهي التي حملت اليه الرسالة الاولى
قبل ذهابه الى بصرى

فحينئذ وهمت بتقبيل يده فرد السلام واسان حاله يقول قولني ما خبرك . فمضت
امامة الى غرفة هناك فنبهها فلما وصلا الغرفة مدت يدها الى اثنائها واستخرجت مندبلاً
دفعته اليه وهي تقول ان . هديتي هداً تسلم عليك وقد ارسلت اليك هذا المندبل .
فقلب المندبل بين يديه فاذا فيه كتابة كتبت بالدم بالاحرف النبطية وهي قولها
« لم تكذب نوح بنجاننا من ذلك الثعلب حتى عاد الى صاحبه والدي وعاد الى مطايبه
الاول وانت تعلم ان الموت اهون مراساً علي من ذلك فادركني فل فوات الفرصة
فاني مقبلة في دمشق ولعل حامل كتابي ان يديك ايضاحاً » فلم يفرغ من
قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصه والتمنت الى المرأة بمطالعتها الخبر فقالت ان
مولاتي هداً مقبلة في دمشق في منزل قرب كبسة مريم وقد بعثني بهذا الكتاب
واوصني بان اسلمه اليك يداً بيد في هذا الدبر فبعثت الرجل حتى اتى بك من
بصرى وهذا هو الكتاب

قال نعم قد قرأته ولكنني لم افهم حقيقته المراد فهل ثعلبة الآن في دمشق

قالت كلاً بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بجمص

قال وما الذي جمعه بالامير جبلة وقد كنت اعلم انها متخاصمان

قالت نعم انها كانا متخاصمين ولكنها تصافيا بعد انكسار جنودهما في واقعة اليرموك

فقال حماد وكذلك يتصافى العدو ان اذا اصابها بسوء معاً . وماذا جرى بعد ذلك

قالت وكنا متبينين في دمشق مع سيدي همد ووالدتها وسائر الهاشمية كما ذكرت

لك فلم ندر الا وكتاب وارد من سيدي الامير جبلة الى سيدي الاميرة سعادى يندبها

بقرب قدومو مع ثعلبة الى الشام لعقد اقترانو على هند في اثناء مهادنة العرب فلم نتمالك
سودقي عند تلاوة الكتاب عن ان تخبر هنداً بو فاسرت بيدي هند الي واقعة الحال
وبعثني في هذه المهمة وواوصتني ان اني اليك الامركا وقع لتدبر في انقاذها فانها
تنفل الموت على الاقتران و

فلما سمع حماد ذلك الحديث ثارت الحمية في رأسه وانفدت نيران الغيرة
في قلبه وودّ لو ان له ابنة ليطير الى دمشق حالاً ولكنه لبت برهة يفكر ثم قال
للرأة وابن ثعلبة الآن

قالت هو مع سيدي جيلة يجار حص ولكنني اضنة افلح قاصداً دمشق
فازداد قلقاً واخذ يحظر في الغرفة ذهاباً ولباباً ثم قال لها ارجعي الى سيدتك
واخبريها اني قادم اليها على عجل وربما وصلت دمشق قبلك
قالت وماذا يؤكد لها اني اقيمتك وقصصت عليك الخبر ألا تذكر لها علامة
تبين لها ذلك

ففكر قليلاً ثم قال قولي لها ان صاحب البرد والخاتم قادم اليك وهذا يعني
فودعته وركبت وركب الخادم ورجعا
اما هو فوقف يفكر في حاله مع عبد الله وتردد بين ان يعود الى نصرى فيخون
بجيلة الخبر او ان يسير توتاً الى دمشق فليبت برهة في حيرة حتى خاف ان تفوته الفرصة
فذهب الى غرفة الراهب الشيخ فاذا هو متكئ في فحماً فرحب به وسأله عن امره فقال
لقد جئت بك بوصية ارجو ان تبلغها الى الامير عبد الله
قال وما ذلك

قال اذا ائتمنت قل له اني سرت الى دمشق لامر هام وساعود اليه فاذا استبطأ في
فليدركني هناك

قال سافعل ذلك ان شاء الله
وودعه حماد وخرج على جواده قاصداً دمشق



الفصل الثامن

* هند في دمشق *

فلترك حمادًا سائقًا فرسه الى دمشق ولتذكر ما تمّ له بعد سهرها من صرح الغدير فقد تركناها بعد وداع حماد حائرة منقبضة النفس وقد خافت ذهاب آملها ادراج الرياح لما آسنه من جفاء والدها على اثر ما سمعت عن نسب حماد . فلم يكذب يتوارى حماد عن عينها حتى احسنت بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت الى البكاء وكان والدها في شاغل بأمر اهل النصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد فجمعت سعدي الى غرفة هند وقد ادركت حالها وتوقعت بكاءها فأخذت تطيب قلبها وتوسّيها بالوعد وهند لا تزداد إلا بكاء فقالت سعدي لا يفيدنا البكاء يا ولداه وإنما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيه من الحكمة فاصبري وتبصري عسى ان تكون العاقبة خيرًا

فتهدت هند وصاحت بها « دعيني يا اماء لقد كفاني ما قاميتك من انواع الشقاء وما سمعتك من الوعود فقد كان عذركم في رفض جهلكم نسيه ثم قبيلته على غموض نسو فا بالكم وقد علمتم بشر يف اصاو تترددون اليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبه الله عليّ » قالت ذلك واوغلت في البكاء فبككت سعدي لبكائها ولكنها تجلجت وطببت خاطرها وقالت لها اسكتي ائلاً يسمع والدك صوت البكاء فيزيد المحرق انساعاً اما انا فاني ضامنة لك ما تريد فان حماداً لك وانت له فلا تجزعي واخذت تخفف عنها حتى سكن روعها ومسحت آملها ولبثت صامته وقد ذبلت عنهاها وتعكرت وتكسرت اهدايتها واخذت تراجع في ذاكرتها ما مرّ بها من الاموال بسبب الحب وكيف كانت قبل ذلك المباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى وكانت تعزّي بها ترجوه من لقاها الحبيب ولكنها تذكرت انه خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب فكتبت اليه ذلك الكتاب الى دير بجزيرة تلتمس صبره

وفي اليوم التالي سافر اهل الصرح جميعاً الى اليلقاء فاقاموا هناك الا جلة فانه سار الى الامبراطور هرقل في حمص فاصو باعداد الرجال من غسان وغيرهم وكان

ثعلبة قد ضعف امره وإهله جيلة لما قام بينها من الضغائن بعد وفاة المحارث ولكنه اصبح بعد ما عرفت عن نسب حماد مهالاً الى مصافاة ثعلبة لعله يتزوج هنداً فينجي ملكة من الخروج الى المناذرة . فلما احتاج الى الرجال من غسان اضطر الى استفاد ثعلبة فكتب اليه فجهاء برجاله وانضم الى رجال جيلة وما على ظاهر الفتور ثم علم جيلة بقدم المسلمين الى اليرموك وبصرى فخاف على اهله في اليلقاء فاستقدمهم الى دمشق واسكنهم بيتاً مع نساء بعض اصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كيسة مريم . واشتغل هو في حرب اليرموك وغيرها فلما قضى على جنده بالانهزام في وقعة اليرموك شعر بزيادة الميل الى مصافاة ابن عمه ثعلبة وذلك طبعه في جسم العيران بل هو جارٍ في سائر انواع الحيوان فاذا رأيت ديوكاً في منزلك لتخاصم ويتضارب وقد عمر عليك . مصافاتها اجدها في قنص وامنع الطعام والماء عنها فلا تلبث ان تراها قد اصطحبت ونصافت . كذلك الناس فانهم لا يزالون في خصام وتنازع حتى يصيبهم . مرة ويقطع جميعاً في مصيبة واحدة فتراهم قد تألت قلوبهم واشتغلوا عن المطابق . فلما اصيب الفساسنة في اليرموك اجتمع جيلة وثعلبة للنظر في احوال الجند وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلما رأى من ابن عمه مؤانسة وتقرباً زاده رقة وامتناساً فاجتمع قلوبهما . ولم تطل المصافاة قبل ان جرتهما الى حديث الاقتران فتعانتا وتذاكبا لما مرّ من الجفاء بينهما فاعتذر كل منهما عذاراً انغلها لنفسه وكان ثعلبة اكثرها مروراً بذلك لانه اصبح بعد موت والده ضعيفاً مردولاً . وقد علم انه اذا تزوج هنداً كان الطارث الوحيد لرئاسة غسان جميعاً وكان قد درس اخلاق عمه جيلة وعرف اهوال قلبه فتظاهرها بتطبيق على نيات حتى حجب اليه مصاهرة ووعده بهد

اما جيلة فانما حمله على مصاهرة ثعلبة استيقاظ الحكومة في بني غسان وانقاذها من المناذرة ولولا ذلك لما رأى في ثعلبة ما يقرب منه او ينضل به حماداً فلما تحقق ثعلبة رضاء عمه عنه سأله عن يوم الاقتران فقال جيلة ارى ان يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين

فقال ثعلبة ولكن تلك المدة لا حد لها يعرف وما ادرانا متى تنتهي وكيف يرتاح بالنا واهل البيت مقيمون في دمشق ونحن لا نستقر على حال فاذا رأى عمي ان نستعمل الاقتران كان ذلك اقرب الى جمع الشمل

فاجابه جيلة الى مرامو وكانا يجوارحص بعد وقعة اليرموك فكاتب جيلة الى سعدى بنيتها بنتيجة ما دار بينه وبين ثعلبة وبين الوجه الذي حملته على اخنباره دون حماد فقال « وفي زواج هند بـثعلبة نمتقي الملك في الغساسنة ونخلصه من خطر الوقوع بين ايدي المناذرة » واوصاها بالذاهب لعقد الاقتران قريباً ولم تتم سعدى قراءة ذلك الخبر حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تخشعا على هند اذا علمت بما نواه والدها واعادت تلاوة الكتاب بتعمق فادركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاع على حقيقة نسب حماد وشمرت انها في السبب في كل هذه المناعب فرأت انها مطالبة شرعاً بانقاذ ابنتها من مخالفة ثعلبة فضلاً عما في نفسها من الاحتقار له فاخذت تفكر في طريقة تصل بها الى ذلك والوقت ضيق لا يأذن بالصبر والتؤدة وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكاً وتساءلاً عن السبب فتجاهل وما زالت سعدى في مثل ذلك يومين كاملين حتى خافت فوات الفرصة فرأت اخيراً ان تستقدم حماداً على عجل وهند لا تعلم فاذا حضر شاورته في الامر . فكاتب الى حماد الكتاب الذي تقدم ذكره يجبر من الدم استغنائاً له على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد كما تقدم

الفصل الحادي والثمانون

* حصار دمشق *

ولم يتوار حماد عن بصرى حتى ادرك صعوبة المسير الى الشام وحده وهو لم يطرق تلك البلاد الا قليلاً . واقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمر في حوران واللبيا وكلا الصغين وعمر خطر وهناك طرق اخرى تخالف بعداً ووعورة فلم ير له بداً من اصطحاب الدليل فاختر دليلاً من سكان بصرى فسار شمالاً يقطع الجبال والودية والسهول والغابات لا ينال الا قليلاً ولكنه تاه من فاضاع يوماً كاملاً حتى انتهى الى الطريق فبعد بضعة ايام اشرف صباحاً على غوطة عظيمة وقد استقبلها بوجهه والشمس من ورائه فظهرت له ظهوراً واضحاً فاذا هي بساتين واسعة الاطراف فيها الاغراس

الشمش والرمان واللوز والبرتقان والخوخ والمفرجل والكرم وسائر اصناف الفاكهة
تجري بينها الانهار وتتناغي فوقها الاطيار وظهارة من وراء تلك الغوطة ابنة توارت
وراء الغبار . فوقف بنظر الى ما حوله وقد تعب جواده فسأل دليلاً عن تلك الابنة
وهذا الغبطان فقال انك يا مولاي في شوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهها
وما تلك الابنة التي تتبدي لك من وراء الغوطة الا دمشق النجماء مقر والي الروم
فقال حماد وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا

قال لا ادري ما هو ولعله غبار جنود الروم وقد خرجوا للمبايق او هو غبار
جنود المسلمين فقد بلغني بالامس من بعض القادمين من جهات اليرموك ان المسلمين
لما غلبوا الروم هناك عزموا على دمشق ولا يبعد انهم جاؤوها وحاصروها

فاستعاض حماد بالله وخاف ان يكون كلام الدليل صواباً فيمتنع عليه الدخول
الى المدينة وربما وقع بين ايدي المسلمين ابراً ولا يدري ما ينجم منهم فنذكر سلمان
لاحتماحه اليه في تلك الحال وتدم لمجيئهم منفرداً ولم ير لديو من دمشقيين ويعتمد عليه
غير ذلك الدليل وكان الدليل شاباً من عرب الغساسنة المقيمين في بصرى في العشرين
من عمره يتكلم العربية واليونانية فقال له حماد اتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن
قال اعرفها جيداً وقد اقيمت فيها اباماً وكثيراً ما جئتها مع والدي لوفاء

النذور او الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان

فقال حماد وهل تعرف كنيسة مريم

قال نعم اعرفها فانها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي الى
الطرف الغربي اي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند اول وصولنا المدينة الى
الباب المقابل له في الطرف الآخر منها في الغرب ويقال له باب المجابية

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستمع به في الوصول الى منزل هند
فاخذ يعطف في معاملته ويسترضيه بالاكرام والهدايا وهو يزداد رغبة في خدمته
وبعد ان وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابيه وسارا في الغوطة والاشجار
أظللها ولم يميرا قليلاً حتى غابت المدينة عنها ثم اشرفا على مرتفع اطلأ منه على
سهل امام دمشق فرأيا بالخيام والاطلام والخمول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء

فامعن حماد نظره فاذا هي اعلام المسلمين وغيامهم وتحقق ذلك ما شاهدك وراهما من مراض الجمال ومساكن النساء فايقن بعرقلة مساعيه وطم انه لن يستطيع الدخول الى دمشق وخاف المهرب الى مسكر العرب اثلاً يستغذوه فيلحقط بو ضرراً فوقف حائراً لا يدري ماذا يعمل وفيها هو بهم باستنهام الدليل عن سبيل يدخل به المدينة مع قرعة لجم ووقع حوافر خبول على المحصى في جدول جفت مأوؤ بين الأشجار فاجس لحيفة وحول عنان جواده نحو الصوت ونهبا للدفاع وار الدليل فانحدر بين الاشجار يتدوف من خلالها وحماد يصيح بسمه فلم يكذب بقف هنيهة حتى سمع صوتاً يناديو باسمه فتحت قلبه لاستنساوه بذلك الصوت فاجابه للخل « من انت » ثم ادرك انه صوت الامير عبدالله ولكنه استبعد ان يراه هناك وعهدت بو مقيم في بصرى ثم ما لبث ان رآه قادماً على جواده ووراءه فارسان عربيان فتحقق انه هو بعينه واحس بانفراج الازمة واستغرب مجيئة فاذا بعبدالله قد ترجل وضم حماداً وقبلة .

فقال حماد ما الذي جاء بك يا أبااه

قال جئت لحراستك يا مولاي وقد علمت من الراهب الشيخ انك شخصت الى الشام فاسرعت اليك لعلني بما قد تلقاه من العراقل في سبيل الدخول اليها وقد صادف ظني محلة وشكرت الله لجهتي لاني رأيت العرب محذفين بالمدينة وقد حاصروها حصاراً شديداً ولولا سابق معرفتي بخالد بن الوليد لما تمكنت من خدمتك وقد مضى عليّ يومان اطوف هذه البقاع ومعني هذان الفارسان يتوقع وصولك لتضربك الى خالد وقد اماناً ووعده بمعاظنتنا

ففكر له حماد واثني على غبرته وسأله عن حال المدينة فقال انها في حصار شديد لا يدخلها ولا يخرج منها احد . وانت ما الذي جرّك الى هذه المخاطرة . فنصّ عليه حكاية واطلعه على كتاب هند وانجبل ظاهر على وجهه

فحدثته قصة ان يثني عزمة عن هند ولكنه علم انه لن يصادف منه اصغاه فضلاً عما قد يلجئة اليه من التستر في اعماله فشجته وقال له لا بأس عليك يا ولدي فان ثعلبة لم يستطيع دخول المدينة ولن يستطيع

فقال وما الذي انباك بعدم دخوله

قال لم يبتني احد واكذني عرفت ان الغساسنة كلهم وفيهم جبلة وثعلبة متقبون في
حصن خوفاً من هجمات المسلمين وكان هرقل قد اتفق مع جند الروم لنجدة دمشق
فلم يمتطعوا دخولها فعادوا على الاعقاب^(١)

قال وما العمل الآن

قال هلم بنا الى معسكر خالد فانهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم
الا اذا احببت الرجوع الى بصرى فان ذلك آمن لنا وابقى

فصت حماد ولحمان حالوا يقول « كرف اعود عن دمشق وهند محصورة فيها »
فابتدرة عبدالله قائلاً لا بل ارى ان نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع امرًا ننقذ به هندا
من الخطر . فابرت اسرة حماد لما آتته من مجارة عبدالله فقال . نعم الرأي رأيك
فهم بنا . وهما بالمهبر نحو دمشق فقال الدليل هل ترى حاجة اليّ بعد الآن يا سيدي
قال حماد . نعم ارى ان تبني معنا لعلنا نحتاج اليك في شيء ونحن في مأمن ولك
طلبنا غير مكافأة

فاذعن وسار معهم وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبدالله بلحمان اهل
العراق لئلا يفهم الفارسان . هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق

قال هم مديدون وقد تفرقت فرقا احداها فرقة خالد عند الباب الشرقي في الشرق
والاخرى فرقة ابي عبيدة عند باب الجابية في الغرب والثالثة فرقة عمرو بن العاص
عند باب الفراديس وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر وفرق اخرى عند
الابواب الاخرى وهناك فرقة يقودها جبار عتيد يقال له ضرار بن الازور تطوف
حول الاسوار^(٢) ويخال لي ان الروم لا يمتطعون الصبر على الحصار

وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على معسكر العرب عند الباب الشرقي فرأوا الخيول
والجمال ترعى في البساتين ومعها العبدان والخدم ورأى النساء في اخيبتن يتحدثن
بامر الجهاد ومن مستنقات اليه اشياق الابطال الى ساحة القتال

فلما وصل المعسكر انط فسطاط خالد فدخلة عبدالله وحماد بلا معارض وكان
خالد جالسا في صدر المكان فرحب بها ودعاها للجلوس فنظر حماد الى من في
الفسطاط فرأى روماس صاحب بصرى الى جانب خالد وقد نعم بالعمامة وتزمل

بالرداء العربي وغادر القلنسوة والطبايسان وكان خالد قد استقدمه معه ليترجم بينه وبين الروم فتهيب حماد من مجلس خالد ومن احدق بو من الامراء وفيهم جماعة كثيرة لم يعرفهم ولكنه رأى الشجاعة والاقدام تلوحان على وجوههم فتقدم عبدالله الى خالد فعرفه بحماد فاثني خالد عليه وقال ان غلامك سيزداد زينة بالاسلام . فسكت عبدالله ولم يجيب

اما حماد فلم يكن همه الا هند وحالها في دمشق ولولم يطمئن عبدالله ببعد نعلبة عنها لما صبر على البقاء هناك ولكنه ما فتمى يفكر بجعله يدخل بها المدينة ابى هنداً ويطمئنها ويسعى في انقاذها

وبعد قليل استأذن عبدالله خالدًا بالخروج الى خيمة اعدت له فخرج وخرج حماد معه حتى اتيا الخيمة فقال حماد وما الرأي الآن انى ارى هنداً في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة

قال تهمل يا سيدي لعلنا نتوفى الى ذلك في القدر . وباتوا تلك الليلة وافاقوا في الصباح على اصوات الأذان والصلاة فقال عبدالله لا ارانا نستطيع شيئاً طالما كنا في هذا المعسكر فلم بنا الى معسكر ابي عبيدة عند باب الجابية لعلنا نؤانس خيراً فندبها كانتها من الجند وتركا الدليل في الخيمة حتى اتيا معسكر ابي عبيدة فدعاها الى خيمته وكان عبدالله قد عرفه وسبع بسهولة اخلافه وطول اناتوه ورغبته عن سفك الدماء فبعد السلام والترحاب قال عبدالله الا برى مولاي عنابة هؤلاء الروم بامر الصلح عسى انهم يسلون ويكنونكم مؤونة الحرب

قال ابو عبيدة الى اربغ الناس في ذلك ولكن خالدًا يطرب لمقارعة السهوف ومصادمة النبال

فقال عبدالله وما ضرّ لو انفذت اليهم احدًا يستطلع رأيهم وانت رئيس هذه الجنود وللمنصرف فهم

فقال لا ارى بأساً في ذلك الا انهم يحسبوننا خائفين
قال ارسلوا من يستطلع رأيهم اذ قد يكونون راغبين في الصلح وهم يحسبونكم لا ترضون به فاذا مار اليهم احد فليكن كلامه من عند نفسه
قال ومن لنا بمن يعرف لسانهم

قال لا اظننا نعدم وسيلة . وكان حماد قد تعلم شيئاً من اليونانية في اثناء اقامته
في بصرى وهمّ عبدالله بان يشير برسالة حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتاً فابتدته
حماد قائلاً اني اقدم ننس لك المهمة

فقال ابو عبيدة وكذلك تسهر اليهم مرّاً فاذا فزت بمهبتك انحجبت الدماء على يدك
والأ فاننا باقون على حالنا من الحرب . واعلم ان قائد جنود الروم هناك رجل اسمه
توما هو مهر الامبراطور هرقل⁽¹⁾ فسر اليه واستطلع رأيه من قبلك فاذا رأيت
فيه ميلاً الى التسليم انبئي

فسرّ حماد مهنته وخرج من فسطاط ابي عبيدة وعبدالله معه فناداهما ابو عبيدة
فنادا فقال لحماذ اذا سرت انت بقي والدك عندنا رهناً فان النفس امانة بالصوم . فرضيا
وخرج حماد وحده ونفي عبدالله هناك وقد ندم لما جرّه على حماد وعلى نفسه من الخطر
وضاق صدره وخاف العاقبة

اما حماد فانه حمل أهلاً ايضاً وركب جواداً واسرع نحو المدينة فلم يتبين الاسوار
حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسس بصلبانهم والجنود باعلامهم ورأى بعضهم يهيم
ان يرموه بالنبال فاشار اليهم عن بعد انه اذا جاء مسالماً فكيفل عن اذاه حتى اذا دنا
من الباب هاله عظمة فقد كان عبارة عن ثلاثة ابواب صفاً واحداً المتوسط منها كبير
ذوقنطرة واسعة والى جانبيه بابان صغيران وفي اعلى الباب صورة النسر الروماني
تحته كتابة باليونانية وفوق النسر جدار السور وثبو مرامي النبال والناس يتزاحون
فوقها تلالاً البسنتهم بالوانها الحمراء والزرقاء ما يدل على البذخ والترف وفوق رؤوسهم
المخوذ من الفولاذ . فناداهم باسمهم انه يريد الوصول الى رؤسهم

الفصل الثاني والثمانون

* داخلية دمشق وحال الروم فيها *

فنزل اليه جماعة فتعلمت له احد البابين الصغيرين فدخل بجواده وسلاحه فاحدق
بوالرجال فتهيب لذلك الموقف ولكنه تجاد وطلب ان يرى الباطن فيقوما فقالوا انه في قصر

بالقرب من كبسة ماري بوحنا فترجل ومشى في شارع عريض قد استطل على
استقامة واحدة يتدنى بالباب الاوسط ولا يكاد يرى آخره وارضه مرصنه بالحجارة
الصوانية الضخمة والى كل من جانبيه رصيف عريض اوله عند احد البابين الصغيرين
وعلى الرصيف عمد فحبة من الرخام متراسة على طول الطريق . ولم يكن حماد دخل
الدام قبل ذلك المحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدينة ما لم ير مثله في بصرى

فزال مائراً وحوله الخرواهل المدينة يطلون من الدرفات والنوافذ ينظرون
الده ويتحدثون باسم وهو يلتفت يمينه ويساره لعلة يرى هنأاً بينهم وكلما وقع نظره على
اشئ ظنها هي وكان يخترق الصفوف بلحظو لعلة يرى قبة او كبسة على امل ان تكون
كبسة مريم حيث نقيم هند حتى مرّ بكبسة علم من بعض حديث القوم انها الكبسة
المشار اليها فحتمت قلبه وشاعت عيناه وهو يلتفت الى ما حولها من النوافذ فرأى جموعاً
ولكنه لم ير هنأاً بينهم فعار والاس حوله يتحدثون بلسانهم وقد طلت الضوضاء يتخللها
قرقرة حوافر الخيل على البلاط

وبعد ان ساروا برهة انعطفت الى شارع آخر فاخر حتى وصلوا الى باب كبير
يحف به الخدم والاعوان فوقفت عند فعام انه باب القصر فانفذت بعض الحرس يني
الطريق بقدم الرسول فانباوه فامر بادخاله عليهم فجردوه من سلاحه فدخل
وركناه ترنمشان هول ما يتوقفة بلافاة ذلك الرجل فدخلوا الى صحن الدار فاعجبه
ما رآه في ارضها من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهنات آدميين وحيوانات
بالمنفصاء بالوان بدبعة متراسة قطعاً صغيرة بصناعة فائقة . وفي وسط الدار بركة
من الرخام يتدفق الماء منها . ثم دخلوا بم قاعة مفروشة بالرياش الثمين ما يبهر
النظر وعلى جدرانها وسقفها صور بعض القديسين وصورة الامبراطور هرقل بتاجه
وصولجانه وصور اخرى دينية . ورأى على النوافذ الاستار من الذهب والحرير المزركش
بالقصب والارض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رسوم الاسود والهنود والخبول في
أبداع ما يكون . فدعوه الى الجالوس هناك ريثما يخرج الهو الطريق فجلس يتوقع قدومه
وهو يهون على نفسه ويتجاد حتى سمع وقع اقدام كثيرة ورأى اهل القصر في هرج
وتراحم فعلم ان الرجل قادم ثم رآه وقد دخل القاعة فاذا هو طويل القامة عظيم الهامة
كثير الهبة وطيلسانه يكاد يجر وراهة وسيفه الى جنبه وهو في رداء قصير الى ركبته

كثير الألوان مزر كش بالذهب . وعلى رأسه قلنسوة اشبه بالناج مرصعة بالحجارة الكريمة
فحالما رآه حماد وقف اجلالاً له وتقدم نحوه منادياً فنظرتوما الرو بعينين حادتين بكاد
النور ينشئ منها فهاب حماد منظره واكتمه نظاهر بالتجلد وحياء بنجمة الملوك وصبر حتى
جالس وامر له بالجلوس فجلس حماد وهو يفكر في ما يبدأ به من الحديث

فابتدرة البطريق قائلاً العلك من هؤلاء العرب المقتربين
قال كلا يا مولاي اني غريب الديار وقد وقعت بين ايديهم بالاتفاق
قال لقد لاج لي ذلك من شكل لباسك فاني اراك حسن البزة وهؤلاء على ما
اعلم حفاة عراة ولم يسمهم البنا الا قرب آجالهم . هل انت على دينهم الجديد
قال كلا يا مولاي اني على دين النصرانية قال ذلك واستخرج من بين اثوابه صليباً
من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقه
قال العلك من الغساسنة

فتعجب حماد في الجواب مخافة ان يكون في تصريحه بالصدق ما يوغر صدر البطريق
عليه فقال اني غريب الديار ولكني مقيم في بصرى الآن
فقال ومن اي البلاد انت

فتذكر حماد الصلح الذي أبرم بين الفرس والروم على اثر الحروب الاخيرة فقال
اني من اهل العراق ولما تم الصلح بين ملكنا وجلالة الابراطور هرقل قدمت الى البلقاء
فقال توماوما الذي جاء بك البنا . قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجهه
باقطاب حاجبه وفسوه

فهاب حماد منظره واكتمه تذكر انه ملك ابن ملك فعادت اليه ائمة الملوك فقال
اذا اذن مولاي بخلوة بسطت له بها رأيتي وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية
فاشار اليهم فخرجوا وجلس البطريق الى جانبو . فقال حماد اقسم لمولاي بجمرة الصليب
والمعودية اني انما جئت اليو انوي له وادولة الروم خيراً
قال لقد صدقت قل ما في نفسك

قال اني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ماحة القتال واستهلاكهم
في سبيل الجهاد ففحنت ان بطول الحصار فيصيب هذه المدينة جهناً وقد عرفت قائد
جند العرب الاكبر وهو رجل . وبال الى الملم رغاب في حجب الدماء فقلت في نفسي لعلني اذا

توسطت في امر الصلح بينكما ان افعل خيراً فاحملت في دخول المدينة لاعرض هذا الامر عليك

فلم بكد حماد يتم حديثه حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما وقد اقطب حاجبيه وتللمل في مقعدك ونظر الى حماد بعينين براقبتين يكاد الدرر يتطابرها وقال وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (و اشار الى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر) ورأس الامبراطور هرقل لولم تسبق الى اقناعي بنصرانيتك لارتبت بجهنمة مفاصدك كيف تدعوننا الى صلح قوم ساقم الفقر البنا وغرم الجهل في منازلنا انخالم بحسبونا مثل حمامة بصرى التي خانت ملكها وسلمت اليهم ألم تكن لم عبدة برجوعهم عن اسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة اسابيع⁽¹⁾ (ثم نهض وهو يقؤل) اني ساعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم . قال ذلك وبتد على قبضة حمامة وهو ينظر في الغرفة غضباً فكبر ذلك الانتهاز على حماد وجرت دماء الملوك في عروقها وحدثة نفسه ان يفاظ له بالقتال واكبة علم اذا فعل ذلك انه مائت لا محالة فصبر نفسه وكظم غيظه وقال ان الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ولا اخال سبدي بحمدي اجهل بهلش الروم وشدة بأسهم واكثني ظننت في الصلح حجباً للدماء فاذا كنتم ترون الحرب فاتم اصحاب الامر

وكان توما لا يزال واقفاً فلما سمع مقالة حماد جلس الى مقعد آخر وبتد لا تزال على قبضة حمامة وقال لولا علمي بحمدي نيتك لما اقبوت عليك ولكنتك مع ذلك سنبقي في حاشيتي حتى ترى عاقبة الفرور وتري حال هؤلاء العرب في حربنا فاستعاذ حماد بالله من هذا السجن وكان في حسبانو ان يطلق سراحه فهنتش عن هند فندم على عجبته وظل ضامناً فسمع البطريرق ينادي بعض رجاله فلما حضر اوصاه ان يحفظ بالرسول ويستبقه في حاشيتو ريثما يأمن امراً آخر . قال ذلك وخرج ممرعاً غضباً وسيفه يفرقع على البلاط وراه وطيلسانه يكاد يتطابرها عن كنفه ونبي حماد وخنبره في القاعة برمة ثم اشار الخنبر اليه فخرجا واختلط حماد بالحاشية كواحد منهم لا يؤذن له بالخروج من القصر الا معهم فلبث بصبر نفسه وبتوقع القدر وفي مساء ذلك اليوم سمع اهل القصر يتحدثون بعزم توما على السلافة في كنيسة

يوحنا في صباح الغد وهو صباح الاحد وانه دعا رجال حكومتهم واعيان المدينة
للاجتماع فيها فأمل حماد ان يتنعم خبراً عن هند هناك

الفصل الثالث والثمانون

* كنيسة ماري يوحنا *

ولم يكذب يوحنا في صباح اليوم التالي حتى سمع دق النواقيس في مائركائس
المدينة ورأى اهل النصر يتهباً ون للذهاب الى الكنيسة فسأل خنبره عن ذهابه
فقال تعال معنا ان الصلاة لا تمنع عن طالبها ولم تمنع برهة حتى خرج توما باحسن
ما يكون من اللباس فمشى وحوله الاعيان والوجهاء ورجال الدولة بافخر الالبسة
من الحرير المزركش على اجمل الخانق واظهارها

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فلم يكن الا القليل حتى وصلوها فاذا هي
محاطة بمسور عظيم الارتفاع يوقع في النفس رهبة فدخلوا منه الى باب الكنيسة الجنوبي
وهو كبير مرتفع الاعناب فدخلوا منه الى صحن الكنيسة وهو فسيح مبسط بالرخام
الملون طوله نحو ٢٠٠ خطوة وعرضه ١٥٠ (١) وتخطيطه بو الاروقة وفيها الاعنة
المائة من الرخام الابيض النقي او الغرائيت الملون باحسن ما يكون من الدقة تعلموها
تيجان جميلة الصنعة على النمط الروماني اكثرها تحلى بالذهب حتى اذا اشرف على
المبكل حيث تقام الصلاة بهن ما على جدرانها من الصور البديعة بالالوان الطبيعية
وفيها الذهب فضلاً عن النقوش الجميلة من النصفاء البلورية بالالوان البديعة
وكان حماد كيفما التفت تمثلت له عظمة الروم في ابان مجدهم فبهت لانه لم يشاهد مثل
هذه الكنيسة قط

فادرك خنبره ذلك منه فقال له ما بالي اراك منذملاً . قال اني لم ار
مثل هذه الكنيسة في الشرق الا بانطاكية من هو الذي بناها من الملوك قال انه بناء
اقدم من الصراية عهداً فقد كان مبكلاً وثناً من ايام الآراميين الذين ورد ذكرهم
في النوراة بني على اسم اله من آلهتهم اسم رامون وكان له مذبح جميل امر آحاز ملك
يهودا ان يبني مثله في هيكل سليمان باورشليم

فلما استولت دولتنا الرومانية على الشام قبل النصرانية اتخذوا معبداً لاوثانهم حتى اذا تنصرت قباصرتنا جملة اخدم ارخادبوس قيصر كيسة على اسم يوحنا المعمدان وكان قد تخربت بعضه فرمته ونقش فيه صور القديسين ومن جملة ما نقشوه آيات من الكتاب المقدس ترى كثيراً منها على الجدران والسقف واطلك قرأت ما هو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليه هذه العبارة (باليونانية) « ملكونك ايها المسيح ملكوت ابدى وسلطانك يمد مدى الادوار » (١)

ولم يكذب بنهي الرجل من حكايتي حتى انتظم عقد الصلاة وقام الاساقفة بهاخرم وصلبانهم وعلت اصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وتخشع الناس ونظر حماد الى الجماهير مرام وقوفاً وقد ولط وجوههم المدفوق وفي مقدمتهم توما في كرسي من العاج المرصع بالفسفساء فوفة قبة من العاج بديعة النقش . ولما انقست الصلاة حول توما وجهة نحو الجماهير ويك صليباً من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وامامة طاولة عالية فوقها كتاب منقش بالذهب عرف حماد انه الانجيل الشريف والتفت توما وقد تغير منظره وهو يهني كلاماً بقوله فاصفى الناس فتح الانجيل ووضع بين اليسرى عليه وفي يده الصليب يدبر به وهو يتكلم وقال ما معناه « اهلوا يا معشر النصرانية ان عبي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب اليها بتمننا على دفع هؤلاء الاعراب عن اسوار دمشق واخراجهم من بلاد الشام فقد القوا الفتن فيها وما هم بالحقيقة الا قوم جباة عراة ساقهم فقر بلادهم وجذب ارضهم الى التماس الغزو من غياض الشام وخيراتنا وقد اطعمهم فيها ما لا قوة من ضعف حامية بصرى وقائدها روماس اليعين الذي فادى الانتقام الى التسليم . اما انتم فانكم رجال اشداء قائمون على الولاء فلا تبهمكم من امر هؤلاء شيء . ولا احرضكم الا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد ان لنا ان نقتله حالنا ونعتبر بما صار اليه الناس قبلنا وما هؤلاء العرب بشيء يذكر اذا نحن اتحدنا والآ فان العاقبة وخيمة فاذا رأيتم الخروج اليهم خرجنا واذقناهم مرة العذاب »

(١) الروضة الفناء للقسطاطلي . (ولما فتح المسلمون الشام اتخذوا بعض هذه الكنيسة جامعاً

ثم استقلوا جامعياً وعرفت بالجامع الاموي)

فقال رجل واقف بالقرب منه « مالنا وللخروج اليهم ونحن آمنون في اسوارنا
فلنسلمهم حتى نرى الاقامة فينقلب على اعقابهم »
فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفهم خيرة رجال الدولة فرأى التردد والخمول
مستوايين عليهم وكان بحسب كلام توما يثيرونهم حمية فاذا هولم يسمع منهم الا تمسمة ولم
ير الا تقاعداً وقد فقدوا الحمية بما انهم طافوا من الترف والبذخ والرخاء وفسدت
اخلاقهم وساءت آدابهم فتقابل ذلك بما آتته في جند العرب من الانفة وعزة النفس
والشجاعة ووحدة الكلمة فتمثلت له عاقبة الامر جلياً وايقن انها عائدة على الروم اذا
م لم يصالحوا العرب فليتب ينتظر ما يأتي به القدر
وطادوا من الكهنة وهم يخذلون بها سمعوه وحماد مبتغى يهتد وقد حاول
الخروج منفرداً الى كهنة مريم فلم يستطع لما ضيقه عليه توما من الحجر فأت
خفيه لم يكن يبارفه لحظة وخاف اذا خرج خلعة ان يرتكب ذنباً يستوجب عليه القتل
فصبر نفسه رغماً عنه وفي صباح الغد خرج توما ومعه رجالة الا الخنزير فانه بقي في القصر
وحماد معه طأس في خروجهم حركة غير اعتيادية فاستطلع الخبير فقال الخنزير ان
البطريق سار الى الاسوار يري العرب منها بالسيال ولم يأت السماء حتى عاد الروم
وفدهم توما ويك على عينه وقد جاءت الاطباء مسأل حماد عن حاله فقيل انه اصوب
بنيلة من نبال العرب فأت عينه (١) وانه تدهم من ذلك كثيراً فقال حماد في نفسه
فمسي ان يرجع الى صوابه ويرغب في الصالح

الفصل الرابع والثمانون

* باب الفرج *

ومضت بضعة ايام والحرب سجال بين الجاهلين والروم ينتظرون نجدة من
مراقل والنجدة تبع عنهم حتى اذا كان ذات صباح وحماد جالس في بعض غرف القصر
بهما سيفاً اذا جاءه رسول يستدعيه الى توما فسار اليه وقلبه يخفق مخافة ان يكون
في الدعوة ما يدعو الى الخطر

فلما دخل عليو رآه جالسا على سريره ، قطب الوجه فحياه فاجلسه نوما الى جانبه وهو يبش له فانس حماد منه رقة لم يعدها فهو . ثم اشار نوما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرها فقال نوما دعني اتص عليك خيرا اقلقي وهو حلم رآته امرأتي في منامها البارحة وهي حامل انا الحلم فانها رأت الدماء تتدفق عن اسوار دمشق والاسواق مزدحمة بالقتلى فأفافت . بن نومها مرعوبة فقصت علي الحمار وهي ترزعل وتقدمت الي ان اقبل بصاح مؤلاء العرب حجبا للدماء ولندساء في اقتراحها لاني راغب في الحرب الي آخر نسمة من الحياة واكتما ابنة الامبراطور صاحب الامر والنهي فضلا عن منزلها عندي وهي حامل . واذا ذكرتني عن ابي عمدة قائد فقه باب الجباية انه ميال الي السلم فهل تظن اذا خابرتاه بو يفعل ويحفظ عهدك .

فاستبشر حماد بذلك وانترجت كربته وقال لا ريب عدي يحفظو العهد اذا عاهد

قال اتذهب اليه وتستطلع رأيه في ذلك سرا وتعود بالخبر

قال نعم ذلك ما مورا طائعا فذن من يشدني الي الطريق ويخرجني من

الباب وانا اسير الي الرجل واخطبه

قال قد اذنا لك بذلك ولكني اشترط في امر الصلح شرطا لا بد منه

قال وما هو

قال اريد من مؤلاء العرب اذا دخلوا المدينة ان يفظوا الارواح ويحبوا الدماء

وان يتركوا لنا كنائسنا ولا يتفصلوا علينا منها كيسة

فقال حماد لا اظنهم يخلفوننا في ذلك وعلى كل فاني اسير اليهم بالامر واعود

اليك بالجواب . وكان حماد يكلم نوما وهو معجب بتنازله الي هذا الحد . على ان خيال هند

ما زال نصب عينيه فخطر له ان يغتنم تلك الفرصة للاستعانة به على تسهيل زواجه بها

وقال في نفسه لا اخالني ارى رجلا اقدر على مساعدتي من صهر الامبراطور وهو الآن

في حاجة الي فاذا استعنته ووعدتني فقوله نافذ على جيلة وغيره

فتوسم نوما في حماد توقفا وترددا فقال له ما بالك تتردد عليك خفت الذهب

الي العرب . قال كلا يا مولاي فاني اقيم المخاطر في سهول انفاذ اوامرك ولكر لي امرا

يهمني ليس هنا محل الكلام عليو على اني لا ارى بك من استعانتك فهو من اسهل الاور

عليك فاجعل مساندي في انمامو مكانا لي اذا فزيت في عند الصلح على ما تريدون

فقال توما وماذا عسى ان يكون طلبك
قال اخاف اذا ذكرته ان تضحك مني وتظنني مشتغلاً بعيبك الفلانة ولكن الامر
با مولاي قد اقلنتني ولا ارى بداً من استعانتك فيؤ فاعذرني

قال قل ما هو

قال اتعرفون الامير جيلة الغماني

قال اليس هو ملك الفماسة حلبنا

قال بلى يا مولاي هو هو بعينه

قال وما خبره

قال حماد اقول بالاختصار اني خطبت ابنته هنداً ثم ان ابن عم لها يقال له ثعلبة
يسعى في الحصول عليها وقد قبل والدها ولكن الفتاة لا تريد ونظراً لما اعهدت من
نفوذكم على جيلة ارجوان توعزوا اليه ان يعطيني الفتاة

فبسم توما وقد تذكر ابان شهاب وزمن عفتو فعذر حماداً وطرب خاطر وقال
انه امر سهل لك علينا نضاً فانبسطت نفس حماد ومال الى مشاهة هند وتبشيرها
بذلك الوعد وهم بائنان توما ان يرب بكيسة مريم اثناء ذهابه فاذا هو قد ابتدره
قائلاً « فانقدم اليك ان نمرع في مهنتك فتسير حالاً الى مخابرة ابي عبيدة فاذا
عقد الصاب وهدأت الاحوال زفنا اليك هدداً رضي والدها او لم يرض »

فشكر له حماد شكراً جزيلاً وقد عول في باطن سره على ان يجتال في المرور
خلسة ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيته فانها فقال لها اعدا مركبة من مركبات
النصر احملها هذا الباب العراقي الى باب المجابية حالاً وانفخا له الباب وليركب
جواده هناك ولما اتيا فانظرا رجوه فتى عاد ارجما يوا الى هنا
فقالا سمعاً وطاعة وخرجوا جميعاً وحماد آسف لم يرض في المركبة اذ لا يتأني له
الوقوف عند الكيسة

وبعد برهة اعدت المركبة فركبوها فجرت مسرعة وقد تعاطمت فرقعنها على بلاط
الشارع وخصوصاً الشارع المستقيم حتى اذا دنت من كيسة مريم خفت قلب حماد
وشاعت عيناه وهو يلننت نحو النوايد والدفقات لعله يرى هنداً او احداً من اهلها
فجاب رجاءه وتجاوزت المركبة الكيسة وهو يصيح بسمعه تخافة ان يناديه احد وتحول

فرقعة المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث ان وصل الى باب الجابية فوقفت المركبة وكان جواده هناك فركبة وخرج والعمّ معه حتى اتى معسكر ابي عبيدة فلم يستغث احد من العرب فسارنوا الى خيمة عبد الله وهي في الطريق فرآه جالسا حزينا لا يشغال بالو فعالما وقع نظره عليه نهض مسرعا وضمه الى صدره وسأله عن سبب غيابه فقص عليه الخبر فحمد الله على سلامته ثم سأله حماد هل سمع شيئا عن سلمان فقال لا لم اسمع عنه شيئا ولكنني ارسلت دابلتنا الى بصرى لعله يراه هناك فيخبرنا بمقرنا ولم يعد الدليل بعد . فاندغل بال حماد وليثا برهة يتحادثان في امر جيلة وجندك فقال عبد الله اظننا اذا تمّ الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة في العثور على سلمان فهيا بنا الآن الى ابي عبيدة ثم نهضا معا حتى اتيا فسطاطة فرحب بها فقص حماد ما اشترطه ثوما من امر الكنائس والاموال فقال ابو عبيدة لقد قبلنا بذلك فليرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط

فودعهم حماد وماد الى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل القصر فرأى اهله في هرج وضجة فسأل عن السبب فقيل له ان امرأة البطريق تونا تتخذ والبطريق عندها ينتظر ساعة الولادة^(١) فقال ابعثي اليه من بنته يرجوعي فأنأوه فخرج اليه وامارات الغنة ظاهرة على وجهه فقال ما خبرك فقال ان الامير ابا عبيدة قبل بالصلح فارسل من يعتمد لعقد . فامرته من كبار القصر ان يخرجوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لم اني مشتغل في ما نقاسوه ابنة الامبراطور من الام الخاض وعنى ان يأتي الفرج قريبا

الفصل الخامس والثمانون

* صلح الشام *

وكان الليل قد سدل نقابة فباتوا تلك الليلة واصبحوا وقد يمينا منهم بالالسة الرسمية وحملوا الاعلام والصلبان وساروا حتى اتوا باب الجابية وكان حماد اكثر

(١) ابن الاثير

الناس رغبة في ذلك الصلح اذلاً بقرب الوصول الى هند
فلما وصلوا الباب كان بعض العرب هناك وعليهم ابو هريرة قد قاموا يتظرون
وفد الروم فأنيأهم حماد بما اتى من اجله وفتحوا الابواب وخرج الوفد باعلامهم
وصلبانهم وقد تكسرت اشعة الشمس عن خوذهم وقلانسهم وارديتهم المختلفة الالوان
وصلبانهم المرصعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الابصار ومشي ابو هريرة ورجالها في مقدمتهم
حتى اتوا معسكر ابي عبيدة فلما اشرفوا على المضارب اوعز اليهم ابو هريرة ان يتزعط
الصلبان^(١) فتزعوا حتى وصلوا الى فمطاط ابي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة وعقد مجلساً
امضوا فيه الشروط وفي جملتها ان يتركوا الكنائس على ما هي . وكان في دمشق عدة
كنائس منها كيسة مريم وكيسة بوحنا المعدان المتندم ذكرهما وكيسة سوق الليل
وكيسة انذار^(٢) فكتب لهم ابو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسم فيو اسمه ولا
اثبت شهوداً فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبتهم ليدخلوا المدينة معاً فقام ابو عبيدة ومعه
٢٥ من اعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد . فلما وصلوا باب المدينة
وقف ابو عبيدة وقد تذكر امراً هاماً وذلك انه لعامة بيتو رضي بالصلح وقبل بدخول
المدينة مع عدوه ولم يخافه ريب من غدر او نحوه ولكنه لما وصل الابواب ورأى
الاسوار وفوقها الجند بالاسلحة تخوف وتحدرو فقال لمن معه من الروم اتنا نطلب منكم
الرهائن قبل الدخول فبقي منكم اناس رهناً عندنا حتى اذا حدث غدر ذهبوا ضحية
القدر . فتركوا بعضاً منهم وسار الباقون حتى دخلوا الابواب واقبلوا على الشارع
المستقيم وقد تراحم فيو الناس وفي مقدمتهم الاقمة والرهائن فلما دخل ابو عبيدة
استقبلوه بالاناشيد واعترضوا عن تخلف البطريق توما لاندهاوا باهل بيتو ثم مشوا
بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الاناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخاناً
حتى حجب عنهم اواخر الشارع فساروا يهتفون شكراً لله على حجب الدماء والادلام
تحقق فوق رؤوسهم وبينها اعلام المسلمين والروم معاً

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ وعن الاسلحة والشرفات رجالاً ونساءً واولاداً
وكلمهم فرحون بنجاة انفسهم واموالهم لان اهل البلد اكثر الناس نفوراً من الحرب لانها
عائقة عليهم بالخسارة في اي حال

لما حماد فكان مغتفلاً عن تلك الضوضاء يعلى نفسه بقرب اللقاء وعبد الله الى جانب وكان الموكب هائلاً ببطء فنفذ صبر حماد وهو ينشوف من خلال الاعلام والصلبان الى كنيسة مريم عن بعد وقد عوّل على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلصة ليرى هنداً ويبصرها بانتراج الازمة

الفصل السادس والثمانون

* خصام ابي عبيدة وخالد *

وفيا هو في ذلك تراءى له في آخر الدارع جموع قادمون نحو الموكب فراراً من اناس يطاردونهم فامعن نظره فرأى مع المطاردين اعلماً اسلوبة ورجالاً من المسلمين في ايديهم السيوف والرماح وقد امعنوا في الناس قتلاً ونهباً ورأى في مقدمة الاعلام علماً اسود عرف انه راية العقاب لخالد بن الوليد ثم ما لبث ان رأى الفارين يتقدمون حتى التفت بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالدها فلما رآه ابو عبيدة عجب لامر وناداه قائلاً « كف يا ابا سلمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فصاح فيو خالد « وما الصلح لا صلح الله بالم وبين لم الصلح وقد فتحها بالسيف وخضعت سيوف المسلمين من دماهم واخذت الاولاد عبيداً ونهبت الاموال » فقال ابو عبيدة « اعلم ايها الامير اني ما دخلتها الا بالصلح » فقال خالد « انك لم ترزل مغتفلاً وانا ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لم حماية فكيف صالحهم »

فقال ابو عبيدة « اني الله ايها الامير والله قد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيو وكنت لم الكتاب »

فاعترضه خالد وارتفع الصباح بينهما وقد شخص الناس اليها واصحاب خالد لا يزالون يقتلون وينهبون وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي وهم لا يعلمون بصالح ابي عبيدة ولكنهم اغتصبوا الفرصة باشتغال نوما ورجالها بالفصر والولاد

فقال ابو عبيدة « وانكلاء حضرت والله وتنتض عهدي » وجعل يقسم على المملئين ان لا يمدوا ايديهم نحو الطريق الذي جاء هو منه حتى يرى ما يتفق هو وخالده عليه فمكثوا عن النهب واجتمع رجال المملئين هناك وتنازحوا في الامر فتم الرأي على النبول بالصنع على ان يخرج توما وهرمس (وهو والي على نصف الدمام من قبل توما) وفيها هم في الجدل وجاء توما وهرمس وذلك ابا عبيدة بالعهد وقالوا اذا ايتم صلواتنا فاننا نخرج من المدينة وتكون في ذمتكم نحن واملائنا واسوالنا وبعد جدال طويل قبل خالد بذلك (١)

فاخذ توما يتأهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع ما دار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتبك في امره وعلم انه لن يرجو منه نفعاً ولكنه عوّل على دخول الكيسة ومقابلة هند فاستأذن عبد الله فقال لهم ندخل معاً وتركا النار في تراجهم وخرجوا نحو الكيسة فاذا هي مغلقة فلتسما مفتاحها فظن اللواتب انها يريدان بها اذية فذكرهما بالعهد فقالا اننا لا نريد امراً غير الزيارة ونحن مسيبيون . بلكم ففتح لما الباب فسأل حماد عن قيم الكيسة فنقدم اليه قسيس شيخ وكان حفيظاً في الهيكل وهو يخاف العتق فلما رأى الرجلين برسمان علامة الصليب اطمان بالة فسألها عن مرادها فنقدم اليه حماد وقيل به وقال هل بقيم في هذه الكيسة احد من الغرباء . قال القسيس لم نخرج العادة ان بقيم الناس في الكنائس قال وانما اريد هل بقيم احد في بعض الغرف التابعة للكيسة

قال لا يا سيدي ولكن اهل ملك غسان وكلمهم من النساء كنن مقبات عندنا ومعهم الخدم ولكنهم خرجوا جميعاً منذ بضعة اسابيع فاضطرب قلب حماد وقال وقد ظهرت الفتنة على وجهه والى ابن خرجوا قال لا ادري ولكن رجالاً جاؤا من قبل الامير جيلة اقاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعاً . فوقف حماد برهة صائتاً وقد نسي موقفه وغلب عليه اليأس وجعل يفكر في ماذا عسى ان يكون سبب رجوعهم . فاعاد السؤال ووضحه فلم يهتم شيئاً آخر فقال وهل تذكر انهم خرجوا من هذا المكان قبل حصار المدينة او بعد قال اظنهم خرجوا قبل الحصار

فبغت حماد وقد اسقط يده ونظر الى عبدالله كأنه يستطلع رأيه فقال عبدالله
اطن الملك جبلة انفذ في طابهم لما سمع بقرب الحصار فصار طاب اليو
فتماظم الهأس على حماد وكره في الامر يميراً فلاج له ان هنداً لا تخرج على هذه
الصورة ما لم تترك له خبراً او اشارة وخصوصاً بعد ان كتبت اليو تستعجل قدومه اليها
فقال للنسب الا ترشدنا الى المنزل الذي كان يقيم به اهل جبلة

الفصل السابع والثمانون

* الاستطلاع *

قال النسب سمعاً وطاعة وخرج بها من بعض ابواب الكبيسة الى زقاق ضيق
لكه مصرف بججارة عظيمة شأن ارفة دمشق على اختلاف عرضها واستطرافها من
الزقاق الى منزل لا يظهر من باب وسوره انه يلق بمكي الملوك على انهم ما لبثوا ان
دخلوا داره حتى تبييت لهم منزلة من الاقان والزخرفة ولكنهم لم يسمعوا غير خريز
الماء في بركة تدلت فوقها اغصان الصنصاف وقاحت رائحة الازهار لما احاطوا به
جوانب المكان من اغراس الرياحين فوقف حماد وهو يتوقع ان يرى احداً او يسمع
صوتاً فلم يوافق غير المكوت فمشى الى باب رآه في صدر الدار ففتحه وصعد في سلم
ومعه عبدالله فانتهى الى رواق مشى فيه فاطل من نافذة مفتوحة تطل على غرفة مقفلة
الابواب فتناول بعضه يستطلع ما فيها فرأى شجراً منزوياً في بعض جوانبها عليه لباس
النساء فنادها فصاحت وصوتها يرتجف فانه ليس في هذا المكان احد من الرجال
فاذا كنتم تريدون النهب فاشفقوا على النساء

فاخرج قلب حماد لما سمع ذلك الصوت وتسم منه شخصاً يعرفه فقال لا تخافي
يا خاله فانحن من الاعداء ولا تريد بك شراً وانما نحن نسأل عن اهل ملك غسان
فلما سمعت المرأة صوت حماد دنت من النافذة وتفرست فهو فعرف انها خادمة هند
التي حملت اليو الكتاب في دهر مجبراه ولما هي فحالما عرفته قالت الملك سيدي حماد

فقد كدت التي حنني في انتظارك

فقال انهي الباب ولا تخافي واخبريني خبرك

ففتحت الباب وهمت بيك فقبلتها وقالت والبقعة لا تزال ظاهرة على وجهها وقد
امنع لوتها « لقد خرج اهل الملك من دمشق منذ اسابيع وتركوني هنا في انتظار
قدومك لاطلعتك على خبرهم فطال غيابك حتى يثمت من لفيك ثم حوصرت المدينة
ووقع ما وقع فيها من القتل والنهب . ولما سمعت وقع اقدامكم الآن حميتكم من العرب
الفاحين فحننت واخبيت في هذه الفرقة فنسركر الله على ما حصل »

فقال حماد اخبريني يا خالة ابن سيدتك هند

قالت لقد خرجت من دمشق مع والدتها وماترا الخدم بامر والدتها قبل الحصار
قال واين في الآن

قالت اظنها في بيت المقدس لان سيدي الملك بعد ان انفذ اليها ان تذهب
للاقتران بالامير ثعلبة عاد فكتب الى سيدي سعدي ان تأتي صريعا الى بيت المقدس لانها
ابعد عن الخطر من دمشق والظاهر انه سمع بعزم العرب على حصارها . فمدق ذلك
على سيدي وخافت ان تأتي انت ولا تعلم بصيرها فاسة فبني ما لاقص عليك الخبر
فنظر حماد الى عبد الله وقال ما الرأي يا امير

فقال لا حيلة في الواقع يا مولاي فان مقامنا في دمشق لا يجدينا نفعا وارى ان
نغتنم اول فرصة للغروج الى بيت المقدس

فالتفت حماد الى المرأة وقال لها وانت ماذا تفعلين

قالت اذا بقيت حية سأذهب الى بيت المقدس

قال ان الحرب قد انقضت وتم الصلح فلا بأس عليك ولكنني لا اظنك تستطيعين

الدعاب وحدك وانت امرأة

قالت انما استطع ذلك لاني امرأة لان هؤلاء العرب شديدو المحافظة على

الاعراض فاذا لقيت احدا منهم كان لي عونا في ايصالي الى حيث اريد

فقال اوصيك اذا اتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك ان تقر بها مي

السلام وتخبرها اني قادم اليها على عجل ان شاء الله

قال ذلك ونحوه مسرعا وعبد الله معه ثم قال طينا بالاسراع الى بيت المقدس

قال عبدالله علينا قبل الذهاب ان نعمل امتعتنا فانها في معسكر ابي عبيدة
قال لا بد لنا من الانتظار ريثما يبدأ الليل ونسكن الاحوال فنودع ابا عبيدة
ونشكرك على حسن وفادتك ونصرف واعاءة بصحبنا من يدفع عنا خطر الطريق
فخرجنا من المنزل فلقينا التميمي فودعاه وخرجنا الى الشارع وكان الناس قد
استأمنوا وهدأت الاحوال فصارا نورا الى قصر الحماكم فرأيا المسلمين قد تخللوه ووضعوا
أيديهم على ما فيه وامل توما يحملون الاحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال
فأسفنا لما انتهت البو حال هؤلاء ونذكر حماد اذ نفا توما يوم لقينا في ذلك القصر
فاعتبر رأمل

وقضا بنية ذلك اليوم والناس في هرج بين مهاجروهم نعلم ولم يستطعنا مقابلة
ابي عبيدة ليخاطبنا بشأن الذهاب

وفي اليوم التالي دخلا عليه فاذا هو قد ازداد رفعة بعز البصر وكان جالسا على
علي كاتيو وهو يكتب الى الامام عمر بن الخطاب فتحيا حتى انتهى من الكتاب فدخلا عليه
فرحب بهما وش لما وخاطب حمادا قائلاً انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب
الثناء عليها لانك كنت الوسطة في حجب الدماء

فنجل حماد لذلك الاطراء وقال اني لم افعل شيئاً استوجب عليه ثناء وان ما
حصل من الصلح انما كان من رغبة الامير في السلام ثم هم حماد ان يذكر له عزمه على
المخرج الى بيت المقدس واكته لم ير شيئاً الى ذلك فصمت فادرك عبدالله ذلك فيو
فخاطب ابا عبيدة قائلاً لقد اتينا يا مولاي بتمتلك بالفتح الذي تم على يدك ونسأ ذلك
بالانصراف

فقال ابو عبيدة والى ان تصرفون

قال ان لنا في بيت المقدس املاً نريد النزوع اليهم

ففكر ابو عبيدة مدة ثم قال لم بأن زمن الانصراف بعد فالليل في ضاقتنا اياماً
نحمن وفادتك بعدما عانتم معنا في زمن الحرب ثم تصرفون ومعكم رجال منا حتى
تبلغوا ما منكم

فلم يغيراً عبدالله على مراجعة ابي عبيدة وابث صامتا على نية العود الى الامتعتان
في فرصة اخرى ولكن استأذنه في الخروج الى المعسكر ليجتول على الامتعة

فقال ابو عبيدة ان امتعكم وخبوكم في ما من مع امتعتنا في المعسكر ونحن خارجون اليها لاننا لانحب الاقامة في القصور خوفاً من الانغماس في الترف

الفصل الثامن والثمانون

* مهمة خطرة *

وفي القد خرج الجميع الى المعسكر وقد اقتسموا الغنائم ونزل كل في خيمته وكان عبد الله يتوقع عود الذليل من مهمته التي سار فيها الى بصرى فلم يعد فعلم انه انما رغب في الذهاب فراراً من غائلة ذلك الحصار فلما رما قلتان على سلمان وهند فحاولا مخاطبة ابي عبيدة مرة ثانية في المسير الى بيت المقدس فلم يلكا فرصة لاندخالو في تسير الجند لفتح ساحل الشام وغيرها من البلاد فصبوا ريثما تسخ الفرصة فمضت ايام واما على ذلك حتى اصبحا ذات يوم واما على مثل الجمر في انتظار الخروج الى بيت المقدس يتوقعان حملة يخرجان بها قرأ يا بعض الجند في هرج وسارعة فخرجوا فاذا هما بهيجان قد دخل المعسكر وعليه غبار الاسفار فعرفا انه رسول من الامام عمر الى ابي عبيدة ثم رأياه ترجل ودخل فسطاطه فلبثا ينتظران ما جاء و

وبعد هنيهة خرج الرسول وجاء بعض الفائمون في خدمة ابي عبيدة والتمسوا من عبد الله وحماد الذهاب الى فسطاط الامير حالاً فاجمما خيفة اثلا يكون في تلك الدعوة ما يدعو الى التأجيل

فلما دخلا رأيا ابا عبيدة في صدر الفسطاط والى جانبه خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وغيرهما من الامراء فعيام فامرهما بالجلوس

ثم قال لهما مخاطباً عبد الله « لقد انأني اخي (واشار الى خالد) انكم من اهل العراق ولم اكن اجهل ذلك ولكنني دلمت منه انكم من امراء العراق العارفين باحوال تلك البلاد وقد شاهدنا من اخلاصكم في خدمتنا ما دانا الى تكليفكم امراً نتموجون عليه الاجر والثواب

فازداد عبد الله خوفاً من تلك الدعوة ولكنه نظاهر بالارتياح وقال اننا في

خدمة الامير طوع ارادته

فقال لقد جاءنا رسول مولانا امير المؤمنين الآن يدعوننا الى نصره اخواننا في العراق وان ننفذ اليهم جنداً من خبرنا تلك الارض^(١) فاريد ان تسير مع تلك النجدة وفي ذهابكما خبركما وخدمة مجند الجهاد

فقال عبد الله ان امره مولاي الامير مطاع واو اتذني الى حيث اراد لفاعلت ولكنني خرجت من العراق منذ اعوام ولا ادري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فاخشى ان لا يكون في ذهابي فائدة لكم . وزد على ذلك اننا ممتنعوا الببال على بعض اهلنا في بيت المقدس

وكان خالد مصغياً لما يهدون من عبد الله وكان يتوقع ذلك الجواب منه فقال له لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صالح الحيرة انك صاحب عقار وكلمة نافذة وقد حمينا لك مالك واهلك في ذلك الصلح فكيف تعذر عن الذهاب . قال خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه فخاف عبد الله عاقبة اعذاره فابتدره قائلاً اني لا اعذر عن الذهاب فان ذلك فرض عليّ ولكنني اود ان اتفقد الذين في بيت المقدس ايضاً

فقال ابو عبيدة فليذهب ابيك حماد الى بيت المقدس ونحن نصحبه بن بوصلة اليها وسرانت الى العراق وكن وانفأ اننا نحاظ على اهلك ووالدك محافظتنا على اهلنا لانك في ذمتنا واعلم ان سفرك الى العراق لا يطول لان الفتح قريب ان شاء الله فاذعن عبد الله صاغراً اعدوا ان تردده ربما حاج غضب خالد لما بهام من شدته ونسارعه

اما حماد فشق عليه فراق عبد الله ولكنة نأسى بقرب مشامته هند

فقال عبد الله هل يا امر مولاي بتسيير والدي هذا قبل خروجي

قال نعم سنسير في الغد واما انت فلا بد من بقائك بضعة ايام رثماً يتأهب الجند للذهاب

ثم خرج عبد الله وحماد الى الحيرة لا باويان على شيء وياتنا تلك الليلة لا حديث لهم الا حديث ذلك الفراق وفكراً طويلاً في الفرار ولكنها خافنا العاقبة فضلاً عما

حسبنا من نجس العيون وما قد تكون عاقبة الفرار لو قبض عليها . ولو كان حديثها مع ابي عبيدة لمان التخاص لما يعلمانو من -هولة اخلاقو اما خالد فانه سربح الانتقام وفي الغد ركب حماد وودع عبدالله وتواعدا على اللقاء . في بيت المقدس واذا اضطر حماد للخروج قبل محي . عبدالله فابتكر له خبراً في كبسة القيامة هناك . ثم سار حماد الى ابي عبيدة فودعه فقال ابو عبيدة وهو يتهم سر بجراسة المولى ونرجوان نلاقبك قريباً في بيت المقدس وقد نحتاج الى خدمتك هناك مثل حاجتنا اليها في دمشق . فادرك حماد انه يدبر الى قرب ذماتهم لحصارها فجاهل ولم يجب فامر او عبيدة ببعض الرجال بسبرون معة لحمايتو اثناء الطريق فسارو معنا عبدالله تراعيانو حتى توارى اما هو فلما ابتعد عن دمشق تذكر هدانا وحالنا وخبل له انها تزوجت بثعلبة فارعدت فرائصه واكده قال في نفسه انها لو كانت ثقيل و لما انتذت في طايي الى دمشق ثم احتبقت خادمتها لاستقداي الى بيت المقدس ثم فكر في طول مدة غيابو فخيّل له انها يمست من قدور و فاضطرت لجرارة والدها والقبول بثعلبة فنضى معظم الطريق في مثل هذه المهاجس

الفصل التاسع والثمانون

* خيبة المسمى *

وصل حماد بيت القدس فنزل في دير بالقرب من كبسة القيامة حتى اذا استراح قليلاً خرج للبحث عن هند في دير القيامة نفسه فاخذ يفتش ويمتطلع لعله يتنسم خبراً فلم ير احداً يعرف جبلة ولا اهله ولم يكن حديث اقوم الا الحرب وعواقبها وكلهم خائفون ما سمعوه عن سقوط دمشق فقال في نفسه لأذهب الى قيم ذلك الدير لعله يبيننا نبأ وكان بونانياً فسار اليه فقال له القيم ان اهل الملك جبلة نزاح هنا اياماً ولكنهم ما فروا منذ اسبوع
فاجل حماد وقال هل ما فروا جميعاً نساء ورجالاً
قال لقد كان النساء فقط عندنا ولكن رجالهم انط منذ اسبوع واقاموا هنا ساعات قليلة ثم اقلعوا جميعاً الى حيث لا يعلم احد

فقال حماد ألم يتركك شيئاً من امتهم هنا . قال تركت منها ما لا قيمة له من ثقب
الاحمال هبة المدبر ولم يأخذ إلا ما خف حمله وغلا ثمة
فبنت حماد لذلك الخبر وقال في نفسه وهل ثعلبة معهم ثم لم يردّها من اعادة
السؤال فالتفت الى القيم وقال له اتقدم اليك ان تعبرني سمعك ولا يتقل عليك
سؤالي لان هؤلاء القوم بهمني امرهم وقد كنت في دمشق اقاسي عذاب الحصار فلما
تم صلحها انبت لافتش عنهم فهل عرفت اشخاصهم جيداً
فاهتم القيم لمحدث حماد عن حصار دمشق وكان شديد الرغبة في سماعه
فقال له وهل عابنت الحصار بنفمك ورأيت جند العرب رأي العين
قال نعم رأيتهم واخجلطت بهم وسمعت احاديثهم
قال الا قصصت علي حديث الحصار
فاضطر حماد ان يقص طوبو الخبر مختصراً استجلاً لارضاء لعله يصبر على استلوه
فلما انقضى الحديث امتنع لون القيم وهو راهب طاعن في السن فقال وما ظنك بهم
هل بأتون البنا

قال اظنهم بأتون اذا لم يجدد الامبراطور هرقل الهمة في التجديد والترميم فان
هؤلاء العرب اشداء صبورون على القتال ولكن الله مجي عباده . فاخبرني الآن عما
تعرفه من امر اهل الملك جبلة

قال اما وقد اصححت لي عن رأيك بعد ان خبرت الامور فاخبرك يا ولدي ان
سقوط دمشق اوقع الرعب في قلوب رجالنا فاصبح كل منهم خائفاً لا يأمن على نفسه
ولا اهلوه وكذلك جبلة فانه اسكن اهله في هذا الدبر وفي عزمه ان يعقد لابنته الوحيدة
على ابن عمها فهل بينك وبينهم قرابة

قال ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الامير جبلة شغلاً هاماً قال ذلك وهو ينتظر
بقية الخبر ليري ماذا تم من امر الاقتران
فقال الراهب ولكنني لحظت من الفتاة نفوراً شديداً من ابن عمها هذا وكان
والدهما قد كفني باقناعها

فارت الفتوة في قلب حماد واصبح كله آذاناً لسمع نهاية الحديث فقال وهل
انقصت

قال كلاً يا ولدي لا يبا كنت شديكة النور وكنت اذا سالها اجابني والدموع
مل عينها تعذر ووالدتها لا تلومها

ولم يتم الراهب كلامه حتى نثار الدمع من عيني حماد فضاغل باصلاح كوفته و
اخفاء لمواطنه وقال لقد هميت ابرهه انقاة وارى من الظلم ان تجبروها على الافتران
برجل لا تربك

قال الراهب لقد صدقت يا ولدي ولذلك فان العناية الصمدانية حلت هذا
المفسك على امون سبيل

فقال حماد وكيف ذلك

قال الراهب ان ابن عمها المفسك الو قتل في بعض المواقع الاخيرة
فاجفل حماد اجفال البغية وقال هل توقفت ذلك يا مولاي لعل الذي قل
هو غير المخاطب

قال بل تحففت انه هو لاني سمعهم يتحدثون بمكائيتهم وكانهم يهشون هداً بذلك
فقال حماد الا تذكر اسمه

قال اذكر ان اسمه تعلقه

فايقن حماد بنجائهم من ذلك الماظر ولكنه ما زال في ريب من مقرهه والدماع
فقال وماذا تعلق مد ذلك

قال الراهب وقي اهل جيلة عندنا بعد ذلك اباناً حتى شاع سقوط دمشق
وانصر المسلمون فوقع الرعب في قلوب الناس وجاء جيلة ومعه بعض الحاشية من
رجال فاسرعوا في حمل امنيتهم ما خف حمة وغلا ثمة وخرجوا لخروج الهاربين من
الموت ولا ادري الى ابن

فوقف حماد صامناً وقد تحير في امره لا يدري ماذا يعمل فدعر بافتناره الى
عبد الله وسلمان وهو بعيد عنها فاظلمت الدنيا في عذو وضاق صدره فنهض للحال
فودع الراهب وانصرف الى حجرته وهو غارق في لجاج المحاجس لا يفتة جهة مسيره



الفصل التسعون

* سلمان *

وكان حماد في أثناء مسيره الى الدير نائماً في بجمار الهواجس بفكر تارة في هند وطوراً في سلمان وطأونه في عبد الله حتى عظم عليه الامر وخيل له ان المسالك سدت دونه فضلاً عما كان يمرض سبيله من احوال الحرب وقد اصبح اهل الغمام في هرج على اثر سقوط دمشق واخذ في المهاجرة زرافات ووجداناً الى مصر او بلاد الروم او غيرها فوصل الدير وهو لا يدري انه وصل حتى اذا كان على مقربة من غمرته رأى عند بابها رجلاً كان جالماً ثم ممرعاً بملابته وحالاً وقع نظره عليه علم انه سلمان فناداه باسمه فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقاءه فقال حماد املاً بك ايها الصديق لقد اطلت الغيوب علينا فاذاقتنا من الوحدة ما لم يبق لنا سبراً عليه فنجعل سلمان لذلك الاطراء وقال لقد غمرتني ايها الملك بفضلك فدعوتني صديقاً لك وما انا الا من بهض خدمك

فلما سمع حماد لفظ الملك تملمت له حالته وتذكر حكاية النذر والانتقام وما شغله عن ذلك من شواغل الغرام وما انتهت اليه حالة من الهأس حتى كان الايام قد كتبت عليه الشقاء فلا يكاد يقرب من نصيبه حتى يفاجئه عارض يحول دون مراده وانقضت به المحادثات الى ضياع كل آماله بفرار جيلة واهله الى حيث لا يدري احد ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يتخللها بعض النور ما يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورتو فزاد استئناسه به ولما رآه ينكر عليه ذلك الاطراء مال اليه وصانحه وقال له لا بل انك صديق واعز من الصديق وما نحن في معرض الانساب وانما يفضل احدنا الآخر بما طبع عليه من مكارم الاخلاق والتهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلك ما بهز مثاله

فاطرق سلمان خجلاً ومديها حتى دخلا الحجر وكل منهما يتوقع سماع حديث الاخر فلما استناب بهما المقام قال حماد اين كان مقامك كل هذه المدة وما الذي جاء بك

الى هنا حتى التقينا على هذه الصورة
قال سلمان ان لقاءنا يا سيدي لم يكن على سهيل الصدفة ولكنني قطعت القنار
واطلمت البعث حتى علمت بمفرك وجئت على ما ترى . وقبل سرد حديثي الطويل
ابشرك بموت ثعلبة

فتنهذ حماد وقال لقد عرفت ذلك يا سلمان واكنة جاءنا متأخرًا وقد كادت
تنقطع منا الآمال

فقال سلمان وكيف ذلك

قال لاني سمعت بمقتل ثعلبة وفرار جيلة في وقت واحد في هذا اليوم

قال سلمان واي فرار

قال لقد تمخضت فرار الامير جيلة من بيت المقدس بامارة الى حيث لا يعلم احد
وقص عليه مختصر الحديث من يوم مجيئهم الى دمشق وسقوطها وساعدهم بمقام هند في
بيت المقدس وما سمعه من قيم الدبر

وكان سلمان شاخصاً ببصر مصيحاً بسموه حتى اتى على آخر الحديث فامتقع لونه
وظهرت عليه مظاهر الاسف والبطل ولبث صامتاً كأنه اصيب بصدمة وكاد الدمع
بمناثر من عينيه ثم تنهد وقال الم تعلم الى اين سافر جيلة يا سيدي

قال كلاً ولولا ذلك لمكان الاسر

قال سلمان لا تياس يا مولاي اني غير تارك وسهالة لا استقدمها في سهيل البعث
عنه وبكفينا الآن انا نخلصنا من ثعلبة

فقال حماد وكيف عرفت بمقتلهم ومن هناك الى مكاني

قال متعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تقيي علك

قال اقص عليها خبرك

قال تركتكم في بصرى وجئت اليرموك فشهدت حربها وكان جيلة في الامير جيلة
الحار بن قلما عقد لواء النصر المسلمين وقد علمت ان هنداً في دمشق هبت بالامير
اليكم ثم حدثني نهي ان استطلع مقاصد جيلة وكان قد فرّ الى حصن برجاله وفهم
ثعلبة فيما التفتت بهم حتى أمرول بالمسير لملافاة المسلمين في اجنادين فسرت اليها
وشهدت موقعة هائلة وقعت بين الروم والعرب هناك تقسيم لمولها الولدان وفي

تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفر الغساسنة . وكنت قد سمعت بحصار دمشق فآن لي ان اسير اليكم بالخبر فاسرعت الى بصرى فلم اجد احداً منكم فظننت الراهب الشيخ بنوني بخبركم فسرت اليه فاذا هو قد مات فاسفت لوفاته لعلمي انه لو كان حياً لهداني الى مفرم فمكثت في بصرى مدة ابحت عنكم واسأل كل من عرفته فلم يرشدني مرشد فظننت انكم في دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما دلت من حصارها ثم ما لبثت ان سمعت بمقطوعها فهيمت بالمهرب اليها لعلي ارى احداً استطاع منه خبركم وفيها انا اهتم بذلك رأيت جنداً من المملكين قادماً الى بصرى فقلت لعلي اتسم منه خبراً فلقيت امير مالك بن الحارث بن هشام وقد وجهه ابو عبيدة اميراً على حوران بعد سقوط دمشق^(١) وكان الحارث بن هشام والد الامير مالك قد جاء مع ابي عبيدة اميراً في بني مخزوم لحصار دمشق^(٢) فقتل في بعض الوقائع فلما سقطت دمشق تعين ابنه مالك اميراً على حوران لينجد الجند الذي يقوم من الحجاز مدداً لابي عبيدة في حروبه بالشام^(٣)

فلما وصل هذا الجند الى بصرى تمكنت بطرق مختلفة من الاجتماع بالامير مالك فاخبرني عما كان من تزولكم على ابي عبيدة في الجابية والمهمة التي انذرك بها هذا الامير الى حاكم دمشق الى ان انبأني بخروجك الى بيت المقدس وخروج الامير عبدالله الى العراق فهروا حتى اتيت هذه المدينة وما زلت ابحت عن مفرم حتى علمت اليوم انك مقيم في هذا الدر واليك خرجت منذ الصباح فاقمت هنا في انتظارك حتى اتيت فاحمد الله على سلامتك وارجو ان نلتقي بسودي الامير عبدالله قريباً

فقال حماد لقد نفذ الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ما تعلم واراني قد مللت هذه الحياة المحنوقة بالماره المزوجة بالمشاقق وبخال لي ان الله لم يكتب لي نصيباً يهد مع ما تعلمه من تعاقب قلوبنا . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه . فثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يتفقد غيرة وانظر الى حماد وقال دع ذلك اليّ يا مولاي وانكل على الله واذا كانت لك على ابي عبيدة دالة فلذهب اليه اعلنا

(١) تاريخ الاعيان في جبل لبنان (٣) الوافدي (٣) والحارث بن هشام هو جد

الامراء الشهابيين من عشائر لبنان ويقال لهم سموا بالشهابيين نسبة الى قرية شهاب من قرى حوران اقام بها مالك بعد ذلك (ذكره تاريخ الاعيان نقلاً عن سجلات محكمة صيدا الشرعية)

نمتطلع منه خبراً

فقال حماد ان لي عابو دالة عظمى واقعد اصبح بعد ما تم علي بددي من صلح
الغام كثير الوثوق بي حتى اشار بوم قدومي الي بيت المقدس الي انه رها بمجناح الي
فيها مثل حاجنو في دمشق فلا اظني اذا استعنته في البعث عن جيلة الآ فاعلاً ما ار بد
قال سلمان وابن هو الآن

قال تركته في دمشق يبعث البعوث لفتح ما بقي من بلاد الغام

قال اذا اذنت ان نذهب اليو غداً فعلنا

قال حسناً

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجهه اتقدم اليك يا مولاي في امر ارجو ان

تطرمني فيه

قال وما هو

قال ارجو اذا نحن ظفرنا بجيلة هذه المرة ورأينا منه تردداً او سمعنا منه وعوداً ان

لا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عيباً

قال حماد وما معنى ذلك

قال معنى ذلك يا سيدي ان تأخذ هنداً من بين يديو اراد هو اولم يرد

فضحك حماد وكان قد قضى زمناً لا يضحك وقال سئري في ذلك يا سلمان .

ونضبا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة وبنانا على نية الاهتمام في الركوب

الي دمشق في الصباح

الفصل الحادي والتسعون

* حصار بيت المقدس *

ولما اصبحوا أخذوا يهتفون في الخروج وكان ذلك اليوم من الآحاد فقال حماد لهم
بنا ندخل كيسة القمامة نتبرك بساع الصلاة قبل ذهابنا فخرجنا حتى اتينا الكيسة فرأيا
جمامير الناس في صحنهم ينتظرون قدوم البطريرك لاقامة الصلاة فوقنا بينهم فلم ينمنا

من احاديثهم الا ما يتوعدونه من قدوم العرب لفتح بيت المقدس ثم ما ج الناس وتزاحموا
 بسابق بعضهم بعضاً فعلم ان البطريرك قادم ولم تمض برهة حتى اطل بموكب يتوكأ على
 عكازه يحف به الاماكنة والقديسون وقد اوقدت الشموع وفتح الناس طربقاً في
 وطمهم مرّ بها البطريرك وهم يتبركون بلمس رداؤهم حتى دخل الكيسة فتبعوه حتى وقف
 عند المهكل فبدل ثيابه بما بلبسه البطاركة اثناء الصلاة وعلى رأسه تاج مرصع
 بالحجارة الكريمة وعلى كتفيه قباء موركش بالذهب والنضة وفي عنقه صليب مرصع
 يتدلى على صدره بمسلسلة من الذهب وقد اوقدت الشموع واحرق البخور وطلت اصوات
 المرغنين والمصلين ثم وقف البطريرك على عرشه وهو كرسي من العاج مزين بالنسيفساء
 الجميلة والتفت نحو الجماهير فعلموا انه بهم^١ بالكلام فاصطفوا اليه فقال بعد البركة

« اعلوا معاشر الصرانية ان رجال العرب الحجازيين الذين قد سمعتم بقدومهم
 هذه البلاد وامتبلائهم على بصرى ودمشق قد استنحل ارمهم حتى فتحوا حلب وحمص
 وبلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية^(١) وغيرها وقد بلغني في هذا الصباح انهم
 قادمون الى هذه المدينة المقدسة بجند كبير وقد بلغكم على ما اظن خروج مولانا
 الامبراطور هرقل من بلاد الشام الى القسطنطينية لاحوال اقتضت ذلك وقد فوض
 اليها التصرف في امر هذه الحرب بالتي هي احسن ففاوضنا حاكم هذه المدينة فرأينا
 من الحكمة ان لا ندع لاولئك العرب سبيلاً لتقريب شيء من ابنتها المقدمة فان
 فيها كتوز النصرانية بل ندافعهم بالامر الممكن فاذا رأينا خطراً في مقاومتهم عقدنا معهم
 صلحاً نحتفظ به الارواح والاموال ونمنعني كرامتنا لا كما فعل اهل دمشق فاعطينا الا
 ان نصلي الى الله ان يؤيدنا بالنصر في الدفاع عن قبر ابني الخصاص وهذه حصوننا متينة
 وعندنا العدة والرجال فانبتل الدفاق والطوبى اولي الامر واعلموا ان الله لم يمكن هؤلاء
 العرب من بلادنا الا لما اردناه من الانقاس في دنيانا والانشغال عن طاعة الله
 بالدفاق والانقسام فلتنجم قلوبكم ولتدافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء »

فلما انتهى البطريرك من خطابه وضع الناس وهم بين مصوب ومغضب أما حماد
 فلما انقضت الصلاة خرج وهو يقول لاهلنا لم تعدت حاجة بنا الى دمشق فاننا
 لا نلث ان نرى ابا عينك هنا وبأوح لي اني سأخدم في هذه المدينة خدمة اعظ

شأناً من خدمتي في دمشق لان اهلها على ما يظهر اقرب الى الصلح من الدمشقيين .
وسارا الى مرتفع من المدينة بطل على ضواحيها وقضيا بقية ذلك اليوم بتدوفاً لاهلها
بريان جند العرب قادمين واهل المدينة يتأهبون للدفاع وفي صباح اليوم التالي رأيا
الغبار يتصاعد في الافق وبانت من تحته اعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقاب
فعلم حماد انهم رجال خالد بن الوليد وفي اليوم التالي جاءت فرقة اخرى نزلت في
جانب آخر من المدينة وما زالوا يرون كل يوم فرقة تأتي باعلامها وخيامها وتنزل
في ناحية من المدينة حتى صارت عدة الترق سبعاً كل واحدة منها خمسة آلاف وجلة
الجند ٢٥ ألفاً عليهم سبعة قواد عرف حماد بعد ذلك انهم خالد بن الوليد وشرحيل
والمرقال وهزيب والمسيب وقيس المرادي وعروة بن ماهل (١) فلما تحقق حماد
والمان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلوا يبحثان عن ابي عبيدة لانه جاء معهم فلم
يريا رايته هناك ولكن حماداً كان يظن ان لا بد من حضوره فتح تلك المدينة

وقضيا اياماً يترددان بين اسوار بيت المقدس والدير يستطلعان مقاصد الروم
فراًيا الخوف مستولياً على الخاصة أما العامة فكانوا لا يزالون مصرين على الدفاع فرموا
المسلمين بالنشاب عن الاسوار فاجابهم المملون بمثلها ومضت ايام والحرب سجال بين
الجماعين حتى مل حماد الانتظار وعول على الخروج الى الغمام للملافة ابي عبيدة وسؤاله
عن جيلة فقال له سلمان ان الطريق لا يخلو من الخطار يا مولاي واخشى اذا خرجنا
من المدينة ان يستغشنا اهلها فيريدوا بنا سوءاً والأفلىكن خروجنا بجيلة فتربصا
بضعة ايام وم في كل يوم يتفان في مدارف المدينة يطلان على ما وراء الاسوار من
السهول والممالك فراًيا يوماً جريداً جديداً قادمًا من جهة دمشق عرفا انه جند ابي
عبيدة وفيهم رايته فاستبشر حماد وقال تدآن الوقت يا سلمان فلنضع في سبيل الى
الخروج فما الرأي

قال الرأي ان نحرض حاكم المدينة على محاربة العرب بدان الصلح فلملة ان
ياذن بخروجنا او يخرج احدنا للمحاربة
قال حماد ومن يوصلنا اليه وانا لا اعرفه ولا هو يعرفنا ولا يلقى بنا

(١) الواقدي . وذكر ابن الاثير عمرو بن العاص وبين روايته ورواية الواقدي تباين

وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة

قال سلمان دع ذلك اليّ فاني ادين باذن الله . واطلعه على ما ينوي اجراءه

الفصل الثاني والتسعون

* صلح بيت المقدس *

ورجعا الى الدير ولبس سلمان احسن لباس عك وصار يلتمس الحاكم فقيل له انه عند الطر برك في الكيسة فصار اليو فرأى الخدم والحاشية وقروفا امام غرفة الاستقبال لا ياذنون لاحد بالدخول فتقدم الى كبيرهم وقال له اني آت بهبة ذات بال الى حضرة الحاكم فاستأذنه بالدخول عليه . فاستأذنه فأذن له فدخل سلمان فلما هو في غرفة قد خلا فيها البطريرك والحاكم وعلى وجهها دلائل البغنة وكأنها كانا في جدال فسجد بدخولو امام البطريرك فقيل بدبو ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأذبا فأذن له بالجلوس فجلس فقال له الحاكم وهو مقطب الوجه ما غرضك

قال ان غرضي بامولاي سلامة هذه المدينة من سلاح الاعداء وصيانة قبر السيد المسيح من الامانة والاحتقار

قال ومن انت

قال اني تابع لامير من امراء العراق كان في جملة من شهد فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطه لاهرقت الدماء وخربت تلك المدينة وله مع امراء جند المسلمين معرفة ودالة

فقال الحاكم اتريد ان تلتمس الصلح من عند انفسنا ونحن لم نبد دفاعا بعد فقال سلمان كلاً يا سيدي انما اعرض عليكم الامر عرضاً ولا يغرض لي فيو سوى حجب الدماء

فقال البطريرك بورك فبك يا بني ولكننا لا نرضى بما رضى به اهل دمشق فان بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما نسلحها بالامر السهل

فقال سلمان اذا امر مولاي بسمع رأيي لا اظنه الا رضياً به

قال قل

قال اري انكم اذا خابتم هؤلاء العرب بامر الصلح ان لا ترضوا بعقدك على يد احد

منهم اجلاً لتمام هذه المدينة المقدسة وحفظاً لامتزاجكم ولكنكم تطلبون ان يتم ذلك على يد امير المسلمين الاكبر وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامة في يثرب بالبحار فاطلبوا ان يكون الصلح على يد فاذا رضوا به وأتى الخليفة بنفسه من كرسي ملكه الى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الدمام قبلها

فامعن البطريرك بفكرته قبل ان يفتح من مدن الدمام قبلها

قال هو في منزله هنا فاذا امرتم باستقدامي فعلت

فامر باستقدامي فذهب سلمان وقد سرّ بنجاح مهمته حتى اتى حماداً وكان في انتظاره فلما قص عليه ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الامراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريرك والحاكم ولما رأياه استأنسا بطلعتوه وما يتجلى في وجهه من المهابة والجلال فاذا نجا بجلوسه ثم قال البطريرك هل تعرف قائد جنده هؤلاء العرب

قال نعم اعرفه جيداً ولي معه صداقة

قال هل انباك فابعدك بما استقدمناك بدأنا

قال نعم وهو الامر الذي اراه انا ايضاً وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرها ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا اقول ان الروم يعجزون عن مثلو ولكنهم قد يفتنون راحة الناس فتتفح حركات الاعمال بلا فائدة وخصوصاً بعد ان رحمت أقدامهم في كثير من البلدان وزد على ذلك ان السهول الذي تطلبون محاربتهم به يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها الى الابد اذ لا يخفى على حضرتكم ان امير المسلمين المقيم في يثرب رجل عظيم جداً قد اقر به ظن القريب والبعيد وهو عندهم في ارفع منزلة بعد نبيهم لانه خليفة والقائم بأمرهم ولم يسبق انه قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدمه بنفسه على ما ذكرت امتياز خاص ونظراً لما لي من الصداقة لدى الامير ابي عبيدة كبير امراء هذا الجند سأحب اليه ان يحجب طلبكم ولا اظنه الا فاعلاً

فالتفت البطريرك الى الحاكم كأنه يمشيه فقال الحاكم لا بأس من ذلك غير

اني لا ارضى ان يتم هؤلاء انا خائفون او انا نطلب الصلح لعجزنا عن القتال

فابتدرة حماد قائلاً لا تخف يا مولاي فاني اذا خابرتهم انما اجعل ذلك من

عند نفسي على اصلوب ليس عليكم منه بأس غير اني اتيسر ان يصحبي من يخرجني من

الاسوار لئلا يستغني احد من رجالكم

فقال المحاكم لك علينا ذلك ونحن نطلب ان يبقى تابعك هذا هنا ريثما نعود
قال لا بأس بذلك وخرج حماد حالاً فركب جواده ومعه بعض اهل القصر
حتى اوصلوه الى باب المدينة فخرج الى معسكر ابي عبيدة فلما رآه ابو عبيدة استقبله
باسماً ورحب به وقال له أملك جئت بهمة اخرى .

قال اني لا آلو جهداً يا مولاي في كل ما يأول الى حجب الدماء .

فقال ابو عبيدة هل جنح اهل بيت المقدس الى السلم

قال نعم يا سيدي اظنهم يريدون الصلح ولكنني فهمت انهم رفعة لتمام هذه المدينة
المقدسة يريدون ان يكون صلحها على يد خليفتم الامام عمر بن الخطاب ألا ترى
انه يقدم اليها بنفسه وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس .

قال لا اظنه الا قابلاً بذلك . وما بعد قبوله .

قال اذا اكدت لي قبولة جعلت الخابرة في ذلك رأساً بينكم وبين حاكم المدينة

او بظربكها على مشهد من الناس واني انما جئت نوطنة للامر بهمة خصوصية

فأثنى ابو عبيدة عليه وقال له لقد سمعت سعيًا حسنًا بورك فيك واذا تم

الصلح وقدم امير المؤمنين الى هنا سأقدمك اليه واذكر له شهادتك

قال ان ذلك شرف كبير احسبني سعيداً اذا حصلت عليه وانقدم الى مولاي

الامير بسؤال ارجوان لا يثقل عليه .

قال قل وما هو

قال اتعرف جبلة بن الابهيم امير الغساسنة الذي كان يجارهم مع الروم

قال نعم اعرفه وما حديثه

قال ان لي معه امرًا بهمني وكنت احسبه في بيت المقدس فجئت كما علمت فلم

اجد ولا احداً من اهله وقيل لي انهم كانوا هناك وخرجوا خارج النازين لا يعلم

احد بمقرهم فهل يعلم مولاي شيئاً عن هؤلاء الغساسنة

قال ابو عبيدة ان الذي اعرفه من امر هذا الامير انه خرج من بلاد الشام جملة

هو واهله وقد بعثت العيون عليه فاذا عرفت مقره انبأتك به او ربما سمعت بتقلو

بسيننا الا اذا سلم صاغراً .

قال وكيف تقتلونني وهواننا يحارب بسيف مولا الامبراطور ولعله اذا خبر لا
بخنار غير التسليم

قال اما اذا سلم فهو في ذمتنا له ما لنا وعليه ما علينا والآن فان السيف بيننا وبينه
واخشى مع ذلك ان يكون قد قتل في بعض الاماكن ولم يعلم به احد

فاضطرب قلب حماد وخاف ان تلك الحجازيون بجيلة واهله اذا التقوا بهم في
مكان فوقع في حيرة ونظر الى ابي عبيدة وهو بهم ان يخاطبه في الامر وبوقفه الحذر

فلم يظ ابو عبيدة ذلك فيه فقال ما لي اراك تحاذر ان تخاطبني فهل يسوءك قتل جيلة
قال نعم يسوءني يا سيدي

قال وهل بينكما قرابة

قال وقد تلجج في الجواب نعم بيننا شبه قرابة

قال واي قرابة بينكما وانت من لحم وهو من غسان فالظاهر انها قرابة المصاهرة
فقال وهو مطرق نعم يا مولاي ثم رفع نظره اليه وقال هل يا ذن لي الامير بامر

أتقدم اليه في

قال قل ما بدالك

قال ان امر جيلة بهمني كثيرا وحياته افتديها بجياني

قال وما معنى ذلك اني لم افهم السر فاذا كانت بينكما هذه العلاقة فما بالك لم

تدافع عنه في شيء ولا ذكرته امامي في مثل هذا المعرض قط

قال ان الاحوال لم تلجني الى ذلك قبل الآن اما وقد آتست فيك هذا

الانعطاف فأنتجاسر في بشك امرا بهمني كتمانة الآن ولكنني ابسطه لديك عساه ان
يعود علي بالفائدة

قال قل ما هو

قال اعترف لمولاي الامير ابيد الله ان لي في جيلة ما ربا بهمني كثيرا ولا اخفي

عنك اني خاطب ابنته وقد قضيت بضعة اعوام في انتظار وقت الفران فحالت الحروب

بيني وبينه وكان آخر عهدي بالامر ان اجتمع به وبأهله في بيت المقدس فلما جئتها

رأيتهم قد رحلوا الى مكان لا يعلمه احد فجمت استنهم عن مكائهم . قال ذلك وقد

ظهرت علي وجهه علامات الاهتمام بما زجها الحياء

فقال ابو عبيدة وهو ينظر الى وجهه يراعي حركاته « كيف هان على ملك غسان ان يزوجك ابنته وانت غريب ولست من سلالة الملوك »

فتغير حال حماد وعلا وجهه الاحمرار لما تذكر من حقيقة نسيه ولكنه تجاهل وقال « لقد عاينا في سبيل ذلك مشقة ولعله السبت في تأخير الاقتران الى اليوم »

فقال ابو عبيدة طب نفساً يا حماد واعلم اني نصيرك في الحصول على مرامك ولا يحق لجملة ان يفاخرك في النسب وانت شهم هام قد رفعتك ههنا الى اعلى من مقام الملوك وها اني باث العيون والارصاد للبحث عن جملة وساحلة على ما تريد قهراً

فأثنى حماد على غيرته وشكر له وهمّ بوداعه على ان يعود الى حاكم بيت المقدس بتتبع الرسالة . فقال له ابو عبيدة تمهل ريثما اشاور الامراء في الاهر

وامر فجاء خالد وسائر الامراء وخرج حماد فعقد ابو عبيدة مجلساً شاور فيه اصحابه فلما انقض المجلس استدعي حماد فدخل على ابي عبيدة ولم يكن في الخيمة غيره فراه عابساً فقال له ما بال مولاي مقطب الوجه

فقال ليس بي بأس ولكنني لقيت من الامراء رغبة في اجراء الصلح على يدنا استعجالاً للفتح . لان استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمناً طويلاً وقد يمنع عن الهجيء لما يحول بينه وبين ذلك من المشاغل الهامة

فادرك حماد ان البادي في ذلك الرأي خالد بن الوليد لما يعلم من عجلته ورغبته في الفخر فقال اظن الامير خالدًا أكثر الامراء ميلاً الى هذا

فلم يجب ابو عبيدة في بادىء الرأي فصمت حماد وليث ينتظر الجواب فقال ابو عبيدة عد الى حاكم ايلياء (١) وقل له اننا قبلنا باجراء الصلح على يد امامنا الخليفة امير المؤمنين واذا جاءهم احد من الامراء بغير ذلك فهم مخبرون في القبول او غيره

فنهض حماد فودعه واوصاه بالسعي في البحث عن جملة ثم خرج يريد بيت المقدس فلتيه حماد فأخبره الخبر فسرّ لبحاج مهمته وقال له هلم بنا الى الحاكم فساروا اليه فلما اقبلا عليه استطلعها الخبر فقص حماد ما دار بينه وبين ابي عبيدة

فقال الحاكم لا نصالح احداً غير الامام

فقال البطريرك (وكان حاضراً) وكيف نميز بين الامام واحد الامراء لوجاءنا باسمه
فقال سلمان اني عالم بصفة امامهم وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة يوم شهدت
فتح مكة وكان لا يزال اميراً كسائر الامراء

وفي اليوم التالي صعد البطريرك والحكام الى اسوار المدينة ومعها حماد وسلمان
متنكرين فلبثوا ينتظرون ما يكون من امر العرب فجاءهم رسول على جواد خاطبهم من
اسفل السور يطلب اليهم التسليم فقال البطريرك انا نقبل بالصلح اذا كان على يد
اعظم امرائكم

فمضى الرسول وبعد برهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه وحاله انه من
الامراء فقال الرسول هذا هو كبير امرائنا فصالحوه

فنظر حماد فاذا هو ابو عبيدة بنفسه فعلم ان رأي امرائه غلب على رأيه فجاء
يطلب الصلح بنفسه فلما رآه البطريرك استطاع رأي حماد عن الرجل فقال هذا هو
ابو عبيدة كبير امراء جند الشام
فقال اليس هو ملكهم الكبير
قال كلاً

فنظر البطريرك الى ابي عبيدة وقال انا لا نصالح احداً غير خليفتم المقيم في
المدينة فاستقدموه واحجبوا الدماء

فعاد ابو عبيدة وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمنى ذلك فأبوا مصالحة (١)
واصرروا الا ان يأتيهم عمر بنفسه وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الامطار والعواصف
فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق الشام لان اهل بيت المقدس
مقيمون في البيوت والعرب في الخيام على انهم صبروا على مناجزتهم اربعة اشهر بين
حرب ونضال ومخافة والروم مصرّون على ان يكون الصلح على يد الامام عمر فلم ير
ابو عبيدة بداً من استقدموه فكتب اليه بذلك

اما حماد فكان يتردد الى معسكر ابي عبيدة يستطلع ما حدث من امر جيلة
ويستحث ابا عبيدة على استقدام عمر قياً ما بوعده ففضت الاشهر الاربعة ولم يقف لجيلة
على خير

اما سلمان فانه لم يطق صبراً في انتظار ابحاث ابي عبيدة فخرج بنفسه يستخبر الناس ممن ظن انهم يعلمون شيئاً عن جيلة واهله فلم يسمع الا اخباراً متضاربة فمن قائل انهم فروا الى العراق او مصر او غيرها وقال آخرون انهم لا يزالون مخبئين في بعض بلاد الشام ولكن الاكثرين على انهم فروا الى العراق فعاد الى حماد بتلك الاخبار المتضاربة فلم تغنوه شيئاً فاشتد اليأس وضاعت دونه السبل ولم يكن برّ تعزية الا بقاء ابي عبيدة . فنيا هو عند ذات يوم وسلمان ينتظر خارجاً اذ دخل عليه رجل منبسط الوجه كأنه جاء ببشارة فقال ابو عبيدة ما وراؤك

قال ان بالباب رسولا من امير المؤمنين جاء يخبرنا بقدمه

قال فليدخل فدخل الرجل واثر السفر بادية على وجهه وعلي ثياب

فقال له ابو عبيدة اين تركت امير المؤمنين

قال تركته راكباً من دمشق واسرعت لبشارتكم

فقال ابو عبيدة ما باله ابطأ علينا

قال انما ابطأ لما اعترضه في طريقه من المسلمين يستفتونه ويتفاضون اليه وهو

لا يرى الا سماع اقوالهم والعدل بينهم

قال هكذا يكون الامراء بورك بيطن حملك يا عمر . ثم بعث الى خالد وسائر

الامراء فجاؤه فانبأهم بقدم عمر وقال فلنذهب للقائه والتفت الى حماد وهمس في

اذنه هلم بنا لعلنا نسمع من اهل المدينة خبراً عن صاحبك جيلة

فركب الامراء وركب حماد ومعه سلمان وقد شغله ركوبه هذا عن اهتمامه بجيلة

وخبره وكان الامراء بلباس الديباج والحريز^(١) وقد امتطوا خيولاً فوقها السروج

الفضة^(٢) ما غنموه من دمشق الشام وغيرها الا ابا عبيدة فقد كان على قلوصة

(ناقة) وفوقه عباءة قطوانية وخطام الناقة من الشعر وساروا وقد تركوا الجند في

مكائهم حول اسوار بيت المقدس . وكان حماد مشتاقاً لمشاهدة عمر بعد ان تولى امر

المسلمين وهو يتوقع ان يراه في موكب حافل كما تعود ان يرى او يسمع عن ملوك

الروم والفرس ما يبهر النظر ويستوقف البصر فكان كلما مشوا قليلاً تشوف عن بعد

لعله يرى الغبار او نحوه مما يتقدم الموكب فلم ير شيئاً

الفصل الثالث والتسعون

* الامام عمر بن الخطاب *

وفيا هو يشوف رأى هجناً قادمة فقال في نفسه هذه هي طليعة الموكب قد جاءت
بشارة فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجناً احمر عليه من الجانبين غرارتان وامام
الرجل قرينة الماء ووراءه جفنة للزاد وقد امسك بخظام الناقة بدوي ماش .
وعلى الناقة رجل ابيض الوجه مع حمرة تعلوه شديد حمرة العينين حسن الخدين والانف
خفيف العارضين ضخيم الكراديس على رأسه عمامة وعلى كتفيه عباءة من صوف عليها
بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد والبعض الآخر من الصوف (١) يحمل بيده درة هي
عبارة عن سوط عريض من الجلد . فخير حماد في امر هذا الهجان والتفت الى سلمان
فابتدره قائلاً هذا هو الامام عمر يا مولاي ثم ما لبث ان رأى ابا عبيدة ترجل عن
ناقتة واسرع نحوه وترجل عمر ايضاً وتعاقبا فحقق حماد انه الامام عمر فعجب لرهده ثم
ما لبث ان سمع عمر ينتهر بعض الامراء فتقدم لسمع كلامه فاذا هو يؤنبهم لما اتخذوه
من لباس الديباج والحرير وقال لهم ما بالكم تمسكتم بالديبا وغفلتم عن الآخرة ما هذه
الاملاس انها البسة اهل الترف وانتم في سبيل الجهاد قال ذلك وحسا عليهم التراب
فقال ابو عبيدة ايهم يا امير المؤمنين اما اتخذوه كساء خارجياً وتحنة السلاح (٢)

ثم نادى ابو عبيدة حماداً فاقبل فقدمه الى عمر وقال له انه شاب من امراء
العراق كان لنا نصيراً في حصار الشام واسطة في صلحها

فرحب به عمر والتفت الى ابي عبيدة وقال لقد اذكرتني بحيلة بن الابهام الغساني
الم يصلك كتابي بشأني

قال كلاً يا مولاي وما خدع

قال له خير طويل سأقصه عليك بعدئذ وهلم بنا الآن الى بيت المقدس
وركبوا جميعاً

أما حماد فلما سمع اسم عمه جبلة خفق قلبه وتاق لسماع حديثه ولكنه لم يجسر على

الناس ذلك فاضطر للانتظار الى فرصة اخرى
وما زالوا سائرين حتى اشرفوا على بيت المقدس وحوّلها معسكر العرب ورأوا
الاعلام عن بعد ولما اقتربوا من الخيام سمعوا ضجيج الناس ورأوا جماعات منهم
مهولين للملافة عمر فرحب بهم واثني على غيرتهم وشكرهم لحسن جهادهم وذكر ما فتح
من المدن على ايديهم حتى اذا وصلوا معسكر ابي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر
نصوه له هناك ونزل الامراء معه وتراحم الناس للثمين بمشاهدته وسمع كلامه .
اما هو فجلس على التراب وجلس الجميع معه وحماد يعجب لزهده وتواضعه
ثم نهض والقي عليهم خطاباً ثم جلس الجميع يبعثون بامر التبع وما لقوه من الجهد
وما كان من فوزهم وكلمهم فرحون وامارات الافتخار ظاهرة على وجوههم
وكان حماد ينتظر ان يجري حديث جبلة لعل عمران يقص خبره فاشتغلوا عن
ذلك باحاديث الفتح ثم نودي بالصلاة

فخرج حماد وقد ملّ الانتظار فقال ما قولك يا سلمان هل نسأله ليقص علينا خبر جبلة
قال لا حاجة بنا الى ذلك واما يكتنينا ان نسأل ابا عبيدة وهو يطلب اليه
قال حسناً وسارا الى ابي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع نظره على حماد قال له غداً
نسمع حديث امير المؤمنين عن جبلة واهل بيته اما الآن فاطلب اليك ان تسير الى
حاكم هذه المدينة فتنثنه بقدم امير المؤمنين وقل له ليخرج للصلح ومتى عدت من
هذه المهمة قدمتك الى مولانا الخليفة . فتعال منه بركة وحظوة
فخرج حماد وسلمان فانباها الحاكم والبطيريك بقدم عمر فخرج البطيريك على
الاسوار وطلب ان يرى عمر رأي العين

فعاد حماد بالخبر فركب عمر ناقته ومرفعته وتقدم نحو الاسوار وابوعبيدة الى
جانبه وكان حماد قد عاد الى الاسوار واثار الى البطيريك انه هو الرجل فاستغرب
ما رآه من سداجة لباسه وكثرة زهده واعتبر بما انغمس فيه الروم من الترف والرفاه .
وما اراد الله من خضوعهم لاوائلك العربان ثم نظر الى اعيان المدينة وكانوا وقوفاً معه
على الاسوار وقال « اليكم يا اهل بيت المقدس هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا على
يدٍ فاخرجوا اليه واطلبوا صلحه واعقدوا معه الامان والذمة (١) » ففتحوا الابواب وكانوا

قد ضاقوا ذرعا عن احتمال الحصار وخرجوا افواجا وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وصاحوا بصوت واحد يستغيثون فلما رآهم عمر على هذه الحالة تخشع لله وسجد وهو على قتب بعين ثم اناخ ناقته ونزل وقال للناس عودوا الى منازلكم ولكم الذمة والعهد

فعادوا ولم يفتلوا الابواب وعاد عمر الى معسكره وفي صباح الغد دخل عمر المدينة والناس يرحبون به وقد رفعوا اصواتهم بالترنيم والترنيل وفيهم القسس في ايديهم المباخر حتى اتى سراي الحاكم قرب كنيسة القيامة واجتمع اليه الحاكم والبطريرك وكبار اهل الدولة وعقدوا صلحا اقرؤا به على اداء الجزية واوصى بهم الامام عمر خيرا وهدأت الاحوال وسكنت القلوب " الأقباط حماد فانه ما زال يتقلب على جمر الانتظار والتردد

الفصل الرابع والتسعون

* جيلة بن الايهم *

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة ايام لم يخل يوما واحدا من الوفود من سائر انحاء سوريا وخصوصا عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين فانهم كانوا في اشتياق لرؤية الخليفة . وفي اليوم الخامس من دخوله وهو يوم الجمعة خط عمر محرابا في المدينة وفي موضعه بني جامع بعد ذلك ففي ذلك اليوم سار حماد الى ابي عبيدة وشكا اليه قلقة ورغبته في سماع حكاية جيلة عن لسان الامام عمر فاستهله الى المساء وقال له ان امير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع باقي الامراء في فسطاطه وستنضي السهرة هناك فينص علينا الخبر

وفي العصر خرج حماد وسلمان الى معسكر ابي عبيدة حتى اذا كان العشاء وصلى المسلمون سارا الى خيمة الامام عمر فلقبها بالحاجب فاستاذن لها فدخلوا وجلسا في بعض جوانب المكان وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلا

وكان الجميع جلوساً على الثرى تمثلاً بامامهم الخليفة وبعد ان قرأ القراء بعض السور وتبرك الناس بذلك المساء تقدم ابو عيينة الى الامام عمر ان يقص عليه حكاية جبلة بن الايهم ملك غسان وما كان من امره

فقال الامام عمر ماذا تعلمون عنه انتم

قال ابو عيينة نعلم انه فرّ باهل منزله الى مكان لا نعلمه

فتبسم عمر وقال انه لم يفر ولكنه جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الاسلام فقبلت منه ذلك فاعتنق الاسلام واقام بيننا في اهل منزله معزراً مكرماً واذاً لانه ان يبني على ما اعتاده من فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل الذهب في اعناقها واذا ركب وركبت حاشيته عقدوا اذنان الخيل فسارت تحطربهم حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة الا وتخرج لمشاهدتهم^(١)

ولكننا ما برحنا نرى فيو روح الاستبداد والظلم ما يائنه عدل الاسلام لان هؤلاء العرب المنتصرة عاشروا الروم واعترفوا ديانتهم وتخلفوا باخلاقهم ولا يخفى عليكم ما في دولة هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيا كل القوي منهم الضعيف بغير وجه الحق فاراد جبلة ان يسير على ذلك فاوقفناه عند حد

وما دعانا الى ايلافه خاصة معادته جرت لرجل من فزارة مع جبلة وذلك اننا خرجنا من الحج وفيما نحن نطوف في البيت ومعنا جبلة وجمع فخير من المسلمين وفي جلنهم رجل من فزارة فوطى الفزاري آزار جبلة فانحل الازار فغضب جبلة ورفع يده وضرب الفزاري فهشم انفه فجاء في هذا الرجل يشكو ما الم بو فبعثت الى جبلة فاتي فقلت ما هذا قال نعم اني هشمت انفه لانه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عيني بالسيف

فلما قال ذلك علمت انه يريد الاستبداد فقلت اعلم يا جبلة انك محطى وقد اقررت بما ارتكبت فعليك اما ان ترضي الرجل واما ان يفعل بك مثل فعلك بو . فعظم ذلك على الغساني واستغربة وقال وما ذا . قلت امر بهشم انك كما فعلت

فقال كيف ذاك يا امير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك
قلت ان الاسلام جمعك واياه فلست تنضلة بشيء الا التقى والعافية
فقال وقد خاب ظنك « كذت ظننت يا امير المؤمنين اني اكون في الاسلام امنع
مني في الجاهلية »

فقلت دمع عنك هذا فانك ان لم ترض الرجل اقدته منك
فقال اذا انتصر

فقلت له ان تنصرت ضربت عنقك لانك قد اسلمت فان ارتددت قتلتك
فلما رأى ابن الایهم ما صميت عليه سكت ثم قال لي اني ناظر في ذلك ليلتي هذه
قلت انظر ما شئت ثم انصرف ولم اعد اراه ولا ادري مقره . وقد كتبت اليك
بشأنه والتمست ان نبحث عنه فهل علمت عنه شيئاً
قال ابو عبيدة كلاً يا مولاي انا قضينا اشهرًا ونحن نبحث عنه فلم ننف له
على خبر

الفصل الخامس والتسعون

* مشورة وذكري *

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص يبصر تطاول بعنقه وقلبه يخفق في انتظار
آخر الحكاية فلما اتى عمر على آخر كلامه انقضت نفس حماد وعظم عليه الامر وهم
مخاطبة عمر يستطلع رايه في مصير جيلة واهلها فاقعدته هيئة المجلس ومقام الخليفة وما صدق
ان ارفض الجمع حتى خلا سلمان ووقفنا بالقرب من معسكر ابي عبيدة فقال حماد
يا رأيك يا سلمان

قال لقد هان الامر يا مولاي والرأي عندي ان نبحث عن جيلة في الطريق بين
المدينة والشام اذا لا اظنه اذا فر من الحجاز الا قادمًا الى اطراف الشام او البلقاء او
مكان آخر لم يفتحه المسلمون او اعلة يخفي في بعض الديور ولا بد له في كل حال من
المرور بدير مجيرا ولو متنكرًا فلنجت عنه ونستخراهل الدبر واذا اشكل الامر أكثر
من ذلك قصدنا ناسك حوران فان له معرفة وكرامة

فتأفف حماد وتذمر ولكنه فكر في الأمر فرأى كلام سلمان مغفولاً فظل صامتاً
برهة وسلمان ينظر اليه ويتأمل حاله فرآه غارقاً في بحار الهواجس وقد تولاه الانتباض
وغلب عليه اليأس فقال له ما بال مولاي لم يعتد بكلامي العلي مخطئ في ما أقول
قال لا أقول مخطئاً ونعم الرأي رأيك ولكني أفكر ياسلمان في هند كيف طال
هذا الأمد ولم يصلني منها علم ولم اسمع عنها خبراً مع علمها بذهابي الى بيت المقدس
بعد فتح الشام

قال لا تلها يا سيدي ألا تعلم انها فتاة لا تستطيع المجاهرة بأمرها فضلاً عما كانوا
فيه اثناء فرارهم من الخوف والاهتمام وإقاموا في المدينة غرباء ثم عادوا فارين كما قد
رأيت فهل تستطيع هندا مرأ

فقال حماد لا ادري ولكني اراني مقيد الفكر مغلول اليدين والامير عبد الله
بعيد عنا لا نعلم خبره ولا ما لاقاه في العراق
قال سلمان اما الامير عبد الله فانت تعلم انه من الحكمة والتعقل في ما لا تخشي
عليه معه بأساً ولا يلبث ان يعود الينا وقد نال حظوة في عيني المسلمين
ولكن . . . وصمت

فقال حماد ما بالك صمت قل ما في نفسك
قال سلمان ماذا أقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الايدي
قال وما ذا تعني

قال اعني يا مولاي انا شغلنا بحروب الشام والناس ملك غسان عن امرنا
اتينا هذه البلاد من اجل ولولاه لكان مقامنا في العراق معاً ندافع عن دولة الفرس
دفاعنا عن انفسنا

فاتبه حماد الى حكاية النذر وحقيقة نسيه وما له من التأرع على الفرس فقال
لقد صدقت يا سلمان انا نقاعدنا عن تأرنا وانشغلنا بهم انفسنا عن وصية والدي
والله لو اني فرغت من مشاغلي التمهاترة وخلوت بنفسي يوماً واحداً لما بقيت في هذه
الديار بل كنت اول شاخص الى العراق اشهد فتح المدائن عاصمة تلك الدولة الظالمة
واني لو انني بقرب سقوطها لما نعلمه من بطش العرب وفساد احوال الفرس واتقسام
حكامهم بعضهم على بعض

فقال سلمان اذا نسير الى العراق ...

قال حماد بصوت مخنق ونفس صغيرة « وهد » ونظر الى سلمان فكان لنظرتيه وقع السهام على قلب سلمان فنظر اليه وتبسم ثم همَّ به وضمه الى صدره وقال له ان هندا في المقام الاول يا مولاي ثم النار

فتنهده حماد وقال لا بل الانتقام للملك النعمان قبل كل شيء. هكذا اوصانا بصوته المنبعث من ظلمات القبر ولكن ... قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه

فابتدره سلمان قائلاً ان كلا الامرين مستدرك فلنبتح اولاً عن مقر هند فاذا التقينا بها وكان السفر الى العراق مستعجلاً وكان اجل الفرس قريباً أجلت الاقتران الى ما بعد الرجوع منها وسقط دولة الفرس والآن فانك تتزوج ثم نسير فقم بنا الى بيت المقدس وغداً نستطلع اخبار العراق ثم نسير للبحث عن جيلة واهله في اطراف الشام وهوران ويفعل الله ما يشاء

فقال حماد حسنا ترى ولكن ذهبا الى بيت المقدس في هذا الليل لا يخلو من المشقة فضلاً عن الخطر وقد دعانا ابو عبيدة لمبيت عنده فلنبت هنا الليلة وغداً لناظر قريب

قال حسناً وتحولاً نحو النسطاط وقبل الوصول اليه سمعا اصواتاً عرقاً انها اصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلون فتتحيا برهة حتى فرغوا من الصلاة فدخلا على ابي عبيدة فقال لهما اين ذهبتما وانا ابحت عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفة فقال حماد لقد كنا في شأن جيلة وخبره ولم يزدني حديث امير المؤمنين الا تلبكاً فلا ادري اين هو هذا الرجل الآن

فقال ابو عبيدة سنبت عنه في سواحل الشام لعله يقيم في مكان هناك او اذا كان قد خرج منها الى بلاد الروم او مصر او غيرها عرفنا خبره

فقال سلمان ونحن نرى ان نفتش عنه في اطراف الشام وهوران لعلنا نسمع عنه شيئاً في بعض الدبور . قال ابو عبيدة نعم الرأي رأيت وسيكون مجئنا ومجئكم معاً فمن استطاع امرأ اطلع الآخر عليه

فقال حماد وماذا تعلمون من اخبار العراق وفارس فان والدي لم يكتب اليّ شيئاً منذ سفره

فقال ابو عبيدة ان ما اتانا به مولانا امير المؤمنين يسره كل مسلم فان النصر معنود لو اوتوه لجنود المسلمين حينئذ ولوا وجوههم وقد كان الامام عمر على موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في الفادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد بخبرها وقد ابطأ عليه فاعز الى نائبه في المدينة اذا جاء بريد العراق ان يفتك اليه في بيت المقدس حالاً ففحن تنتظر ورود البريد^(١) انتظار الظمان لموارد الماء . وكلنا على يقين من نصره رجالنا مها تكاثرت جنود الفرس وافيالهم ودوابهم فاهم اشد وطأة من الروم بل نحن اشد وطأة على الفرس منا على الروم لان هؤلاء اهل كتاب قد اوصينا بهم خيراً واما الفرس فانهم مجوس يعبدون النار^(٢) فضلاً عن اختلال احوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك على كرسيمهم فقد نوالى على ايوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بعضهم نساء والبعض الآخر من الرجال وملكهم الآن بزئجرد بن شهر يار ابن كسرى انوشروان وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة فهل يعقل ان جنده يغلب جند امير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى كل حال ان موعداً من اخبار النصر قريب ان شاء الله

ثم امر بعض رجاله فاعدوا خيمة للضيفين فباتا تلك الليلة واصبحا وقد قام الامام للخطابة والصلاة فاذن المؤذنون وصلى المصلون ففتحن حماد وسلمان ومشيا خارج المعسكر يتحدثان في تلك الشؤون فوق نظرم على هجين قادم من عرض الافق بسرعة البرق فقال سلمان هذا هو صاحب البريد على ما اظن فوقنا فاذا به دار حتى اتى معسكر ابي عبيدة وترجل عند فسطاطه فاسرعا الى الفسطاط فرأيا ابا عبيدة خارجاً من خيمته ومعه الهجان وهولا بزال بغباره وقد مشى وهجينة ورائه حتى اتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعاً ودخل حماد وسلمان معهم فرحب بهم وخاطب صاحب البريد قائلاً ما ورائك يا رجل . فقال ما ورائي الا الخير . ومد يده فاستخرج من بين اثوابه صندوقاً فتحه واستخرج منه ملقاً من جلد ناوله الى الامام عمر ففضه ودفعه الى بعض خاصته وقال انله علينا لنرى ما كان من امر المسلمين في العراق

فتناول الرجل الكتاب ووقف واخذ يقرأ والناس سكوت فاذا فيو :



(١) ويقال ان معاوية اول من رتب البريد (٢) ابن خلدون جزء ٢

الفصل السادس والتسعون

* وقعة القادسية *

« الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك امير جند العراق اما بعد فاني اكتب اليك تفصيل واقعة القادسية التي فاز بها المسلمون على اهل فارس واليك هي . جئنا يا امير المؤمنين بجنود المسلمين من تعلم مع ما انضم اليهم من جند الشام وجمعناهم جميعاً ٢٥٠٠٠٠ ونزلنا في القادسية بين العتيق والخندق بحمال القنطرة والقادسية يا امير المؤمنين واقعة في راس بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بين البحيرة والفرات فاقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم اخرى حتى ملوا منا فكتبوا الى ملكهم يزدرجرد وشكوا ما يقاسونه وقالوا اتنا اخرجنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والاطعمة . فبعث يزدرجرد الى رستم كبير قواده واليخ عليه ان يقدم هو بنفسه لقتالنا فجاء وعسكر في ساباط . وقد كتبت اليك بذلك في حينه فكتبت اليك ان لا يكرهنا ما يأتينا عنهم فاستعنا الله وارسلنا نفراً من المسلمين الى يزدرجرد في المدائن يدعونه الى الاسلام او الجزية او السيف فاستقدم رستم اليه واستشاره فيما جاؤوا من اجله فلما سمع مقالهم تهددهم وتوعدهم ثم وعدهم بنوت ومال وكساء فاجابوه بكلام شديد فاخرجهم من المدائن مهانين فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ما حولنا من البلاد والقرى نسوق اغنامها وابقارها واسماكها وابلها . فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مئة الف وعشرون الفاً^(١) اربعون منها يقودها رجل اسمه الجالينوس والباقيون يقودهم رستم فجاؤونا في هذا الجند الثقيل ومعهم العيلة والحجول وكانوا لا يرون ببلدة الآساوا اهلها وشربوا خورها . واكثرنا من الفساد فيها فنقم الناس عليهم وقد علمنا من بعض اسراهم انهم قضاة في انتقام هذا من المدائن الى القادسية اربعة اشهر فلما وصلوا القادسية عسكروا بحبالنا ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عنهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الابيض وغيره . فنظم رستم جيشه فحمل من الافيال ١٨ في الوسط و٥٠ في الجانبين ثم انفردهم في مكان مشرف ينظر منه الى جندنا وبعث اليك ان

نوافية برجل منا بكلمة فارسلت اليه واحداً فاخبرني لما عاد انه دخل على رسم فاذا هو جالس على سرير من الذهب وبين يديه البسط والنفارق والوسائد المنسوجة بالذهب فلما وصل رسولنا بعباءته ودرعه وسيفه لم يبهن ما رآه هناك من بهارج الدنيا فقاد جواده فوق البسط وشق وسادتين ربطته بهما فسألوه ان يضع سلاحه فأبى حتى اقبل على رسم فابتدره ترجمانه وهو من اهل الحيرة واسمه عبود فسأله عما جاء من اجله . فاجابه بالدعوة التي تعلمونها فعظم ذلك عليهم وقالوا « كيف تطلبون قتالنا او الجزية وقد كنتم في قسوة ومعيشة سيئة لا تراكم شيئاً وكنتم اذا قمحطت ارضكم استعطيتمونا فناً منكم بشيء من التمر والشعير ونردكم ولا نظنكم قادمين علينا الا من الجهد فانا امر لاميركم بكسوة وبغل ولف درهم واكل منكم وقرنم وتنصرفون عنا » فاجابه الرسول بما اسكته . وبعد جدال طويل غضب رسم واقسم ان النهار لا يطلع قبل ان يقتلنا اجمعين فقال له الرسول من يقتل منا يدخل الجنة . وارسلت اليه رسلاً آخرين بدعوته الى ما هو خير لنا وله فاجابهم بمثل جوابه الاول فلم يجدنا ذلك نفعاً

« وفي اليوم التالي جالس رسم على سريره وضرب عليه طيارة وعين الاقبال كما ذكرت واتخذ في ايصال خبر الحرب الى ملكه بزدجرد طريقة اعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي ان شاء الله وذلك انه جعل بينه وبين بزدجرد رجلاً على كل دعوة رجلاً اولهم على باب ابوانه في المدابن واخرهم عند رسم فكل ما فعل رسم شيئاً قال الذي معه للذي يليه كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا الى ان ينتهي الى بزدجرد في اسرع وقت . وكنت يا امير المؤمنين مصاباً بدمامل وعرق النساء فلا استطيت الجلوس وانما كنت اجلس مكباً على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر اشرف على الناس وارى قتالهم ولكن الله اعانتنا بمنه وكرمه فاننا لما رأينا الفرس يتهاونون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا اربعاً فزحف الجند وتلاحم الجيشان والله يا امير المؤمنين لقد كنت ارى جند فارس يتهاونون كالسيل وفيهم الاقبال كالامواج المتلاطمة وهي تثور فتلتفت الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بخفافها فهالني امرها فقلت يا قوم اما من حيلة لها فرماها بعض المسلمين بالنبل فقتل ركابها وتقدم آخرون فازاحوا عنها

توايئها فتلبكت حركاتها وفسد نظامها فجاء المساء وقد قتل من الفرس جند كبير وفي اليوم التالي وصلنا نجدة اهل الشام التي ارسلها ابو عبيدة فهاجنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنه نجى وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهداً اما نحن فواصلنا العمل في الليل وكانت ليلة سميها ليلة الهرب لان رجالنا لم يكونوا يتكلمون وانما كانوا يهرون مهراً فنقلنا الجند الى مكان يأخذ العدو من خلفهم ففعلنا ذلك وهم لا يعلمون

« ولما اصبحنا هاجمنا اعداء الله من كل جانب فنشلوا واختل نظامهم ووصل بعض رجالنا الى سرير رستم وقد اطارت الريح الطيارة عنه فاستظل بظل بغل فقتلوه وقتلوا الجالينوس فانهزم الفرس شر هزيمة فتعقبهم رجالنا وغنمنا اسلابهم واتصرتنا نصراً ميبناً^(١) ونحن سائرون الآن لنفتح المدائن بعون الله تعالى » انتهى
فما فرغ القاري من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير والشكر لله على ذلك النقع اما حماد فانه صبر على سماع الخبر رغماً عنه فلما تفرق الناس خرج حماد وسلمان فقال سلمان يظهر ان اجل الفرس قريب وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبته ايديهم من قتل الابرياء
فقال حماد ولكننا لم نستفد شيئاً عن الامير عبد الله ولا عن جبلة ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئاً عن ذلك

قال ربما كان على علم فهم بنا نستطلعهم وساروا يبحثان عنه فاذا هو قد خرج الى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام
فقال سلمان اظن صاحب البريد يحتاج الى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنه على ان نعود اليه في صباح الغد
قال حماد لقد احسنت رأياً وانصرفا الى خيمة للاستراحة



(١) قبل كانت هذه الواقعة سنة ١٢ للهجرة وقيل ١٥ وقيل ١٦

* تامة غسان *

الفصل السابع والتسعون

* ويا تيك بلا خبار من لا تسائله *

تركنا حماداً وسلمان وقد انصرفا الى خيمته بلباسان الراحة ريثما يتمكننا من مقابلة
ساعي البريد واستطلاع خبر جيلة وعبد الله . وبما هما صائغان الى الخيمة رأيا محورا
حدياء عليها سمات الفقر وغمار الاسفار قادمة نحوهما تنوكاً على عكاز وقد آنت راسها
ببخار فظناًها من المتسولات فلم يعبأا بها وظلاً في طريقها حتى دخلا الخيمة وليس
فيها سواها وما لبثا ان جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شئت حجاب الخيمة بعصاها
ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان ما غرضك يا خالة

فلم تجبه وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فاذا هي
خادمة هند التي لقيها في دمشق فحنق قلبه لرؤيتها وشعر بانعطاف نحوها وقد تنسم منها
رائحة حبيبتو فبغت وصاح بها ما خرك وابن هند

قالت تهمل ريثما استريح فاخبرك الخبر وقد جبت البلاد وتفحصت العباد وانا في
هذا الري اجث عنك فلم اقف لك على خير وقضيت حول هذه المدينة اياماً لا يخبرني
احد عن مقامك ولا انا استطيع المجاهرة باسمك لان حالنا تدعو الى الاستتار .
قالت ذلك وهي تجث عن وسادة تجلس عليها وتنظر الى خارج محانة ان يسمعها احد
فجلست وعينا حماد تراعيانها وقد نهد صبره في استطلاع حال هند فقال لها اخبريني
عن هند قبل كل شيء هل هي في خير

قالت كن مطمئناً انها في خير وسلامة لا ترجوا الألفاءك

فقال ابن هي

قالت لا ادري ابن هي الآن ولكنني اعرف الخطة التي تسير فيها فاذا قصصت
عليك الحديث من اولها ان عليك فهم الحقيقة

قال قولي باختصار . وليت صامتاً مصفياً لما نقوله

فقالت تركتني في دمشق بجوار كنيسة مريم فاسرعت الى ما بين يدي ما

بُجمل وأكثرت بغلة ركبها حتى انبت بيت المقدس . وكانت سيدتي هند ووالدتها
وسائر اهل القصر مقيمين في دبر هذه المدينة فانبا بهم بسقوط دمشق فخافوا ولكنني طأنت
هنداً واملتها بقرب مجيئك فهان عليها كل عسير ولبنا نتظر ذلك اليوم . ولكن الامر
جاء بالعكس فان سيدي الملك جلة بعث اليها في اليوم التالي ان تنأهب للرحيل سرّاً
ثم جاء هو وامر ان يسير على عجل بما خفت حمله وغلا ثمة ولم يجسر احد من اهله ان
يسأله عن جهة المسير ولولا ذلك لبقيت انا هنا لاخبرك بمكانهم فرجنا وقد اسرّت
مولاتي هدا الي انها حالما تعرف المكان الذي سنقيم فيه تبعث بخبر اليك

فسرنا اياماً وليالي ولم نخط رحالنا الا في المدينة مقام خليفة المسلمين الذي سمعتم
الكتاب يتلى بين يديه الآن وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آسنا اكراماً وحسن وفادة
وبلغني ان سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك دبانته هؤلاء الناجين . فلما ظننا المقام
استقر بنا لم يبق على سيدتي الا ان تنفذ اليك بذلك . وقد فاتني ان اخبرك وفاة ثعلبة
اولئك سمعت بو قبلاً

قال حماد لقد سمعنا خبر رحمة الله

قالت ولم تكذ توسم الراحة ونحبي الامل حتى جاءنا سيدي الملك بعجلة وبغنة كما
فعل يوم خروجنا من هنا فتأهبنا وخرجنا في ليل داس خفنا فيه خوفاً شديداً ولكن
بعض جيرانا اليهود من اهل المدينة كانوا لنا عوناً في مسيرنا الى ما وراء اسوارها . وفي
اليوم التالي تحققنا اننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هدا ارتياحاً الى هذه
الوجهة على رجاء ان تقرب ملك ففضينا في طريقنا هذه مدطال امدها ونحن نسير ليلاً
متكربين ونحني نهاراً ولا ننيم الا في الديور لانها اامن مبيت او مقام لاهل الصراية
وكانمك في بعضها اياماً واساع . قالت ذلك وختمت صوتها لئلا يسمعها احد
وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفاً من تجسس او يسمع . فقال لها سلمان تكلمي لا
تجزعي فان ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءاً ولكن اخفتي صوتك

قالت واخر مكان اقمنا فيه دبر بجهراء ولا تعمل عن حالنا لما اطلنا قبل ذلك
على صرح الغدير وبستانه وميدانه وما استولى عليه اولئك الحجازيون من المغارس
والابنية التي بناها الملوك الفساسة منذ اجيال وقد رأيت في وجه سيدي الملك
علامات الغضب والنفل حتى كادت الدموع تنازل من عينيه لولا عزة النفس . اما

سيدتي سعدى وهند فقد بكتنا واظن هندا انما بكت لتذكرها امرًا وقع لها في ذلك الصرح . والحلاصة اننا لم نصل دبر بجيرا حتى اخذ البأس من سيدي الملك كل ما أخذ لما ذاقه من ذل التنكر في بلاد كانت طوع اشارته لا يمر بها الا محنوقا بالجنود والاعوان فنصب له الاعلام ويحتمل اهلها بقدموه فكيف يمر الآن متنكرا يخاف ان يعرفه احد (قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها) . فتأثر سلمان وحماد لكلامها وغم عليها ما آلت اليه حال الفساسة وتصور حماد ان حال ملوك الحيرة سناول الى مثل ذلك فشكر الله في باطن سره لان سنوطينهم سيكون على يد غيرك

وانت المرأة حديثها فقالت . ففي ذات ليلة دعا سيدي الملك سيدي سعدى وهندا وخلا بهما في حديث طويل وفي الصباح التالي دعني سيدي هند واسرت الي ان ابحت عنك في بيت المقدس فما حولها حتى اقف على مكائك واظمنتك عنها واخبرك انهم ساروا الى العراق وسيقبضون في دبر هند بعيدين عن الشام واللقاء لانهم لا يستطيعون صبرا على ما خرج من ايديهم ان يرو كل يوم رأي العين وايدي الغالين فوقه فلما سمع ذكر دبر هند اجفل وقال اي دبر تعنين

قالت دبر هند في ضواحي الحيرة

فنظر الى سلمان وقال اعهد دبر هند في الحيرة وليس خارجها فما هذا الدبر فقال سلمان ان في الحيرة دبرين ينسبان الى هند احدها الاصغر وهو في الحيرة والآخر في ظاهرها اما الاول فقد سمي باسم اخنك هند بنته لما قبض كسرى على المرحوم والدك الملك النعمان في اوائل حكمه وحبس قبل ان تولد انت باعوام فذرت شقيقتك هذه ان رده الله الى ملكوان نبي دبرا وتسكنه حتى تموت فلما اطلق سبيل والدك فعلت ذلك ومكثت في ذلك الدبر (١)

واما الدبر الاكبر وهو ما يسمونه بدبر هند الكبرى فقد بنته هند بنت الحارث بن عمر بن حجر آكل المرار الكندي بظاهر الحيرة (٢) وهي من كنة وليست من لخم والدبر كبير اذكراني زرتنه غير مرة وكان رهبانة يترددون على منزل سيدي الامير عبدالله للمداولة بشؤون تتعلق باملاك له هناك . يأم هذا الدبراناس من جهات

العراق وغيره يقيمون فيه اباناً وفيه ما يحتاجون اليه من الزاد ونحوه
 فنظر حماد الى المرأة وقال هل تظنين هنداً في ذلك الدبر الآن
 قالت لا ادري اذا كانت لا تزال هناك لانها اوصتني بما تقدم منذ بضعة اسابيع
 فصينها في البحث عنك . ولكن سيدتي سعدى اسرت الي بعد خروجي من بين يدي
 هندان مولاي الملك جبلة انما يريد الشخص الى القسطنطينية ليقم بقرب امبراطور
 هرقل معززاً مكرماً وانه سيجعل طريقه في الفرات ومنه براً في البلاد التي لم يصل
 سيف المسلمين اليها اما سواحل الشام فانها في ايديهم لا يخلو المورجها من الخطر .
 وقالت لي انها اقنعته ان يقيم في دبر هند مدة ليرى ما يكون من حال جند العراق .
 فاذا طال غيابي عنهم اظنهم يقصدون القسطنطينية وذاك آخر مكان يقصدونه
 فافعل ما بيدولك

فلما سمع حماد ختام الحديث انقبضت مسه مخافة ان يقصد العراق فيذهب
 سعياً ضياعاً وادرك سلمان فيه ذلك فقال له الا ترى يا مولاي ان بمسيرنا الى العراق
 من حمراً فنصيب صيد من الم تكن في حاجة للبحث عن سيدي الامير عبدالله في العراق
 فمسيرنا الى هناك يجمعنا به ويهدنا ان شاء الله

فقال حماد الم تسمع ما نلي علينا اليوم من خبر واقعة القادسية وهي بالقرب من
 الحيرة الا نضن على الحيرة خطراً

قال سلمان ان الحيرة يا مولاي دخلت في صلح المسلمين منذ اعوام وكنت شاهداً
 صلحها بنفسي وزد على ذلك ما نعلمه من صيانة الديور عند المسلمين

فقال حماد وهل تعرف الطريق الى الحيرة

قال نعم

قال وانت ماذا تفعلين يا خالة

قالت لا اظني استطيع المسير معكم لما انما فيه من الاستحجال وكادي اسعكم في
 طريق آخر او ابني في دبر بحيرة انتظر خبراً من عندهم



الفصل الثامن والتسعون

* هند في دير هند *

دير هند الكبرى بناء واسع شادته هند بنت الحارث الكندية بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعد على بحيرة كانت هناك وفي الحديقة أنواع الرياحين والازهار وحولها كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة . يأوي اليه الرهبان من اهل العراق وفيه منازل للاضياف هي دار الضيافة ينزل فيها الغرباء من المائة او نحوهم يقيمون اياماً ثم ينصرفون . ورئيس الدير راهب شيخ سرياني اصله من ساباط . وقد جاء جند المسلمين العراق وحرى ما جرى لهم من الوقائع والدير في مأمن لم يصب بسوء واهله آمنون

ومن يستقبل باب الدير بوجهه يقرأ على عنقه نقشاً هذا نصه « بنت هند البينة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر امة المسيح وام عبيد و بنت عبيد في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمان مار افرتم الاسقف فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويبرح عليها وعلى ولدها ويقبل بقومها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الدهر »

ففي ذات ليلة بعد انقضاء واقعة القادسية وسكون الناس الى الراحة سمع اهل الدير قرع الاجراس وهي اجراس تعلق ببيان بعض الديور حتى اذا مرّ غريب دقها فيفتحوها له فيبيت هناك يتناول الطعام او نحوه . فلما سمع خدام الدير الدق هروا بعضهم الى الباب وكان الباب ثقيلاً مصفياً بالحديد وفيه المسامير الضخمة فاطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركاً على افراس ومعهم الخدم والامتعة فتدل الى الباب وفتحة ورحب بالقادمين واسرع الى قيم الدير يجهز بقدم ركب كبير فدخلوا رفيعهم المشاة والفرسان فلما وصلوا الى ساحة الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض المشاة فامسكوا بازمة الخيل ووقفوا جانباً لا يفتح احد منهم بكلمة . فلما ترجلوا جميعاً تقدم واحد منهم وهو لا يزال ملثماً حتى دنا من قيم الدير فهس في اذنه فاسرع وسار الكل

وراءه الى غرفة باتوا فيها تلك الليلة واهل الدبر يتحدثون في من عسى ان يكون هؤلاء الناس الذين لتلتهم لا يعرف النساء فيهم من الرجال ولكنهم عرفوا من قياتهم وسروج افراسهم انهم من اهل الشام وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم انهم بعض كبار الفساسة وهم بالحقيقة جيلة واهله فاقاموا هناك مستترين اما حماد وسلمان فلما عزموا على العراق سارا الوداع ابي عبيدة فاذا هو يتأهب لوداع الامام عمر وقد هم بالرجوع الى المدينة فوقنا ريثنا ودعه فامتطى عمر جملة وركب معه بعض الامراء وودع الناس وتحول نحو المدينة وسلمان وحماد ينظران اليه ويعجبان بما اوتيوا من رفعة المنزلة مع رغبته في الزهد والاقتصار على بساط الاشياء ولما توارى الامام معاد الامراء الى معسكرهم وفي مقدمتهم ابو عبيدة فاتظر حماد وسلمان ريثما خلا بنفسه فسارا اليه واستأذناه بالانصراف

فقال الى ابن

قال حماد اننا سائرون الى العراق لعلنا نلتقي بالوالدي فقد طال غيبته قال ثقلوا بسلامته وصحبه فانه مقيم على الرحب والسعة وهل سمعتم خبراً عن جيلة قال لم نسمع خبراً بعد وعللنا نعرف عنه شيئاً هناك (قال ذلك وهو يعلم ان ابا عبيدة اذا علم بمكانه بعث من يقبض عليه عملاً بارادة الامام عمر فانكر مكانه)

فقال ابو عبيدة اظنكما نعثران عليه في العراق فقد سمعت من بعض الناس انه سار الى هناك وربما يقيم في دير هند الكبرى خارج الحيرة فلما سمع حماد ذلك اجفل ولكنه تجلد وتجاهل وقال سنبعث عنه جهد الاستطاعة وهل تظن عليه بأساً اذا عرف مكانه

قال ان امير المؤمنين كتب الى عماله في الشام وفلسطين والعراق كافة ان يقبضوا على الرجل حيثما وجدوه لانه اسلم وارتد وخرج من المدينة فاراً فشكر حماد لنفسه لانه لم يبع بمكان جيلة ولكنه خاف عليه من الرقباء ومال الى العجلة في المسير الى العراق فاستأذن ابا عبيدة وودعه سلمان وسارا الى خالد وغيره من الامراء ودعاهم وخرجوا يتأهبان للمسير



الفصل التاسع والتسعون

﴿ وادي الفرات ﴾

وبعد بضعة ايام حملا ما استطاعا حملة من المتاع وخرجا من بيت المقدس وفيما هما في الطريق قال حماد لانظنا اذا اتينا العراق عائدین الى هذه البلاد فلناخذ امتعتنا التي نرکناها في بصرى وخصوصاً الدرع فانها كثير ثمين عندي وقد احتاج اليها في دفاع او هجوم . فمرا بصرى فنزلا البيت حملا منه ما طاب لها من خفيف الحمل وغالي الثمن وخرجا الى دير بجزيرة ودخلا الصومعة قبلا ايقوناتها فتذكر حماد اياما مرت به هناك فهاجت فيه ذكرى هند وتنبهت اشجانها وناقت نفسه الى العراق لملاقاة حبيبته قل ان يصيبها سوء ولقيا في دير بجزيرة خادمة هند فسألاها عن حالها فقالت انها ستسير في اثرها مع قافلة من قوافل العراق

اما هما فاصطحبا خادما او دليلا بسوس الخيل وبدلها على الطريق وسارا وهما نارة يمران بغياض وطورا برمال وآونة بجبال وادوية وتارة بصخور وعرة وكانت اكثر البقاع مشقة عليها صحراء الشام وفيها بقايا مدينة تدمر العظيمة وبعد بضعة عشر يوما اطلأ على وادي الفرات من اكمة مرتفعة فاذا هو سهل منبسطة يخترقها الفرات وفيها القنوات والجزيرات بينها المغارس والساتين . والمزارع وكان وصولهم الى هناك قبل الغروب فوقها والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك الثل اما حماد فوقف وهو على متن جواده والتفت الى تلك السهول الخصبية وما يتخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد وشجر النخل كأنه جند واقف لالقاء الخيمة فتذكر والد النعمان وقال في نفسه هذه هي البلاد التي كان يحكمها والدي . ومررت بذاكرتو خيالات حجة اكثرها عفيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فتزبل المخاوف على انه ما لبث ان تصورها في حال الضيق فهب من اعماق تصوراته وعاد الى قلبه

اما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة واعداد معدات الراحة فلما فرغ من ذلك جاء الى سيد وطلب اليوان يترجل فترجل فساق الخادم النرس ووقف حماد وسلمان ينظران معا الى وادي الفرات

فقال حماد وابن موقع الحيرة يا سلمان
قال ان الحيرة اول مدينة تستقبلك قبل وصولك الفرات واظننا نشرف عليها
غداً وبينها وبين القادسية بضعة عشر ميلاً

ثم جلسا للعشاء وانصرفا بعدد للفراد لان التعب اخذ منها مأخذاً عظيماً . وفي
الصباح التالي بكرأ وركما وحماد لا يصدق انه يشرف على الحيرة ويرى دير هند ولو
عن بعد . وبعد ظهيرة ذلك اليوم اشرفا على بحيرة من الماء كبيرة ظنها حماد لاول
وهلة بمرأ فقال ما هذا يا سلمان قال هذه بحيرة الخيف يا مولاي وعلى ضفافها جرت واقعة
القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر ابي عبيد . ووراء هذه البحيرة شمالاً مدينة الحيرة مقام
المناذرة اجدادك وورا الحيرة شرقاً نهر الفرات . واما دير هند فهو خارج الحيرة وربما
أطلقنا عليه بعد قليل . ولا يخفى عليك ان معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في
ضواحي الحيرة هي من املاك الامير عبدالله ولا تدري ماذا جرى فيها بعد واقعة
القادسية واذا كان مولاي الامير من شهدوا الواقعة فاطنهُ يتدبر في حفظها وحمايتها

فقال حماد الان نرى اذا اطلقنا على الحيرة الآن ان نبيت في الدير الليلة
قال لا اظننا نستطيع ذلك والمسافة بعيدة ولا تدري ما هنالك من العقبات
فقد ببيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسير الى الدير

قال حساً . وفي الغروب ظهرت لها الحيرة بايبتها ولكن الظلام غشيها قبل ان
يتبينها فباننا تلك الليلة واصبحنا وحماد لم يبق الا قليلاً لشدة فلتوه ونشوقه فكان كلما تصور
ملاقاة هنداً اخطج قلبه فوصلا ضواحي الحيرة عند الظهيرة فاطلاً على دير هند فلما رآه
حماد تذكر انه يعرفه من ذي قبل ولكنه لم يدخله فمشيا بين الكروم ومغارس الفاكهة
والزيتون وسلمان بدله على ما يملكه الامير عبدالله منها وحماد يزيد استئناساً ولكنه
ما زال هاجساً بهند لا صبر له على لقاءها ثم وصلوا الى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة
وحولها الاشجار بانعة يثر بها النسيم اللطيف فتسمع لاوراقها حفيفاً يطرب السمع بما يمازجه
من خرب الماء الجاري فوق الحصاء . فتقدم سلمان الى حماد ان يستريحاً هناك ويتناول
الغداء وفي الاصيل يدخل الدير

فقال حماد لا صبر لي على ذلك كيف نكون بقرب الدير ولا تسرع اليه
قال سلمان اري والامر لمولاي ان تستريح انت هنا والخادم يدبر لك الطعام
واذهب انا الى الدير اجتمع عن هند واعود اليك بالخبر

قال لا اراني قادرًا على ذلك ولا بدَّ لي من المسير معك فلنترك احمالنا تحت
هذه الشجرة مع الخادم ونذهب الى الدير
قال افعل ما بدالك فشرنا وغسلنا ايديها ووجهيها من الغبار وهما بالمسير



الفصل المئة

﴿ الفشل ﴾

ركبا وسارا بين الاشجار والشمس فوق الرؤوس فلم يغبهم ظل الاغصان الا
قليلاً حتى انتهيا الى باب الدير ومحماد قد نند صبره . وكان سلمان عارفاً بالجرس المعلق
هناك فنجذب الحبل فدق الجرس ودق قلب حماد معه فوقنا رمة لم يتبع لها احد فاعاد
الدق وبعد قليل اطلَّ من فوق الباب راهبٌ وقال مستنهماً . من انتم

قال سلمان زوّار للدير

قال من ابن انتم قادمون

قال من جهات الشام

فقال الراهب بلهجة النور « لا محل للزيارة عندنا » وتحوّل الى داخل الدير
فناداه سلمان فلم يجيب فكلمه بلسان اهل الحيرة فعاد الراهب وقد تذكر انه يعرف
ذلك الصوت فاطلَّ ثانية من اعلى الباب وقال من انتم

قال سلمان لسنا من اهل الشام وانما نحن عراقيون مثلكم افتحوا لنا فتنفس الراهب
في وجه سلمان برهة ثم جذب سلسلة مشدودة بالنافذة ففتح الباب فدخل حماد وسلمان
وفرساها وراءها فاخذ الراهب برحبايها وينظر الى سلمان لعله يعرفه

فقال له سلمان اتعرف هذا الشاب يا حضرة الاب . واثار الى حماد

فالتفت اليه وقال اليس هو الامير حماد بن الامير عبد الله

قال بلى هو فهل رأيت والدك في هذه الاثناء

قال رأيت مراراً وهو الآن مع جند المسلمين في خيبر ولولاه لأصابنا ضحك وربما

قتلنا فقد كان لنا عوناً ومجناً نورك فيه ومرحباً بابن
وما زالوا ساعرين حتى اتوا دار الضيافة وحماد ينظر يمنة ويسرة وقد شاعت
عيناه لعله يرى شيئاً ينسم منه رائحة هدهد فلم ير إلا رهيباً وفعله فدخلوا دار الضيافة
وتناول الفرنسيين بعض الخدم فساقوها الى الاسطبل وبعثوا من يدعو الخادم
لبأني بالاحمال.

اما حماد فتعاطف قلقة ولم يعد يستطيع صبراً فادرك سلمان فيه ذلك فابتدر
الراهب بالاستنهام عما معه من فتوح الباب لها حالاً وما الذي يخافونه من اهل الشام
فقال نلتس من الامير حماد عذراً على توقفنا عن استقباله برهة وما ذلك الا
لاننا وقعنا منذ ايام في ورطة بسبب اضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام
فقال سلمان ومن هم اولئك الاضياف

قال جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهراً ونحن نحسبهم من اعيان الشام فالبثنا
ان عرفنا انهم جيلة بن الابهيم وامراته واسنة وبعض خدمه
فلما ذكر جيلة واهله خنق قلب حماد وخاف ان يسمع خيراً بسوءه وقد عودته
حوادث الايام ان يسيء العال في كل مستقل فاصاح بسوءه ليرى ما تم لهم واكتفى
باصغافه حاناً للراهب على اتمام حديثه . وكان بعض الرهبا قد جاؤا بالمواعين
فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم يثبت احد منها اليها وظلاً مصغيين

قال الراهب : فاقام الملك جيلة بيننا اياماً على الرحب والسعة ونحن لانحسبه الا
من بعض امراء الشام . على اننا كنا نحب لاحتجابه في الدير واحساسه عن العيون
ونحن نتوسم من خبوه وخدمه انه محب للصيد والفروسية . ولكن الامر انكشف لنا
بغثة فجاءنا جماعة من جند المسلمين في عشارى بعض الايام وفيهم الفرسان والمشاة
وقرعو الباب فتحنا لم ونحن غير خائفين لما تعلمه من اليهود التي خصصوا الديور
والكنايس بها . فخرج الرئيس المحترم لاستقبالهم فقالوا لا خوف عليكم ولكن عندكم
عدواً فرّ منا في حرب الشام وكان قد اسلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليه وسوقه
الى الامير سعد بن مالك

فساله الرئيس عن ذلك العدو فقال انه جيلة بن الابهيم ملك غسان وكان جيلة
قد رأى الرجال وعلم انهم قادمون للقبض عليه فتربص ولو كان وحده لتمكن من

الفرار ولكنه لم يجد اليو سبيلاً . فقبضوا عليه وساقوه حالاً ولم يهلوه ريثما يلتفت وراءه .
فقطع سلمان الحديث قائلاً هل ساقوه وحينئذ
قال ساقوا معه امرأته والخدم

قال حماد وماذا جرى لا يتو . قال ذلك وهو مضطرب الحواس
قال الراهب اما استه هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة دير
هند الصغرى في الحيرة على ان تنضي نهارها هناك وتعود في المساء . فلما أخذ والداها
لم تكن هي هنا فلما جاءت في المساء اخبرناها بما كان فاجفنت ولطمت خديها
ونديت والداها ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أخرى حتى قاربت الشمس الزوال
ونحن نختف عنها فسألنا عما قاله لنا والداها قبل ذهابها فاعندرنا بانها لم يستطع كلاماً
لفرط ما الحول عليه بالذهاب . فاسرعت الى جواد لها كان باقياً معنا فركبت وتزملت
بعباة من الحرير المزركش كأنها فارس مغوار واستنهت عن الجهة التي ساروا فيها
بالدها فاشرنا اليها فهزت الفرس وخرجت تنهب الارض نهياً ونحن لا نعهد مثل
ذلك في البنات . ثم لم نعد نعلم عنها خبراً

فما اتى الراهب على تمام الحديث حتى انقبضت نفس حماد وانقدت الغيرة في قلبه
وتولاه اليأس فابت صامتاً كأنه اصيب بصدمة ثم التفت الى سلمان فاذا هو صامت يفكر
فاستغرب الراهب . ما الم بينهما من البغته وعهد بالخميمين يسرون بما يسوء الغساسنة
لما بينها من الضغائن القديمة فقال لها ما بالي ارى حديث جلة قد همكنا الى هذا الحد
وهو غساني العلكما من غسان

فقال سلمان لم يهنا حديثه ولا يهنا امر الغساسنة كلهم ولكننا تفكر في تلك الفتاة
المسكينة . فهل مضى على ذهابهم مدة طويلة
قال لا تزيد على بضعة عشر يوماً
قال وهل سمعتم عنهم شيئاً بعد ذلك
قال سمعنا اخباراً متضاربة فمن قائل ان سعداً امير جند المسلمين قتلهم حالاً
وقائل انهم قتلوا قبل وصولهم اليو وقائل انهم لا يزالون احياء
فازداد اضطراب قلب حماد وهمم بالتهوض فاقعدت سلمان وقال للراهب متجاهلاً
وماذا سمعتم عن ابنتي المسكينة

قال لم نسمع شيئاً عنها منذ خروجها ولعلها اقتضت آثارهم الى معسكر المسلمين فلم بعد حماد يستطيع صبراً فنهض الى جواده وتبعه سلمان . وكان خادم حماد قد وصل الدبر بما معه من الامتعة وجعلها في ما من . فافردا في مكان فلما خلوا قال حماد دعني يا سلمان اقتني اثر جيلة فقد ضاق صدري وتحذثني نفسي بسوء اصحابهم جميعاً . انهذ نهاية آمالي ونتيجة انعابي . قال ذلك وحرق اسنانه وتلألأت الدموع في عينيه واكنه تجاد تجاد الرجال وقال علينا السعي يا سلمان وعلى الله التدبير . فالرأي

قال الرأي ان نقصد معسكر المسلمين ويدخل على سعد بن مالك اميرهم فنسأله عن مولاي الامير عبدالله وهو عندك من كبار المشيرين كما تعلم فاذا لقينا اعاننا في البحث عن جيلة واهله واذا كان جيلة لا يزال حياً وسطنا الامير عبد الله بالعفو عنه فقال نعم الرأي رأيك ولكن هنداً ابن هي

قال نظنهما معهم وهب ان والدها قتل فهي لا تقتل لان المسلمين لا يؤذون النساء فقد تكون عندهم في حفظ وخصوصاً اذا كان سيدي الامير عبدالله قد رآها او عرف مقرها

فقال حماد الا نظنهم يتخذونها سيئة . . اعوذ بالله قال ذلك وهم بالجواد بركة فقال سلمان هبل يا مولاي ريثما نلاقي رئيس الدبر ونسأله عن معسكر المسلمين لتلاً نذل السعي والوقت عبثاً . قال حسناً وتجلدا ودخلا على الرئيس وكان قد عرف قدمهما فرحب بهما وقبل حماداً وامر لها بمائة فقالا لا نستطيع طعاماً لاننا خارجان على عجل لامر هام لنا وقد جئنا لوداعك . قال اتودعاني قبل ان تلتقي

قال كذلك قضى علينا واتم تعلمون ان سيدي الامير عبد الله في معسكر المسلمين وفي نيننا ان نذهب اليه فابن هو معسكرهم

قال ان المسلمين معسكرون الآن تجاه المدائن في بهرشير (١) واظنكم تعرفونها وهي بالحقيقة قسم من المدائن فانها في الغرب والمدائن في الشرق وبينهما دجلة . فقد نزل المسلمون على بهرشير وحاصروها شهرين ورموها بالنبال والحمايق حتى فطحت . فاحتلوها وهم عاملون على فتح المدائن (٢)

فقال سلمان اني أعرف بهر شير جيداً ويسهل علينا الوصول اليها اذ لا يحول
بيننا وبينها إلا الفرات وبعض السهل

الفصل الحادي بعد المئة

* فتح المدائن *

فودعا الرئيس ويزلا الى الغرفة التي أودعا الامتعة فيها فلبس حماد درعه ورداه
والده الملك النعمان وجعل خاتمه بين اثوابه وسلمان ينظر اليه فسأله عن سبب ليه
ذلك الرداء فتهند وقال . السناء ذاهبين الى المدينة التي قتل فيها والدي النعمان

قال بلى

قال ألسنا في شك من فناء هدية

قال الله اعلم

قال حماد ونحن نعلم ايضاً انها قد تكون حية او ميتة اذ لا يعرف احد مكانها وقد
سبق والدها الى القتل لا محالة فاذا كانت لحقت به فلا يجلو امرها من احد خطر بن
اما ان تكون سيئة او قتيلة وكلاهما موت . فهل أطمع بعد ذلك في الحياة وقد آن الوقت
الذي يجب علي ان انتقم فيه لوالدي وهذه جنود المسلمين علي ابواب المدائن فاني محارب
معهم حتى ادخل الابواب بنضي فاقتل كسرى بيدي فاذا قتلت فما انا خير من هند . ولا
عيش لي بعدها . واذا حبيت فذلك امر الله بقدره لحكمة لا نعلمها . قال ذلك
وقد علاه الغضب وتجلت في وجهه مهابة الملوك فاقتطبت اسرته وما زال يلبس درعه
وصليل حديده مسموع الى الخارج . فتهيب سلمان من منظره وليت صامتاً لا بدري
مايقول . ثم قال الا ترى يا مولاي ان تتنكر بزى المسلمين لئلا يستغشونا في وسط المعركة
فيجسبونا من الفرس او من عرب الحيرة احلافهم

قال لقد رأيت حسناً . وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الاثواب لما كان
يخناج اليه من التنكر فاستخرج ثوبين ليس كل منها ثوباً ونعماً بعمامة امل ان يجاز حتى
لا يشك الناظر اليها في انها حجازيان

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وهم اهل الدبر بتهمة طعام المساء فشهدا جماعات منهم عائدتين باحمال الاثار والاشباب من بساتين الدبر ثم ركبا واطلنا الاعنة للجوادين ففضيا مئة صامتين وافكارها ساجحة في ما سمعناه يستوقف مجاريها اصوات حوافر الخيل واغمام وقعها بين قرقة على الحجارة وهمس على الرمال وهالا يتكلمان . فامسى عليها المساء وراء الحيرة فمانا في كيسة هناك واصبحا راكبين فمرّا بجيف بعضها رم خبول وجمال والبعض الآخر جنث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الضخمة التي لم تقدر على قضها السور فتذكرا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس . ثم قطعنا الفرات على جسر من السنن وفي اليوم التالي اشرفا على المدائن وقصورها عن بعد فرأيا فوقها ضباباً كثيفاً يكاد ينجسها عن الابصار فقال سلمان لقد هي امر هذا الضباب فاني اظنه غبار الحرب ويخال لي ان المسلمين يهاجون المدينة في هذا الصباح . ثم وخرنا الجوادين حتى وصلنا بهرشير فاذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر فسألنا عن سعد بن مالك فقيل لهما انه يخوض النهر يجيشه لتخ المدائن والمسلمون يقتنون اثره فنتشأ عن الامير عبد الله فلم يبقها يجيبه احد فصعدا الى اكمة اشرفا منها على المدائن ودجلة فرايا المسلمين يقطعون النهر بافراسهم والرماح مشرعة في ايديهم^(١) وبعضهم قد بلغوا الضفة الاخرى يحملون الاعلام . ونظرا الى المدائن فاذا بعض حاميتها قد خرجوا من الاسوار نافيا لهم وافراسهم واعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين وقد علا الضجيج حتى استكثت المسامع وتساعد الغبار حتى حجب السماء . فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملوكة في عروقه وثارت الحمية في رأسه فنظر سلمان اليه فراه قد احمرت عيناه وهو يتفرس في ساحة القتال كأنه بهم بالوثوب اليها فقال له ما بال سيدي في شاغل .

« فنظر حماد اليه وقال « اراني يا سلمان راغماً في نزول هذه الساحة فقد آنت ساعة الانتقام لوالدي . هؤلاء هم قنلة النعمان من المنذر قد نزولوا لقتال المسلمين فلا اراني صابراً عن منازلهم ووصية والدي خارجة من ظلمات القبر . ولا ريب عندي يا سلمان ان نقاعدي عن القيام بتلك الوصية من اول الامر هو الذي عرقل مساعي

وحرمني من هند لان طاعة الوالدين واجبة وقد تهاملنا في هذا الواجب فجزينا بالنعيب والشقاء والفشل والفتنوط . الم تكن هـد طوع ارادتنا الم يكن والدها راضياً بي ينتظر ساعة الفرار . فما باله احجم وتغير من يوم قرأنا تلك الوصية المقدسة وعولنا على اغناها . ذلك اول قصاص نلناه وما زالت نتوالى علينا الاحن وتنف في سيلنا العقبات من ذلك الحين حتى خرج النصيب من ايدينا او كاد وكان الله سبحانه وتعالى قد جرنا الى هذه الساحة اذكرنا بما ارنكناه لعلمنا رعووي ونصدع بالامر وكأني بوالدي يناديني باعلى صوته من اعماق قبره واظنه ما انتك يفعل ذلك منذ اعوام ولكننا كنا بعيدين عن مدفوه فلم نسمع النداء . وتحدثني نفسي يا سلمان ان انازل هؤلاء الفرس في جملة المنازلين وعلي برد النعمان بن المنذر ويدي خاتمة فاما ان اقل شهيد النار المقدس واما ان احيا بعد النصر واظنر بخطيبيتي فيطيب لي القران عملاً بوصية والذي فقد اوصاني ان لا اقضي امراً مثل هذا الا بعد الانتقام له » وما اتى حماد على آخر كلامه حتى ارتعشت انامله وثار عواطفه ولم يتالك عن ان همز جواده نحو النهر فحاض الماء وخاضه وبلمان في اشع حتى اتيا الضفة الاخرى فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا المدابن فدخلوها في اثرهم . واوغل المسلمون في المدابن وحماد في جملتهم حتى اتوا ابوان كسرى فدخلوا حديقته وخبولم تدوس الازهار والرياحين ورماحهم تحترق اغصان الليمون والازدرخت حتى وصلوا باب الابوان فكان حماد اول داخل وقد عول ان يقتل كسرى بيده . والابوان قاعة كبيرة (١) طولها مئة ذراع وعرضها خمسون مبنية بالاجر والجبص سقفا عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش وفي صدر الابوان عرش يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة في داخلها مروحة من ريش العمام والى جانبي العرش مجالس الاعوان والوزراء من المرازية والكهنه وجدران الابوان وسقفة مزينة بالرسوم وفي جملة ذلك رسم كسرى اتوشروان وغيره من الآكاسرة العظام وايات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكداني وفي سقف الابوان رسوم الافلاك والاجرام فلما رأى حماد نفسه في وسط الابوان ووقع نظره على ذلك العرش اسرع نحوه وهو يحسب كسرى جالساً عليه فاذا هو خالٍ وليس في المكان احد من الفرس لفرارهم

(١) راجع الفصل السابع والستين من هذه الرواية

جميعاً الى حوان^(١) ولم تمض لحظات حتى امتلأ الابوان بالمسلمين وقد اخذوا في تكسير التنايل وتزريق الحور وكان النرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خف حملة وغلا ثمنه وبقي مع ذلك ما لا تندر قيمته من الذهب وأحجار الكريمة والثياب المزركشة والاسلحة المذهبة والتيجان المرصعة

اما حماد فحالمما تحقق سقوط المدائن لم يعد يشغله شاغل عن الناس الامير عبد الله فلم يره بين الهاجرين فانشغل باله عليه فاو عز الى سلمان ان يساعده في طلبه وكان سلمان اكثر قلقاً عليه من حماد . فقال لحماد لا تبعد انت عن هذا الابوان فاني ذاهب الى سعد بن مالك امير هذا الجند لعلني اسمع منه خيراً عن سيدي الامير قال حسناً وبقي حماد في جملة الجند لا يستغسه احد حتى سكنت الغوغاه وهو ينظر الى ما يجمله الثقاتحون من التحف الغريبة وفيها التيجان والسيوف المرصعة فسمع قائلاً يقول هذا هو سيف النعمان فلما سمع ذلك خفق قلبه وود او يناله هو ولكنه لم يجسر على الناس . فقال في باطن سره هذا هو سيف النعمان وهذا ابن النعمان وهذا رد النعمان وهذا خاتمه قد شهدوا حرب الفرس معاً ورأوا سقوط دولتهم رأى العين وذلك ما تمناه والذي ولم يبق لي في الحياة مأرب الا اذا ظنرت بمنيتي ومنتهى اربي . ولم يكذب تذكر هندا حتى عادت اليه اشجانه وسي موقفة والناس في شاغل عنه فهمز جواده واخذ في البحث عن عبدالله فتذكر مواعده مع سلمان فوقف حتى عاد سلمان فاذا هو منفض الوجه فقال له حماد ما وراءك قال لتيت بهض حاشية سعد من مالك وسألتهم عن الامير عبدالله فقالوا انه كان معهم ولكنه خرج من المعسكر اول البارحة ولم يعد

فقال هل سألتهم عن جيلة

قال سألتهم فقالوا ان . هندا امر بقتلو منذ قبض عليه

فقال هل علمت اذا كانت هند معه عند قتلوه وماذا جرى لها

قال علمت انها لم تكن معه ويظهر انها لم تصل اليه فقد قال لي فخير ان جيلة

سبق اسيراً ومعه امرأته فقط وعلى كل حال لا نظننا تبين الحقيقة الا من سيدي

الامير عبد الله

وتركا المدينة والمسلمون بحسبونها من جملة جندهم لما تنكروا به من الزي الحجازي حتى اذا صاروا خارج المدائن قال حماد لقد قضي الامر يا سلمان وسقطت عاصمة الفرس وان يكن ملكها يزدجرد فرّاً ولم يقتل بعد ولكنه مقتول لاحالة فيها قد انفذنا وصية والدي ولكننا ما لبثنا ان سمعنا بمقتل جملة ونحن في ريب من امر اهلنا ولا نعلم مقرّ هند . قال ذلك وحرقت اسنانه واطرق

فقال سلمان لا اظن هنداً الا في بعض الديور وعلى كل حال انا لانستطيع امراً قبل مواجهة الامير عبد الله

قال حماد وما العمل

قال ارى ان نفتش عنه

قال اخاف ان يكون قد اصاب حنثه ايضاً

قال لا اظن ذلك لانه لم يكن في المعركة وقد علمنا انه كان في المعسكر قبل الهجوم فلعله التجأ الى مزرعة من مزارعه خوفاً من الحرب
قال اُتُعرف له مزرعة قريبة من هذا المكان

قال اعرف مزرعة له على بضعة اميال منا فلنذهب اليها لعلنا نقف على خير من بعض الفلاحين هناك

قال حماد سر انت في هذه المهمة ودعني اعود الى الحيرة اجدد البحث عن هند لعل احداً من اهل الدبر يبينني بخبرها ولنضرب موعداً نلتقي فيه بمكان نعيته
قال لقد رأيت رأياً حسناً وأرى ان نلتقي في دير هند الصغرى في الحيرة بعد ثلاثة ايام فمن استطلع خبراً قصة على الآخر . وافترقا



الفصل الثاني بعد المئة

* أين هند *

فاطلق حماد لجواده العمان وعاد فحاض دجلة واغرب يلتمس الفرات فقطعة
وسار قاصداً دير هند الكبرى وبات في الطريق ليلة ونزل على الدبر في اصيل اليوم
التالي ففرع الجرس ففتحو له وهم يحسونه مسلماً لتكن بلباس الحجازيين فرحبوا به
ولشوا ينتظرون ما يبغونه فلم يكلمهم وظل قاصداً الرئيس وقد عرف غرفته فاستقبله
احسن استقبال وبالغ في اكرامه فلم يصبر على تنكره فاطلعه على حقيقته فسأله عما
لغية فقص عليه خبر المداين وفخما فذكر الله وقال لقد توسمنا قرب سقوط الفرس
منذ اشهر لانه سبحانه وتعالى لا يبق على عدة النار فان هؤلاء الفاتحين وان لم يكونوا
نصارى فهم يعبدون الله ويوجدونه ويؤمنون بالانبياء والرسل ويذكرون عيسى
ومريم بالخير ففي انتصارهم نصرته للدين القويم

ولم يكن هذا الحديث ليهم حماداً ولكنه صبر حتى فرغ الرئيس من كلامه فقال
له هل سمعت شيئاً عن جيلة بعد ذهابي
قال لم نسمع عنه شيئاً ولكننا سمعنا خبراً عن ابنته
قال وماذا سمعت عنها

قال ان بعض رهباننا ينزلون الحيرة مرتين في الاسوع يحضرون سوقها يستبدلون
ما يفضل عندنا من غلات ارضنا بما نحتاج اليه من الانسجة او الآنية او نحوها
فاتفق للذين نزلوا على ان يخرج جيلة واهلها منهم رأوا تلك الفتاة في بعض طرق
الحيرة على انهم اختلفوا في حقيقتها فأكبرها بعضهم واصر الآخرون على انها هي بعينها
فلا ندري ايها مصيباً

فلما سمع حماد ذلك قال الا يتنازل حضرة المحترم لاستقدام اولئك الرهبان لعلي
اتحقق الامر بنفسي

قال حباً وكرامة . وصنع فجاء راهب فامر ان يدعو راهبين سماها وبعد هنيهة
جاء الرهبان فسألهما حماد عن تلك الفتاة فقال احدهما رأيناها قبل ان ندخل الحيرة

بقرب بحيرة هناك وبخال لي انها ابنة جيلة ولكن اخي هذا ينكر علي ذلك
فقال الآخر لا اظنها هي لاني لم اتوسم فيها ما عهدناه من الالفة والعزق فقد
عرفناها هنا وفي وجهها مهابة الملوك وفارقتنا على جواد كأنها من امهر الفرسان والفتاة
التي شاهدناها لا اقول انها لا تشبهها ولكنها اشبه بعامة الناس منها بالملوك
او الامراء

فلما سمع حماد كلامها تحير في امره ومال بكليته للمسير الى الحيرة يتفقد هندا
بنفسه فتظاهر بالاكتفاء بما سمعه ص بالنهوض فدعاه رئيس الدبر للمبيت عندهم تلك
الليلة فاعتذربا يدعوه الى سرعة المسير وودعه وخرج والشمس قد مالت نحو المغرب
وجعل الحيرة وجهته ولم يكذب ينواري عن الدبر حتى اشرف على الحيرة ورأى غدبرها
المتصل بالبحيرة وقد غابت الشمس واخذت الكواكب في الظهور فاطلمت الدنيا
في عينيه فالتفت فاذا هو على ميل وبعض الميل من المدينة ثم اشتد الظلام ولم يعد
يرى الطريق فتبين له عن بعد نور مزدوج عرف من خفقانه انه وقود عند الشاطئ
انعكس نوره في الماء فظهر مزدوجاً فقصد وقيل ان يصلة سمع صوتاً يناديه بلغة العراق
« من أنت »

فقال غريباً لا اعرف الطريق ومن أنت

فقال يا هلا بالضيف يا هلا بالفارس

ثم رأى حماد الرجل قادمًا ويده خشبة مشتعلة يستضي بها فتفرس فيه فاذا هو
شيخ طاعن في السن قد استرسلت لحيته وشاب شعره ولكنه لا يزال في نشاط الشباب
عليه عباءة خلفة ويده عصا كبيرة فعرف حماد من مجمل منظره انه راع على انه ما
ليث ان شم رائحة الزريرة وسمع معاء الماعز فتحقق ظنه ولكنه لم ير حوله بناء ولا خيمة
فترجل وسلم والراعي يتفرس فيه وينظر نارة الى وجهه وطورا الى لباسه
ثم قال له ما مالي ارى لباسك حجازياً وكلامك عراقياً

قال لي من كليهما . وقطع الكلام . فسكت الراعي ونقدم الى الهرس فقاده بعنايه
وليس في ذلك المكان غيرها فمشيا لا يسمعان صوتاً غير معاء الماعز وتيق الضنادع
حتى انتهيا الى كوخ صغير مبني من سعف النخل وقد ربض عند بابو كلب كبير الجثة
ظل رايضاً هادئاً كأنه ادرك ان النازل ضيف لا خوف منه على القطيع

الفصل الثالث بعد المئة

* أبن الشبي من الخلي *

اما حماد فلما وصل الكوخ واشتم رائحة الرعاة استنكف من الدخول اليه فقال
للشيخ دعنا نجلس هنا فان ذلك افرح لنا
قال مرحباً بك حيثما جلست . وانا بهرور من جلد الماعز جالس عليه وذهب الشيخ
بالفرس الى عمود وراء الكوخ شدة اليه واخذ في نزع السرج . وفيما هو يفعل ذلك
سمعه حماد يتم ويقول اقوالا لم ينهها
فناداه فلم يجبه فاعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بينه فنظر حماد اليه فاذا هو يتبسم
فبانت لثته ولم يبق فيها الا سن بارزة الى الاعلى
فقال له حماد ما يضحكك يا اخا لحم
قال انما اضحككي ما رأيت في عنة هذا الجواد ما يشبه عنة فرس تعودت ان اراه
كل ليلة من ليالي الاسبوع الماضي بركة فارس قد اعجبني فيه ما اعجبني فيك
قال من هو ذلك الفارس وما الذي اعجبك فينا
قال لقد اعجبني فيكما التكر فان ذاك كان يا تبني في كل صباح ملثماً وعليه
عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليه رداء الرجال . وانت جثني بلباس
الحجاز وكلام العراق فلا ادري تغيرت الارض واخطلت الناس ام كيف
فتذكر حماد هدأ وما سمعه من تزلها بالعباءة يوم خروجها من الدير فاستأنس
بحديث الرجل فهم باستيضاحه فاذا هو قد تركه وتحول نحو الزربية فاستقدمة
فاجاب انه آت على عجل فثبت حماد كأنه على مقالي الجمر حتى عاد الراعي وفي يده
قصعة من الخشب قد أكد لونها من نوالي السنين على استخدامها بلا غسل وفيها لبن حلبة
من ماعزه وقدمها له ليشرب

فاعذر حماد بانه لا يجناح الى طعام

فقال الشيخ لقد نزلت ضيفاً فاعليك الا ان تناول الطعام واذا كنت ملان
الجوف نهل ريثا آتيك ببعض الخبز قال ذلك وتحول نحو الكوخ وعاد بنصعة فيها

خمر فقدمها لحماذ وهو يقول اليك هذه الخمر فانها من غلة كرمنا هذا العام . فتناول حماد القصة لا رغبة في الشرب ولكنه ذاف اذا اعتذر ان يأتيه الشيخ بشيء آخر ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب بلاعب ناصيته بين اصابعه وهو ينظر الى حماد

فابتدرة حماد قائلاً ذكرت لي الفارس المتكروم ثم حديثك قال هذا هو كل حديثي عنه . فانه انما منذ بضعة عشر يوماً فاوقف جواده عند هذا الكوخ وسألني الذهاب الى دبر همد لاسئتهم له على اناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير ام لا . وكنت اذا نظرت اليه رأيتُهُ فارساً ملثماً فاذا تكلم خلته امرأة فسألته ان يحسر اللثام عن وجهه فأبى ودفع اليّ ديناراً فاطمعت امره ووعده ان يجواب في المساء فعاد في المساء وهو يظني ذهب لانه لم يدر اني لا استطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من اعهد امرها اليه . فلما سألتني اجبتُهُ اني سألت اهل الدير فقالوا انه لم يأتهم احد . وما زال يكرر زيارته ودفع الدنانير وانا اجبته جواباً متشابهاً حتى اذا كان منذ بضعة ايام استخلفتني بدمر الماشية والسيدة مريم ان آتية بالخبر اليقين . فسرت الى الدير فسألتهم فقالوا انهم لم يأتهم احد وهب ان احداً من اهل الشام جاءهم فلا يقبلون زيارته . فلما اجبت الفارس هذا الجواب غضب وغم وكاني سمعته يلطم ثم تحوّل عني ولم اعد اراه من ذلك اليوم فقدمت لاطلاص الخدمة وافاد المهمة بالصدقة . فلما رأيتك وانست ما آسنه من المشابهة بينكما ضحكت وعلوت على ان لا اصدق في خدمتك

فلما سمع حماد ذلك تحقّق ان السائل همد بعينها فقال للشيخ ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس

قال لا . وهب اني اعلم فما انا صادقك فمد حماد يده واستخرج دينارين دفعهما اليه فتناول الشيخ القدين وهو يفرس فيها ويضحك ثم قال اما اذا شئت ان اصدقك الخمر فاعلم ان الفارس سار معاذياً لهذا الشاطئ فاصداً الحيرة فلما بعد عني وصار على مقربة من المدينة رأيتُهُ نرجل ووقف مدة فظننته عائداً اليّ فانشغلت عنه برهة ثم التفت فلم أره فاستولى الفلق على حماد وعجب لترجلها ووقوفها وليت صامتاً يفكر ثم قال ومتى

حدث ذلك

قال حدث منذ اسبوع

اما الشيخ فلما آتس من حماد بدلاً حاول المبالغة في اكرامه فجعل يقدم له الخمر واللبن فلما رآه لا يشرب شيئاً وقد مضى بعض الليل دعاه للرفاد في الكوخ فقال حماد لا احتاج الى رفاد

فقال اذا كنت تحنقر كوخى وقد تعودت المنام على الاسرة فاني معذ لك فراشاً من الحرير . ودخل الكوخ ثم عاد وفي يده ملاءة فرشها له فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عنده ففهرس فيها فاذا هي عباءة مزركشة فأجفل لرؤيتها ومد يده فتناولها ونظر اليها بضوء القمر فاذا هي عباءة هند وكان كثيراً ما يراها عليها اذا ركبت فصاح في الرجل وأنى لك هذه العباءة . فضحك الراعي ضحكة يمازجها خوف ولم يجيب فقدم حماد على ما بادأه به من الجناء وقال يهدق لقد اعجبني لطفك وحسن وفادتك فاني يا عماء لا استطيع القيام بحق شركك على هذا الاكرام الا تخبرني ممن ابتعت هذه العباءة

فسكن روع الشيخ وأشار الى كلبه وقال انها من صيد هذا الكلب

قال وكيف ذلك

قال افنتدته ذات صباح فلم اجده وكان قد تعود السرح في بعض الايام ثم ما ليك ان عاد وقد عض على هذا الرداء بيده وجاء يجده وراه

فازداد قلبي حماد وقال ومن اي جهة قدم به

قال من جهة الشاطئ

فقال الا تظنها العباءة التي كان ذلك الفارس ملتجئاً بها

فتفخخ وتشاغل عن الجواب وحرك حاجبيه وكتفيه كأنه يقول لا اعلم



الفصل الرابع بعد المئة

* المناجاة *

فتحقق حماد انها عباءة هند فحاف ان يكون لوجودها هناك سبب محزن فتحقق قلبه ونشأه وحدثته نفسه ان يتبع الشاطئ لعله يقف على اثر آخر ثم تردد مخافة ان يتوه عن الطريق والوقت ليل فحاول الانتظار الى الصباح ولكنه نظر الى السماء وتأمل مواضع الابراج فعلم انه في نصف الليل فاستبعد الأجل . وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فانار الجيرة وشاطئها وابنية الحيرة . وفي اول تلك الابنية قصر الحورنق الشهير . فعول على مغافلة الراعي والمسير على الشاطئ فتظاهر بالصخر والقلق وقال له اراني لا استطيع رقاداً الآن فاحفظ بالفرس ربثا أمشي على هذا الشاطئ برهة لعل النعاس ان يأتيني واعطني العباءة الغنمها فتقيني من البرده

فقال افعل ما بدالك

فتناول حماد العباءة ونزمل بها وسيفه الى جنبه قرفعه وعلقه بمنطقه لئلا يطرق الارض فيحدث صوتاً يعترض مجاري تصوراته وسار الهوبنا محاذياً للشاطئ وقد سكن الهوا وارت الطيور الى اوكارها . فبعد ان مشى برهة وقف والتفت وراءه فاذا بالزرية قد توارت عنه فنظر الى ما حوله فعلم انه على مقربة من الحيرة وبينه وبينها المغارس والكروم وامامة الجيرة وقد هدا ماؤها ونور القمر ينعكس عن سطحها فيتلألأ كالزجاج والطبيعة هادئة ساكنة لا يتخلل سكونها الا نقيق الضفادع . فجلس على صخر هناك واطلق لتصوره العنان ففكر في ما هو فيه من الهواجس وتصور هنداً وعباة بها وما الذي اوصل ذلك الكلب اليها . فاعترضه فكر اقشعر منه بده وخيل له ان هنداً لما تبست من لقاء القت بنفسها في ذلك الماء فبقيت العباءة على الشاطئ حتى حملها الكلب الى الزرية ولما تصور ذلك انقبضت نفسه واحس كأنك صببت عليه ماء بارداً وهم بالعباءة يقبلها ويتنسم رائحة هند منها فغلب عليه الوجد فاخذ في البكاء وجعل يخاطب العباءة وهو يبكي ويتهد ويقول

اخبريني يا عباءة هند اين تركت هنداً هل انت خلعتها ام هي خلعتك وقد غرقت في هذا الماء وتركتك نذيراً بمصيرها آه من طواري الجذنان آه من تقلبات

الزمان ابن هند الآن ألعها لا تزال في قيد الحياة ام هي غارقة في هذا الماء وقد اكلت لحمها الاساك . . . كيف تموت هند وحماد حي يرزق . . . وسكت برهة ثم قال العلي قصرت في البحث عنك حتى يشتت من لقائي من يخبرني ابن انت . . . هند هند . . . ابن انت ألبسني درعا لتقيني وفتلي نفسك فجع الله رأي والدك وضعف عزيمته لقد جر علينا الشقاء سامعه الله اذا كان لا يزال بين الاحياء . من يخبرني ان هذا حية او مينة فاذا تحققت موتها استودعت الدنيا ولحقت بها لعلنا نلتقي في ظلمة الابدية . . . ثم سكت برهة ومسح دموعه ونظر الى ما حوله فاذا هو منفرد ليس من يسمعه او يراه فاطلق لنفسه عنان البكاء وعاد الى العبادة فلف بها وجهه وجعل يشمها ويقبلها ويشهق في البكاء حتى كاد يفي عليه

ثم رفع العبادة عن وجهه ووقف بغنة والتفت نحو الحيرة فاذا بيوتها ساكنة هادئة فقال . . . هؤلاء اهل الحيرة نيام لا بزعمهم طيف ولا يقلقهم خيال . هل يعلمون ان على شاطئ بحيرتهم ملكا يبكي كالطفل هل يعلمون ان ابن ملكهم النعمان صب هائم يبحث عن حبيبته في اكفافهم هبوا ايها الراقدون اخبروني ابن هي هند ابن انت يا هند ابن قامتك ابن عينك ابن انت اجيبيني فاخبرك ان دولة الفرس قد سقطت وانتقلت لوالدي تعالي نجتمع ونسي الاحران والانعاب لقد آن زمن الراحة . . .

ولكن آه ابن الراحة من متى مات والدك قبل ان يولد هو وانقضت زهرة عمره وهو لا يعرف نبيه حتى اذا عرفه وان له ان يستريح تكيه الزمان بضياح حبيبته آه — يا ليتني لم اعرف ذلك النسب فان معرفته جرت علي كل هذا البلاء — ما احلى الحب وما اسعد الحبيبين اذا التقيا ولو عاشا في كوخ مثل كوخ هذا الراعي واوغل في البكاء وهو يقرب العبادة بين يديه ويقبلها ويشم رائحتها حتى ملها وقد تعب وخارت عزيمته فانكأ على الصخر ففزع الدرع فتوسد الثرى والتي رأسه على حجر فغلب عليه التعب والنعاس فغضت اجفانه وهو بين اليقظة والنمام

ثم استيقظ مذعورا كأنه سمع صوتا يناديه فنظر الى ما حوله فلم ير احدا فعلم انها احلام اقتضتها هواجسه وشكوكه . ولكن ذلك الصوت ما زال يرن في اذنيه وقد اضطربت حواسه وخيل له هذو المكان وسكون الطبيعة انه في عالم الارواح وان ذلك الصوت خارج من القبور فانشر جسمه

وكان البرد قد قرسهُ والتعب انهكه على اثر ما فاساهُ من الركوب نهاره كلة مع ما لم يره من التهجج والكدر في ذلك الليل فالغف بالعباءة جيداً وتبعض ومشى بالشاطيء وهو يجاذر ان تسمع خطواته كأنه يجاف احداً. ثم رأى النجوم تتوارى رويداً رويداً حتى لم يبق منها الا القليل وقد تضائل ضوءها فعلم ان القمر قريب. ثم بدا الشفق من وراء الافق بطارد اشعة القمر وهو ساجع في النضاء كأنه يودع الليل على موعد. ورأى الاطيار خارجة من اوكارها بين مفرد ومرنم ومصفق ومررف ومخلق فمشى حماد والعمامة على رأسه وقد فسد هندامها لما قاسته من صدمات العباءة. اما العباءة فجعلها على كتفيه وشدها على صدره يتقي البرد بها ولم تضي برهة حتى سمع دق الاجراس من كنائس الحيرة وادبرتها فاخذ يتفرس في الشاطيء لعله يقف على اثر آخر من آثار هند ثم خاف ان ينزل احد من اهل الحيرة ليغتسل او يستقي فيراه في تلك الحال فهم بالرجوع وفيما هو يتحول سمع وقع حوافر فأجفل والتفت فرأى فارساً خارجاً من سور الحيرة كأنه يطلب الحيرة ولم يقع نظره على الفرس حتى خنق قلبه لانه يشبه فرس هند ولكنه لم يره فوقه سرجاً وقد ركبه غلام يشبه ان يكون خادماً فوقف حتى دما الفرس منه فتامله فاذا هو فرس هند بعينه فبغت واستبشر وصاح في الغلام فوقف

فقال له الي يا غلام

فجالما رأى الغلام العمامة المجازية خاف واسرع نحوه

فقال له لمن هذا الفرس

قال هو للامير فلان

قال ومتى اقتناه

قال اول البارحة

قال ومن اشتراه

قال من بعض الرهبان عرضه للبيع في سوق الاربعاء

فقال واني للرهبان مثل هذا الفرس وهو من خيول الشام

قال لقد تعودنا مشاهدة مثل هذه الخيول يا سيدي منذ قامت الحرب فكل

قتيل لم يكن له وارث وُهبت امتعته واسلابة للادبوق تنفقها في سبيل البر فكم من

فارس قتل وظل فرسه نائمًا فاستولت عليه الديبور وباعته
 فلما سمع حماد ذلك ايقن بموت هند غرقًا في تلك البحيرة وتحول عن الغلام خشية
 ان يرى بكاءه واطلق لدموعه العنان والشمس لم تشرق بعد . اما الغلام فلم يصدق
 انه نجا من ذلك الحجازي فحول عنان الفرس وكان قادمًا ليستقيه فعاد ولم يسهو
 فلما خلا حماد بنفسه وقف عند الماء والعباءة تظلمة ونظر الى السماء وتهد وقال
 أطع بعد ذلك بالبقاء . . . لمن احيا وقد فقدت حياتي أشرب الماء وقد غرقت
 فيه حياتي . . . ما الذي حملك على الانتحار يا هند أيا سلك من لقائي فضلت اللعاق
 بي الى دار الابدية وقد ظننت اني سبقتك اليها . فبحن على كل حال لاحق اثر سابق
 ولكن وبلاءه انفرق اعيامًا ونحن في جهاد وشقاء فاذا آن اللقاء وزالت العراقيل
 امتنعت علينا الحياة . . . ثم سكت ونظر نحو الشمس فاذا هي لم تطل بعد فقال أأنظر
 شروقك لعلك تأتيني ببشارة ام انت لا تحمين الألبلاء والشقاء . دعيني اتوسد
 الماء قبل ان ارى وجهك . ونظر الى الماء امامه فاذا هو رقيق لا بفرقه فحول الى
 صخر رآه نائمًا فوق الماء على مفرجة منه وقال الاولى بي ان التي تنسي من فوق ذلك
 الصخر فمشى نحوه وفيما هو ذاهب شعر يجاذب في نفسه بمسكة عن الانتحار فاعتذر ذلك
 من قبيل الضعف الذي يتولى الانسان اذا تحقق دنو الاجل

الفصل الخامس بعد المئة

* لقاء هائل *

فلما وصل الصخر صعد اليه ومشى نحو حافته فرأته قدمه وتعثر باذياله فوق وفيما هو
 يتجهز للنهوض حاست منه التفاتة فرأى اشباحًا خارجة من ضواحي الحيرة تطلب البحيرة فقال
 في نفسه فلا عجان الاجل قبل وصولهم فتقدم فاحس بما بمسكة عن ذلك العمل واستولى
 عليه الضعف الطبيعي فتجلد ونظر الى تلك الاشباح فرأها تقترب نحو الشاطئ فتأملها
 فاذا هي اشباح نسوة احداهن تحمل جنّ والاخرى سلا واخرى تسوق بعبيراً وكلهن في
 زيٍّ واحد فاستغرب البستنّ المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤوسهن اغطية سوداء فهتمة
 امرهن وعلم ان تلك الالبسة لانكون الا في الديبور . فحبل له ابهن راهبات خرجن قبل

الفجر للاستقاء وقطاف الاثمار والبقول من مزروعات الدبر فحسد من على سذاجتهن
 وخلو قلوبهن من لواجم الحب ورأى حاملة الحجر تقترب نحو الشاطئ، ثم ما لبثت ان
 دنت منه حتى كرت راجعة كأن احدًا بطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات
 هند ولكنها أضعف منها كثيرًا فعلق ذهنه بنلك الفتاة وود لو انه يراها لحظة اخرى
 فظل يتبعها بنظره حتى رآها وقفت الى رجل يحطب فخطابته واشهرت الى حماد .
 فانشغل بال حماد ومال الى معرفة سر ذلك الخطاب ثم رآها آتية مع الفتاة يجريهما
 والرجل بفاسو

فلبث ينتظر وصولها فتقدم الرجل اولاً وحبياً حماداً وتلطف في السلام عليه
 وحماد ينظر الى الفتاة وهي منصرفه نحو الشاطئ، لتملأ جريها فقال الرجل لحماد انا اذن
 لي بسؤال . قال قل . قال من اين اشتريت هذه العباءة

قال وما بعينك من امرها

قال لايتها مسروقة من صاحبها فاذا اخبرتنا عن باعك اياها طالسنا بها
 قال وما ادراك ان هذه هي بعينها ان العبي قد نتغابه
 قال ان صاحبها رآها بعينها وعرفها وله فيها علامات
 قال ومن هو صاحبها

قال الفتاة التي رأيتها الآن فانها حالما رأتك عادت اليّ بالخبر وقد كنا قضينا
 ثلاثة ايام ونحن نبحث عنها

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسه في منام فمسح عينيه والتفت الى ما حوله واستشهد
 وجدانه فتحقق انه في يقظة فنظر الى حاملة الحجر فرآها قد ملأت جريها وعادت
 الى رفاقها فجعل يتأمل خطواتها فاذا هي خطوات هند ولكن الجسم نحيل . فقال للرجل
 ما بال صاحب العباءة لا يطالب بها بنفسه

قال لان صاحبها من راهبات دير هند الصغرى ولا يؤذن لمن يخاطبة الرجال .
 واما انا فمن خدمة الدبر المكلفين بمثل ذلك
 فقال حماد (وقلبة يكاد يطير من الفرح وهو يسك نفسه ويتجدد) وهل صاحبة
 هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة

قال لا تزال حديثة وقد دخلت في طور الابتداء فاذا مضى عليها بضعة اشهر

نحت الاختبار رسوها ولذلك فقد وهبت الدبر كل ما كان معها من الثياب والمصاغ والدواب فايفن حماد انها هند ولولا عمامة ولباسه الحجازي لعرفته لاول نظره وهي لولا ثوبها الاسود ونحوها لعرفها . فلما ايقن انها هي بنفسها ارتعدت فرائصه لما كان فيه من الخطر وحمد الله لنجاته على هذه الكيفية وحدثته نفسه ان يسرع الى هند فيطلعها على حقيقتهم فخاف عليها من البغته مع ما آتته من ضعفها فصبر نفسه . وخاف من الجهة الثانية ان تكون قد نذرت العفة فلا يبقى له اليها سبيل فقال للرجل وهل نذرت العفة قال لا تنذرها قبل ان تنقضي مدة الابتداء

فاطمان باله ونظر فاذا بالفتيات لا يزلن في شواغلهم بعيدات لا يسمعن ولا يرين وصاحبة الحجر قد وضعت جرتها على الارض وجلست على حجر منفردة تنتظر رفيقاتها ليرجعن الى الدبر معاً

فقال حماد للرجل اذهب الى صاحبة العباءة وقل لها اني لا اعطي العباءة الا نسلباً بيدها

قال قلت لك يا مولاي انها لا تستطيع ذلك

قال اليك هذا البرد . وخلع برد النعمان عنه من العباءة ادفعه اليها بدلاً وقال فنناول البرد وتأملته فاذا هو اتمن من العباءة كثيراً فاسرع به حتى أتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعه اليها وقال لم يعطني العباءة ولكنه دفع الي هذا البرد . فحالما رأتها صاحبت للحال حماد حماد . . . وتركت الحجر وأسرعت نحوه وكان هو واقبها ليري ما يبدو منها فلما رآها نهضت وأسرعت نحوه لم يبق عنده ريب بشئها فاسرع للملاقاة وقد نزع العمامة عن رأسه فلما التفتها وقعت هند مغيباً عليها فاستلقت على جنب حماد فانهضها وكان خادم الدبر قد رآها تسرع نحو حماد فلما اغي عليها اسرع بالماء ورشها فافاقت وهي تقول حماد حماد حماد . . . وهو يقول هند هند حبيبي هند أنت حبة وانا احسك غريفة في هذا الماء . ولو تأخر قدومك لحظة اخرى لذهب حماد طعاماً للاسماك

قالت حماك الله يا حبيبي . ثم غلب عليها الحياء . فغطت رأسها بالنقاب الاسود وجلست منأدبة وقد امتنع لونها وتولاها الهزال . فقال لها ابن والدك يا هند . قالت اما سمعتم خبره انهم قتلوه واظنهم قتلوا والدتي آه من ثقلبات الايام . واوغلت في البكاء .

قال هل تحققتِ مقتلهُ

قالت لم اراهُ ولكنني سمعت به ولولا ذلك لرأيتني معه حينما كان لاني لما فبصلا عليه وعلى والدتي امتطيت جوادي وتعقبت اثرها فوصلت الحيرة فبت في هذا الدير وقد كنت اتردد اليه قبلاً فاشارت عليّ الرئيسة ان ابقى عندها وابعث من يستطلع الخبر فعاد الخبرون وقد أكدوا مقتلها فلم يبق لي نصير الا حبيبي حماد ومن يخبرني بقدموه فان الخادمة التي كنت ارسلتها للبحث عنك في بيت المقدس لم تعد بعد فاستخدمتُ راعياً بالقرب من هذه المدينة كنت اتردد اليه متنكرة ليسأل عن قدومك الى الدير فقطع املي من دخولك الدير لان اهله لا يقبلون فيه واحداً من الشام فضقت ذرعاً واستولى عليّ اليأس ولم يبق لي في الدنيا مطمع بعد فقد والدتي وضياح حبيبي وزوال عز الملك وخسارة الاموال والعقار ولا انكر عليك اني هممت بالانتحار غير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لاني لم اياس من لقاءك بعد فلم اجد وسيلة غير التهرب في دير اعرف رئيسته وبعض راهباته فطلبت ذلك فقبلوني مبتدبة تحت النجربة فوهبتم كل مالي من الثياب والفرس ولم احفظ شيئاً غير الاساور وهي عربون المحبة بيننا فاتها مخبأة بين اثوابي وكنت قد اضعفت عباءتي هذه اثناء رجوعي المرة الاخيرة من عند الراعي لفرط قلقي وهو اجسي على اثر ما انبأني به من خبر الدير فوقعت العباءة عني ولم انتبه فبحث عنها في اليوم التالي فلم اجدها وهو اليوم الذي طلبت فيه الانضمام الى الرهينة فاخبرتهم اني فقدت هذه العباءة فاذا عنروا بها كانت حلالاً للدير وهذا هو اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تجارب كثيرة فحملت الاحمال ولم يستغلل الاشغال الشاقة فزادني ذلك ضعفاً على ضعف

الفصل السادس بعد المئة

* دير هند الصغرى *

وكان الخادم واقفاً وقد ذهل لما رآه فتقدم الى هند فاوأم اليها ان عملها هذا مخالف لشروط الرهينة فقالت دعنا نذهب الى الرئيسة فنهضت ونهض حماد ومسيها لمقابلة الرئيسة وفيها ما في الطربق سألته عن سبب تنكره وما مر به فاحكى لها حكايته

بالاختصار حتى اتى الى حديث المدائن والبحث عن والدها فلما بلغ الى هناك تنهدت هند وقالت آه يا حبيبي انى سعيبة بلقياك ولكن حظي غير تام لما قاسيته من فقد والدي فقال لها اننا لم نتحقق مقتلها وقد كلفت سلمان بالبحث عنها وموعدا الالتقاء في دير هند هذا في الغد وهو اليوم الثالث من افتراقنا ومن عرف خيراً اطلع الآخر عليه . فقد فرزت بطريقتي فعسى هو ان يفوز بمن يبحث عنهم والامير عبد الله معهم وكانا ماشيين في وسط المدينة لايهمها استغراب الناس لمسيرها معاً بل كانا في شاغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق فلما وصلا الدير اسرع الخادم الى الرئيسة فانباها بما شاهدت من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المتبدية مما يخالف العهود المعطاة من المسلمين . فاطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هنداً وحجاءاً قادمين وكان حجاج قد نزع عمامته فعرفت من ملامح وجهه انه عراقي فارادت استطلاع السر فدخلت بها الى غرفة منفردة فهم حجاج فقبل يد الرئيسة فعرفت انه مسيحي فسألته عن امر

فقال اذا اذنت فاخبرك ان هذه الفتاة خطيبتى منذ اعوام وقضت حروب الشام بافتراقنا لا يعلم احدنا بكان الآخر حتى اذن الله باجتماعنا على يدك وتاملت الرئيسة بوجه حجاج وهو يكلمها فاستت في وجهه هيبة وجلالاً فقالت الست عراقياً

قال نعم ومن بني لحم
قالت ويخال لي ان هنداً شامية من غسان

قال نعم
فقال وكيف اجتمعنا
قال كذلك قدر الله

اما هند فتذكرت اول معرفتها حجاجاً وتذكرت والديها وياسها من حياتها فترقرقت الدموع في عينيها فلحظت الرئيسة فيها ذلك فقالت لها ما بالك تبكين يا ابنتي وكان حجاج قد ادرك سبب بكائها فقال اظنها تبكي لضياح بعض اقاربها في اثناء حرب الشام فجعلت تخفف عنها وتعزيها . وتذكر حجاج الامير عبد الله وسلمان فصبر نفسه ليرى

ما يأتي به الغد وقال للرئيسة على ترين ما يمنع خروج هند من سلك الرهينة
 قالت لا اري مانعاً لانها لم تنذر العفة بعد
 قال فلتق اذاً يوماً آخر في ضيافتك لاني على موعد مع خادمي باللقاء هنا
 غداً وقد ذهب للتنفيس عن ضائع لنا فاحفظي بها ريثما اعود فاني ذاهب الى راعٍ
 في ضاحية الحيرة تركت فرسي عند البارحة
 ثم نهض فلبس العمامة اثلاً ينكر الراعي وترك العباة عند هند وهم بالخروج
 فامسكتة قائلة لانذهب فاني لست تاركك لحظة بعد هذا اللقاء فقد كساني ما قاسيته
 فلا يفرق بيني وبينك الا الموت

قال والفرس

قالت دعنا من الافراس او ارسل من ياتي به فما انا راضية بذهابك ولا نخرج
 من هذا الدبر الا معاً اما الى القتل واما الى الحياة
 فعذرهما والتفت الى الرئيسة فطلب اليها ان تنفذ رسولاً من قبلها يستجلب الفرس
 فبعثت واحداً يعرفه الراعي ويثق به واطلمعه حماد على علامة يتقدم اليه بها وبعث اليه
 دينارين ولبك ينتظر عودته

اما الرئيسة فقالت لحامد لا يحق عليك يا سيدي انسا في دبر راهبات لا يؤذن
 للرجال دخوله الا اذا نزلوا في دار الاضياف واما اجتماعهم بالراهبات فمحظور فاذا
 رأيتك الراهبات مع هند وهن لا يعرفن علاقتكما ساءوا الظن فهل تفضل فتنزل في دار
 الاضياف ريثما يأتي الغد

قال أفعل ما تأمرين . وودع هنداً وتزل بصحبة الخادم الى دار الاضياف
 فمراً بمربط الخيول فرأى افراساً شاهد بينها فرساً يشبه فرس سلمان فاستبشر واسرع
 الى الدار فلقبه سلمان فهم احدهما بالآخر وهما يتسلمان فاستبشرا معاً فقال سلمان هل
 ظفرت سيدي بهند

قال نعم ولكنها راهبة في هذا الدبر

قال وهل نذرت العفة . فضحك حماد وقال لا وانت هل ظفرت بالامير عبد الله

قال ظفرت به وبجيلة وامرأته

قال ابن م

قال سيصلون الينا الليلة او غداً وسيأتون متنكرين لانهم كانوا مخبئين عند سيدي الامير عبدالله ولولاه لكان حموك جلة في عالم الاموات ولكن الامير عبدالله حالما علم بالقبض عليه استرضى الذين امسكوه واظهر للناس انه قتل وخبأه في منزله بتلك المزرعة ريثما يتمكن من العثور على هدى او الاجتماع بك فلما وصلت اليهم وأنبأهم بخبرك انفذني لإثمتك واساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون هم الينا فاشرح صدر حماد ايما اشراج وحمد الله على انقضاء الازمة بالتي هي احسن ولم يملك صبراً عن تشييرهند ببقاء والدها حياً

وهم بالرجوع الى الدبر فرأى هداً واقفة في الشرفة تطل على دار الضيافة لانها لم يعد برناج بالها على حماد الا اذا كان امامها فلما رأته عائداً وعليه امارات الدهشة اومأت اليه فمظرا اليها وضحك فضحكت هي وقد اشرق وجهها ونسبت كل متاعها وقالت ما وراءك

قال همسان والذك والذتك قادمان الينا غداً

فابرفت اسرتها واسرعت للاقائه عند الباب ولم تعد تعماً بقوانين الدبر . فلما لقيته مدت يدها اليه وصافحته وضغط كل منها على يد الآخر ضغطة ما ادراك ما وراءها . ولا نسل عن حديث القلوب وجواذب العيون

فقال هند هل انت متحقق قدوم والدي

قال هذا سلمان قد جاء بالخير اليقين ولكنهم قادمون ومعهم الامير عبدالله متنكرين فاحذري ان يلحظ احد ما نحن فيه لئلا تقع في شر اعمالنا فتكون الليلة الثانية شرّاً من الاولى

قالت وسأخبرك خبراً جديداً حدث ساعة خروجك من غرفة الرئيسة

قال وما ذلك

قالت ان خادمتنا الامينة التي كانت تسعى في اجتماعنا ولولاها لا ادري ما تم لنا قد وصلت الدبر الآن بعد ان قضت اياماً بالبحث والتفتيش ولم تكن عالمة بوجودي هنا ولكنها جاءت تنسم الاخبار من الراهبات فلقيتني وسررت بها لانها ذات فضل علينا قال لقد اذكرتني بنفل سلمان الشهم الغيور فلا ادري بماذا اكافئه على مروءته وحسن صنيعه . ثم قال فاذهي الآن الى الرئيسة ودعها على ان تفارقها غداً بعد

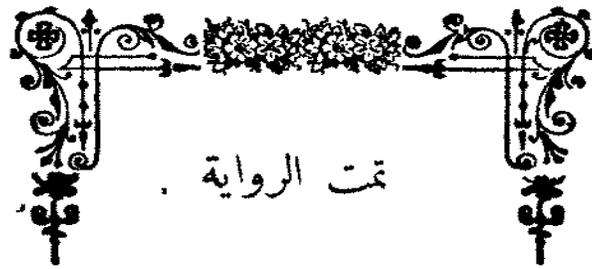
وصول والدليك والامير عبدالله واحذري ان تسي اسم احد منهم
قالت لا تخف من ذلك
وتحولت وتحول هو الى دار الضيوف ومكث هناك الى صباح اليوم التالي

الفصل السابع بعد المئة

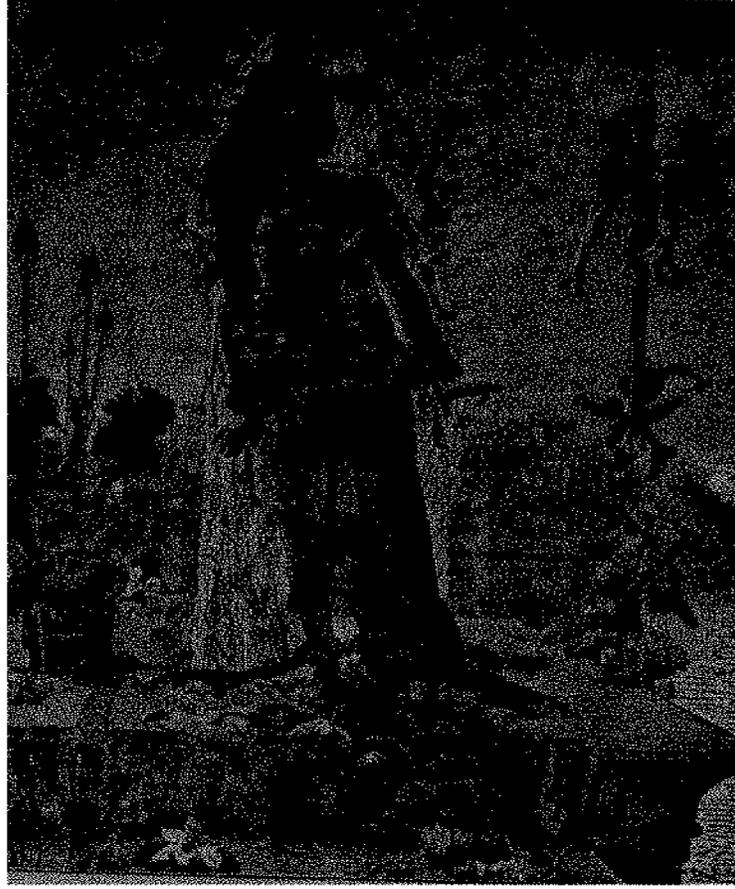
* قرآن سعيد *

فاستحسن حماد الخروج للملاقاة القادمين في الطريق فخرج وسلمات معه على
الخيول وهدى لا تعلم وقطعا مسافة حتى وصلا عين ماء لا بد للتقدم من المدائن الى
الحيرة من الوقوف عندها فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رأيا هندا وخادمتها
قادمتين مسرعين على الاقدام وهدى بثوبها الاسود الجديد فيهما وصاح حماد ما الذي
اتي بك يا هدى . قالت سامحك الله الم اقل لك اني لم اعد استطيع العاد عنك لحظة
مخافة ان نعود الى ما كنا عليه من الفراق . فشكرها وجلسوا ولم يكذب يستنب بهم
الجلوس حتى رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات فتقدم سلمان لتحتق القادمين فعاد
صاحكا مبشرا فنهضوا جميعا ونهبوا ولا استقبال القادمين ولكن سلمان عاد فاخبر
الركب ان حمادا وهددا ينتظرا نكم هنا فقبل وصولهم الى العين ترجلوا جميعا وهم جيلة
مسرعا الى حماد فضمه الى صدره وجعل يقبله والدموع تنساقطه من عينيه واسرعت
سعدى الى هند وجعلت تقبلها وتبكي ثم تبادل جيلة وسعدى فقيلت سعدى حمادا
وجيلة هندا واما عبدالله فظل واقفا يتأمل في ذلك المنظر المؤثر فلما انتهت سعدى
من تقبل حماد تقدم اليه وضمه الى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء مرّا ولم يستطع
احد ابعاده عنه حتى خافوا عليها وهم لا يعلمون سبب ذلك وبعد برهة انفصل عنه
وقد تباينت عيناه وقال لا تلوموني على ما رأيتم من شدة تعلقي بحماد وان ما ترونه من
دموعي انما هو دموع الفرح فان حمادا ملكي وولدي وصديقي وفخري وسندي وما
زادني تعلقا انه قد اتتم لوالده وشهد سقوط دواة الفرس ومحا العار عن لحم ورفع ثقلا
عن عاتقي حملته منذ نيف وعشرين سنة ثم تقدم عبدالله الى هند فقبلها والجميع يبكون
بكا الفرح وسلمان ينظر اليهم وقلبه يكاد يطير فرحا فلما سكث الجميع وهنأ روعهم

وقف سلمان وقال اسمعون لي بكلمة اقولها بين ملكين وملاكين . لقد شاركنكم في فرحكم بهذا الاجتماع السعيد فشاركوني بفرحي بمقتل ثعلبة الخائن الذي كان سبب كل هذه الاتعاب . ثم نهض جبلة والدموع لا تزال في عينيه وقال اما انا فلا اقدر اصف نخلي من ولدي حماد لما سبته له من الشفاء وما بذله هو ورفيقه او قل والد الامير عبد الله من الجهد في انقاذنا من الموت فنظر سلمان الى جبلة وقال الا تزال سيدتي هند تمتنع على سيدي حماد ومن يا ترى افضل لديك حماد ام ثعلبة . فضحكوا جميعاً ثم نهض عبد الله وقال اعلموا ايها السادة اننا في خطر عظيم الآن ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لاننا اعداء الفرس بالطبع واعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة اوامر اميرهم فلا شك انهم سيجنون عنا ويبدلون كل سعي في القبض علينا فقال سلمان لقد نطقتم بالصواب واريد على ذلك اننا لا نبرح الحيرة قبل ان نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما نشاؤون ولوزعل حماد و هند . . . فضحك الجميع فقال جبلة ذلك هو الرأي الصواب واذا استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية دار الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك اذ لم يبق لنا مقام في الشام ولا العراق قالوا حسناً ونهضوا الى كنيسة قرب الدير عقدوا للعروسين بالاختصار ولا يحنج الفاري الى تقدير قيمة تلك الساعة السعيدة فانها من ساعات العمر وبعد الاكليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو القسطنطينية فوصلوها بعد بضعة عشر يوماً واقاموا فيها حتى قضى الله بما شاء



تمت الرواية .



☆ ضجة النيل ☆

إيضاحات

☆ رواية تاريخية غرامية . الطبعة الثانية ☆

« نايف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب »

تتضمن على أهم حوادث التاريخ الإسلامي وأكثرها تعلقاً بالقطر المصري أعني ظهور الإسلام وفتوحاته وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة أسباب ذلك الفتح وما كان من حال القبط مع الروم وشرح أحوالهم وعوائدهم وأخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً وهي عبارة عن تاريخ فتح مصر في صدر الإسلام مع تمثيل حركات الجند وملابسهم ومداورات

القواد في خيامهم وقصورهم وماجال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب حكاية
 يقرأها المطالع ولا يبل بل يزداد اشتياقاً لمطالعتها وهو يحب انهُ يقرأ قصة
 فكاهية فلا يأتي على آخرها الا وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثه كأنه شهده
 بنفسه ومن ابطالها عمر بن العاص والمقوقس حاكم مصر والاعيرج قائد جند
 الروم فيها وغيرهم وفي هذه الطبعة فضلاً عما في الطبعة الماضية فتح
 الاسكندرية وخروج الروم من القطر المصري مدحورين ثمنها ١٠ غروش
 مصرية واجرة البريد غرشان ولا بأس من ارسال القيمة طوابع بوسطة



اسْتَبَدَّ اِمْرَاءُ الْمَمَالِكِ

✽ رواية اديبة تاريخية . الطبعة الثانية ✽

(تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب)

تضمن هذه الرواية حوادث آخر القرن الماضي وقد مثلت فيها
 احوال الامراء المماليك ومعاملتهم للرعية وعلاقتهم بالدولة العلية وداخل
 الروسية ومن ابطالها علي بك الكبير ومحمد بك ابو الذهب والشيخ ضاهر
 العمر وغيرهم . ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف

To: www.al-mostafa.com